رسالة ماجستير

بعنوان

شعر الجهاد في عصر الموحدين

اعداد

شفيق محمد عبدالرحمن الرقب

١٩٧٨/١٩٧٩م

اشراف

الاستاذ الدكتور عبدالكريم خليفة

(قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات الحصول
على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب
في الجامعة الاردنية) .

مقدمة :ـ

الأحداث يذكّر بعضها ببعض، إذا كان بينها روابط. فلا غرابة إذن أن يذكّر الغزو الصهيوني الاستيطاني لفلسطين بالهجمة الصليبية العاتية التي تعرّضت لها الأندلس، فما أشبه الليلة بالبارحة! فكلا الغزوين انتهى باستيطان الغزاة، وتشريد أهل البلاد الإسلاميّة، والسعي الدائب إلى تغيير الوجه الإسلامي لتلك البلاد. وكلاهما وفد من الغرب الأوروبي: عليه يعتمد، ومنه يستمدّ أسباب قوّته. وكلاهما يقوم على ادّعاءات فكرية مزعومة.

وقد استمرّ الصراع بين المسلمين والفرنجة على الأندلس حقبة طويلة، وكان لذلك أصداء واضحة في الشعر. وتضفي هذه الدراسة الحديث عن شعر الجهاد في عهد الموحّدين. وهو عهد متميز في التاريخ والشعر: فهو في التاريخ يتميّز بقيام دولة إسلاميّة فتية في المغرب، وهي دولة الموحدين، كان من أهدافها الأولى إعادة الهيبة إلى الوجود الاسلاميّ في الأندلس الذي أخذ نجمه في الأفول. كما يتميّز الصراع في هذا العهد بحدته، وعنفه، وموازرة الكنيسة في روما له، واعلانها الحرب الصليبية على مسلمي الأندلس، ودعوتها أمم أوروبا النصرانية إلى الاشتراك في هذه الحرب. ولعلّ الأمر الذي يلفت النظر أنّ هذا الصراع الذي احتدم في الأندلس وافقه صراع مماثل في الديار المقدّسة.

وهذا العهد يتميّز في الشعر بغزارة الانتاج، وكثرة الشّعراء الذين واكبوا أحداث الصراع وسجّلوها، فكان ذلك سببا في شهرتهم في المصادر الأندلسية.

ونهدف من دراسة شعر الجهاد في عهد الموحّدين إلى تلمّس الأصداء التي تركها الصراع فيه، وإبراز قيمته في الدراسات التاريخية والاجتماعيّة عن ذلك العهد، وبيان الدور الذي اضطلع به الشعراء في تعبئة الأمّة للوقوف في وجه العدوان، دون أن نغفل الكشف عن النواحي الجمالية في ذاك الشعر، لعلّ ذلك يكشف عن حال غير حال الجمود والانحطاط اللذين رمي بهما الشعر الأندلسي والمغربي في عهد الموحّدين.

ويقوم المنهج المتبع في هذه الدراسة على تحقيق النصوص من مصادرها المختلفة، والاستقراء الداخلي لها، واستخلاص النتائج منها، لذلك فإنّ أيّ تحويم حول تلك النصوص، لن يتعدى كونه وسيلة من وسائل التفسير والتوضيح، ومن ثمّ كان على الدارس أن يلمّ بالظروف التي أنتجت شعر الجهاد، ذلك أنّ شعرا قيل في ظروف تاريخيّة محدّدة، لا بدّ أن يدرس في ضوء تلك الظروف.

وتتكوّن الدراسة من تمهيد وخمسة فصول وخاتمة : يدرس التمهيد الحياة السياسيّة والاجتماعيّة والفكريّة في دولة الموحّدين ، ويدرس الفصل الأوّل النظرة الإسلاميّة للصراع، ودور الشعر في التعبير عنها ، ويبحث الفصل الثاني في ((شخصية البطل في شعر الجهاد)) ، والدور الذى اضطلع به في الصراع، ويتناول الفصل الثالث نظرة الشعراء إلى الصليبيين ، وموقفهم منهم ، والصورة التي قدموها لهم ، ويبحث الفصل الرابع في مواكبة الشعر لأحداث الصراع، ومدى الاعتماد عليه مصدرا للمعلومات التاريخية عن تلك الأحداث، ويتناول الفصل الخامس تقييم شعر الجهاد ، وسيكون هذا التقييم من إطارين كبيرين : — الدور الذى اضطلع به في الصراع، والأداء الفني . وتنتهي الدراسة بخاتمة تتناول النتائج التي توصّل اليها الدارس.

وسيرفق بالبحث فهارس عامّة للأعلام، والقبائل والشعوب، والأماكن .

وقد استقيت مادّة هذه الدراسة من مصادر عديدة : بعضها يعود الى عصر الموحّدين ، مثل : الجزء الثاني من كتاب ((المنّ بالامامة)) . وهذا الكتاب من أهم المصادر التي وصلتنا عن المرحلة الأولى من تاريخ الدولة الموحّدية. فقد جاءت مادته تركيزا على أحداث الصراع بين المسلمين والصليبيين حتّى سنة ٥٦٨هـ . وقد كان مؤلّفه معاصرا للأحداث التي يرويها ، فجاء الكتاب وصفا شافيا لها . كذلك يشتمل هذا الكتاب على مجموعة كبيرة من شعر الجهاد لا توجد في مصدر غيره . كما أن فيه مجموعة من الرسائل والوثائق الموحّدية الصادرة عن الخلفاء أنفسهم، وهي مفيدة لدراسة النظم الإدارية والمالية للدولة الموحّديّة .

ومن هذه المصادر : — كتاب ((أعزّ ما يطلب)) وهو مهم للباحث في الأسس الفكرية التي قامت عليها الدولة الموحّدية، وممّا زاد من أهميّته أنّ مؤلّفه هو محمد بن تومرت القائم بأمر الدعوة الموحّديـة .

ومنها : — كتاب ((نظم الجمان)) لابن القطان . وهذا الكتاب ينفرد بوثيقتين هامتين عن الدولة الموحّدية ، هما : — رسالة ((الكافية في براهين الإمام المهدى)) ، و الثانية موجهة من عبد المؤمن إلى الطلبة والمشايخ والأعيان في الأندلس. وهاتان الوثيقتان مفيدتان في دراسة الأسس الفكرية التي قامت عليها الدولة الموحّدية، وأثر ذلك في الحياة الاجتماعية . ومما تجدر الإشارة إليه أنّ ابن القطان من المؤيدين للموحّدين ، الأمر الذى يجعلنا نأخذ روايته بحذر .

ومنها : — كتاب ((المعجب)) لعبد الواحد المرّاكشي . ونجد في هذا الكتاب حديثا مفصلا عن جهاد الموحّدين في الأندلس، وتصويرا لبعض النواحي الاجتماعية في تلك الدولة، وخلال ذلك كان المؤلف يضمّن كتابه شذرات شعرية تتعلّق بأحداث الصراع . وقد ألّف المراكشي كتابه هذا في المشرق ((بغداد)) بعيدا عن المؤثرات السياسية ، فزاد ذلك من أهميّته، حيث يبدو عنصر الحياد واضحا فيه .

ومنها :ـ كتاب ((التكملة)) لابن الأبار. وقد ترجم المؤلف في هذا الكتاب لمائة كبيرة من رجال الفكر والأدب في عصر الموحدين . وهو مفيد في تحقيق أسماء الأعلام التي ترد أثناء الدراسة ، ومعرفة الدور الذى اضطلعت به في الحياة الفكرية في ذلك العهد .

واعتمدت أيضا على مصادر قريبة من عهد الموحدين ، منها :ـ الجزء الثالث من كتاب ((البيان المغرب)) لابن عذارى المراكشي . وأهم ما يمتاز به هذا الجزء أنه ينقل هذرات عن مؤرخين معاصرين للدولة الموحدية لم تصلنا كتبهم ، أهمها السفر الثالث من كتاب ((المن بالإمامة)) . وقد أورد ابن عذارى في كتابه هذا حديثا مفصلا عن صراع الموحدين مع الصليبيين ، ومجموعة شعرية كبيرة تتعلق بأحداث ذلك الصراع .

ومن هذه المصادر :ـ كتاب ((الأنيس المطرب بروض القرطاس)) لعلي ابن أبي زرع الفاسي . وهذا الكتاب مهم في دراسة التاريخ السياسي للدولة الموحدين .

ومن المصادر المهمة التي اعتمدت عليها في هذه الدراسة :ـ كتاب ((الروض المعطار)) لابن عبد المنعم الحميرى . وهو مفيد في تحديد المواقع الجغرافية للمدن الأندلسية ، وضبط أسمائها ، ومعرفة التطورات التي مرت بها ، والأحداث التي تعرضت لها . ونجد خلال ذلك أحاديث مفيدة عن أوضاع هذه المدن خلال العهد الموحدى ، وما كانت تعانيه من اعتداءات الصليبيين . وقد أورد المؤلف خلال ذلك بعض الأشعار التي لم نجدها في مصدر غيره .

ومنها :ـ كتاب ((نفح الطيب)) للمقرى . وهذا الكتاب موسوعة شاملة في تاريخ الأندلس وحضارتها . أما أهميته بالنسبة إلى هذه الدراسة فتبدو في احتفاظه بمجموعة كبيرة من المواد التاريخية والأدبية عن عصر الموحدين ، وخاصة المتعلقة بأحداث الصراع مع الصليبيين .

ونذكر بالاضافة الى المصادر السابقة :ـ كتاب ((صلة الصلة)) وكتاب ((الذيل والتكملة)) ، وكتاب ((الحلة السيراء)) وكتاب ((المغرب في حلى المغرب)) وكتاب ((أعمال الأعلام)) ، وكتاب ((الاستقصا)) ، والأجزاء المخطوطة من كتاب ((الوافي بالوفيات)) . . . .

ولا يفوتني أنّ أوجّه الشكر الجزيل إلى استاذي الدكتور عبد الكريم خليفة، الذي رعى هذه الدراسة منذ أن كانت فكرة، وأحاطها بكلّ رعايته وعنايته، فكان لي نعم الموجّه الأمين، والعالم المخلص، فأسأل الله أن يجزيه كلّ خير.

وأخيرا، فإني أحمد الله إنْ أصبت، وأعتذر للقارئ إنْ أخطأت، وما توفيقي إلاّ بالله العلي العظيم، عليه توكلت وإليه أنيب.

شفيق الرقب

الجامعة الأردنية

١٩٧٨/١٩٧٩م

تمهيـــــــد

الحياة السياسيّة والاجتماعيّة والفكريّة على عهد الموحّديـــــن

أ) الحياة السياسيّـــــــة ،
ب) الحياة الاجتماعيـــــــة .
حـ) الحياة الفكريـــــــة .

الحياة السياسيّة

كانت الأندلس في أواخر العهد المرابطي أن تعود الى سيرتها الأولى أيام الطوائف(١) . فبعد وفاة الأمير عليّ بن يوسف بن تاشفين (٢) اندلعت في أنحاء الأندلس الثورات التي لم يستطع أبناؤه السيطرة عليها . فقد قامت ثورة في قرطبة (٣)، وثورة في غرناطة (٤) ، وأخرى في مالقة (٥) ، وأخرى في مرسية (٦) .

أمّا المغرب فقد اختلّت فيه أحوال الأمير عليّ اختلالا شديدا ، « فظهرت في بلاده مناكير كثيرة ، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ، ودعواهم الاستبداد ، وانتهوا في ذلك الى التصريح ، فصار كلّ منهم يصرّح بأنّه خير من عليّ أمير المسلمين وأحقّ بالأمر منه »(٧) .

كان لاضطراب الأحوال السياسيّة في أواخر عهد المرابطين أثر واضح في الحياة العامّة ، فقد غلت الأسعار بمرّاكش « وكثرت اللوازم على الرعايا بالمدن وتيسّر وألحّ العدوّ النصرانيّ الضربات على جميع جهات الأندلس حين علموا عجز الامارة في المغرب »(٨) فاستولوا على كثير من البلاد والحصون (٩) .

---

١ — المعجب : ص ٢٧٧ .

٢ — ولي الأمر بعد وفاة أبيه يوسف سنة ٥٠٠ هـ ، حسن السيرة ، مقيم للعدل ، زاهد متبتّل . اضطربت أحوال دولته في أواخر عهده . توفي سنة ٥٣٧ هـ . انظر : القرطاس : ص ٥٥ و ص ١٦٥ ، المعجب : ص ٢٣٤ — ٢٣٥ .

٣ — الحلّة السّيراء : ج ٢ ص ٢٠٦ ؛ بغية الملتمس : ص ٢٧٦ ، التكملة : ج ١ ص ٢٨٦ — ٢٨٧ . وانظر عن قرطبة : الروض المعطار : مادّة قرطبة ص ٤٥٦ .

٤ — الحلّة السّيراء : ج ٢ ص ٢١٢ ، رايات المبرّزين : ص ٨٤ . وانظر عن غرناطة : تقويم البلدان : ص ١٧٧ .

٥ — بغية الملتمس : ص ٤٢ . وانظر عن مالِقة : تقويم البلدان : ص ١٧٥ .

٦ — المعجب : ص ٢٧٨ ، المنّ : ج ٢ ص ١١٥ ، بغية الملتمس : ص ٤٣ . وانظر عن مرسية : تقويم البلدان : ص ١٧٩ .

٧ — المعجب : ص ٢٤١ .

٨ — البيان المغرب : ج ٣ ص ١٢—٩٣ .

٩ — المصدر نفسه : ص ١٣ .

وفي هذه الأثناء كان المغرب الاسلاميّ يشهد ميلاد حركة اصلاح تجديديـــة تهدف الى اعادة الهيبة للوجود الاسلاميّ في المغرب والأندلس، والعودة بالاســلام الى منابعه الصافية الأولى (١) . وقد تزعّم هذه الحركة محمّد بن تومرت(٢) الـــذى ادّعى أنّه من آل البيت النبويّ .

وقد بدأ محمّد دعوته آمرا بالمعروف، وناهيا عن المنكر(٣) ، واستطاع ان يستميـل كثيرا من القبائل اليه (٤) . وألّف لها عقيدة خاصّة باللّسان البربرى (٥) ، وربّاها تربيـــة اسلامية (٦) ، وهيّأها تعبئة شاملة ضدّ دولة المرابطين (٧) . وقد أطلق ابن تومرت علـــى أتباعه هؤلاء اسم " الموحّدين" تعريضا بلمتونة (٨) في أخذهم بالعدول عن التأويـــل وميلهم الى التجسيم(٩) .

ولمّا استوثق أمر ابن تومرت بين القبائل ادّعى أنّه المهديّ المنتظر الذى سيملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت ظلما وجورا (١٠) ، ونظّم أصحابه تنظيما فريدا (١١) ، وخاض بهـــم

---

١ - أخبار المهدى : ص ٣ وص ١٥ .

٢ - هو القائم بأمر الدّعوة الموحّدية سنة ٥١٥ هـ . رحل الى المشرق في طلب العلم . وقيل انّه التقى بالإمام الغزالي . اختلفت المصادر في نسبه ، فبعضها أقرّ لـــه النسب النبويّ الذى ادّعاه ، وبعضها أنكر عليه ذلك . توفي سنة ٥٢٤ هـ .
انظر : الحلل الموشية : ص ٨٤ ، نظم الجمان : ج ٦ ص ٣٤ ، أخبار المهدى : ص ٢١ ، تاريخ ابن خلدون : ج ٦ ص ٤٦٤ ، المعجب : ص ٢٤٥ وص ٢٦٢ ، عصر المرابطين الموحّدين : ج ١ ص ١٥٨-١٦٤ .

٣ - انظر : المعجب : ص ٢٤٦ - ٢٥٤ .

٤ - القرطاس : ص ١٧٦ - ١٧٩ .

٥ - المعجب : ص ٢٥٤ ، مخطوط الحلل السندسيّة في شأن وهران والجزيـــرة الأندلسية : ورقة ١٣ .

٦ - مجلّة أبحاث ، الجامعة الأمريكية ، بيروت ، كانون الأوّل ، سنة ١٩٧٠ ص ٦٧ - ٦٩ .

٧ - انظر : أعزّ ما يطلب : ص ٢٥٨ - ٢٦٦ ، أخبار المهدى : ص ٩ .

٨ - من القبائل البربريّة . كان لهم دولتان عظيمتان : الزّيريّون بافريقية ، والمرابطون في المغرب والأندلس . انظر :-
الاستقصاء : ج ٢ ص ٦٦ ، الدّرّ : ج ٢ ص ١٧٩ .

٩ - تاريخ ابن خلدون : ج ٦ ص ٢٢٨ ، مخطوط الحلل السندسيّة : ورقة ١٣ .

١٠- نظم الجمان : ج ٦ ص ٧٥-٧٧ ، القرطاس : ص ١٧٦ .

١١- انظر : نظم الجمان : ج ٦ ص ٢٨ ، المعجب : ص ٢٥٥ .

ضدّ المرابطين عددا من الغزوات انتصر عليهم في معظمها (١) .

الاّ أنّ الأجل لم يمهل ابن تومرت طويلا ليرى نتيجة حركته ، فقد توفي سنة ٥٢٤ هـ(٢) ، فخلفه تلميذه عبد المؤمن(٣) بن عليّ الذي لم يزل أمره يستتب، ويزيد ظهورا ، حتّى فتح البلاد ، ودخلت في دعوته الأقطار(٤) .

وبعد أن استتبّت أحوال الدولة في المغرب أخذت ملامحها في الظهور والاستقرار، فقد أصبح على رأس الدولة خليفة يتولّى أمورها ، ويعاونه في ذلك السّادة(٥) من أبنائه وأقاربه الذين يستعملهم على الأقطار، وينوب عنه وليّ للعهد .

وقد وضع الخليفة عبد المؤمن الأسس العامّة لسياسة الدولة وتنظيماتها الإداريّة في رسالة وجّهها الى الطلبة(٦) والأعيان والكافة في الأندلس، وتنحصر هذه الأسس في وجوب مباشرة الولاة الأحكام بأنفسهم، وألاّ يجعلوا بينهم وبين الرعيّة وساطة لأنّ في ذلك مفسدة ، وألاّ يجتهدوا في شيء لا يعلمون فيه حكما . كما أمر الخليفة عبد المؤمن بوجوب التزام الدقّة في تطبيق الأحكام الشرعيّة، والكفّ عن اقتضاء أيّة مغارم أو مكوس لا يبيحها الشرع، وملاحقة المرتشين الذين يأخذون أموال الناس، وعدم الحكم في مواد العدول بالاعدام أو تنفيذه قبل الرجوع الى الخليفة ليصدر قراره في ذلك،وتحريم الخمر، والتشدّد في مطاردتها ، ودراسة الأسباب التي تؤدّي الى تعاطيها ، وحماية أموال المخزن وصونها ، وعدم التصرّف بشيء منها دون استئذان الخليفة(٧).

---

١ - أثبت البيذق تسع غزوات تمّت في حياة ابن تومرت، سبعا قادها بنفسه ، وواحدة وهي ثامنتها،بقيادة البشير، والأخيرة بقيادة عبد المؤمن . أخبار المهدي : ص ٧٤ - ٧٨، وانظر القرطاس : ص ١٧٨ - ١٧٩ .

٢ - أعمال الأعلام : ق ٣ ص ٢٧٠، العبر في خبر من غبر : ج ٤ ص ٥٧ .

٣ - هو أوّل خلفاء الموحّدين، التقى بابن تومرت بينما كان متّجها - أي عبد المؤمن - الى المشرق ، فأقنعه ابن تومرت بالعدول عن رحلته والانضمام اليه ، حظي عبد المؤمن عند المهدي ، فأوصى له بالأمر بعد وفاته . استمرت خلافته من سنة ٥٢٤ - ٥٥٨ هـ . انظر : أخبار المهدي : ص ٥٥ - ٥٦، المعجب : ص ٢٦٤ - ٢٦٥، القرطاس : ص ١٧٦ .

٤ - رقم الحلل : ص ٥٨ .

٥ - السّادة : هو لقب الأمراء الموحّدين . النفح : ج ١ ص ٤٤٥ .

٦ - الطّلبة : من الوحدات التي أقام عليها ابن تومرت تنظيمه ، ومهمتهم تبليغ الدّعوة . القرطاس : ص ١٧٦ - ١٧٧ .

٧ - انظر : نظم الجمان : ج ٦ ص ١٥٦ - ١٦٦ .

وكان الخلفاء الموحدون الأول (١) حريصين على اقامة العدل وتوطيده بين الرعيّة، وأكّدوا ذلك على ولاتهم (٢)، لذلك لم يحجم أولئك الخلفاء عن الايقاع بأى وال أو مسؤول بدر منه ما يسيء الى الرعيّة من قريب أو بعيد، فقد تشكّى أهل العدوة (٣) بعمّال عبد السلام الكوميّ (٤) من حملهم على الرعيّة وظلمهم وتعدّيهم، ووصفوهم باحتجاب الأموال ؛ فأمر الخليفة عبد المؤمن بجمع المشتكين، وسمع منهم، فتأثّر لذلك، وأمر بقتل عبد السلام لأنّه ضيّع «المخازن والمدّين» (٥) .

وأشرف الخلفاء الموحدون الأول على الرعيّة بأنفسهم اشرافا مباشرا، فقد كان الخليفة يعقوب المنصور (٦) «يقعد للنّاس عامّة، لا يحجب عنه أحد من صغير ولا كبير . . وكان قد أمر أن يدخل عليه أمناء الأسواق وأشياخ الحضر في كلّ شهر مرّتين، يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم . . . وكان اذا وفد عليه أهل بلد، فأوّل ما يسألهم عن عمّالهم وقضاتهم وولاتهم» (٧)، وكان يزور المرضى يسألهم عن القومة عليهم (٨) .

---

١ — وهم : عبد المؤمن، ويوسف بن عبد المؤمن، ويعقوب المنصور. انظر : القرطاس : ص ١٨٣، ص ٢٠٥، ص ٢١٦ .

٢ — المنّ : ج ٢ ص ٣٠٤

٣ — أى عدوة المغرب .

٤ — هو عبد السلام بن محمّد الكومي، وزر لعبد المؤمن سنة ٥٥٣ هـ، وكان مقرّبا منه، الاّ أنّه عاد ففتك به عندما رأى سوء تصرّفه مع الرّعية . انظر : المنّ : ج ٢ ص ١٧٣ — ١٨٠، أخبار المهدى : ص ١٤٧، الاستقصا : ج ٢ ص ١٢٥ .

٥ — المنّ : ج ٢ ص ١٧٨ — ١٧٩ .

٦ — هو يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، لقّب بالمنصور، ثالث الخلفاء الموحدين . ولي الخلافة سنة ٥٨٠ هـ . له مواقف مشهودة في جهاد العدو، وكانت أيّامه أيّام دعة ورخاء وأمن . توفي سنة ٥٩٥ هـ . انظر : القرطاس : ص ٢١٦ — ٢١٧ وص ٢٣٠، المعجب : ص ٣٣٦، مخطوط الحلل السندسيّة : ورقة ٤٦، مخطوط الوافي بالوفيات : ج ٢٦ ورقة ٥٢ — ٥٤ .

٧ — المعجب : ص ٣٦٢ .

٨ — المعجب : ص ٣٦٥ .

وكان نظام الشورى من أروع ما عرف عن الخلفاء الموحّدين ، فقد كان من عادتهم ألاّ يبتّوا في أمر جليل الاّ اذا جمعوا ((الهيئات)) [١] ، المختلفة من أجل الاستشارة ، فهم لا يقدمون على غزوة الاّ بعد التفاوض ((مع من يجب من أهل البصائر بالحروب)) [٢] ، ((ولا يقومون بتشييد المنشآت في الدولة الاّ بعد أخذ رأى الأعيان في ذلك)) [٣] .

حرص الخلفاء الموحّدون على اظهار أبّهة ملكهم ، وقد نقل ابن صاحب الصلاة صورا حيّة للموكب الخليفيّ يحفّ به العبيد بثيابهم المصنّعة الألوان ، وصفوف الفرسان والرّجالة وقد حملوا الرايات والرّماح والدّرق من خلف الامام ، والموسيقى مع خاصّة أصحابه من خلفه كذلك ، ووزيره لصق به ماشيا على قدميه يحدثه ، بينما يحمل الأمير على عاتقه رمحا طويلا [٤] .

وكان الخلفاء الموحّدون يتخيّرون لولاية العهد أنجب أبنائهم وأصلحهم ، وكانت هذه الولاية تخضع لشرطين : - الكفاية والصلاح ، لذلك لم يتردّد أولئك الخلفاء في اقصاء وليّ العهد اذ ظهر أنه غير جدير بذلك ، فقد أسقط عبد المؤمن ابنه محمدا عن ولاية العهد عندما رأى شرب الخمر منه ، وظهور السكر عليه [٥] .

---

١ - ورد في نظم الجمان أنّ الموحّدين كانوا ((اذا قطعوا الأمور العظام يخلون بالعشرة لا يحضر معهم غيرهم ، فاذا جاء أمر أهون أحضروا الخمسين ، فاذا جاء دون ذلك أحضروا السبعين رجلا)) . وقد امتاز نظام الموحّدين بارتكازه على وحدات معينة ذات وظائف محددة . وقد اختلفت المصادر في عدد هذه الوحدات وترتيبها ووظائفها . والعشرة والخمسون والسبعون من هذه الوحدات . انظر : - نظم الجمان : ج ٦ ص ٢٩ ، رقم الحلل : ص ٥٧ ، الحلل الموشية : ص ٨٧-٨٩ ، الاستقصا : ج ٢ ص ٨٦ .

٢ - البيان المغرب : ج ٣ ص ١١٨ .

٣ - المنّ : ج ٢ ص ٥٤ ، وانظر كذلك : ص ١٣٨ و ص ١٧٧ .

٤ - المنّ : ج ٢ ص ٢٨٦ .

٥ - المنّ : ج ٢ ص ٥٢ و ص ٢١٦ ، وقارن بما ورد في أشباخ : ص ٤٨٤ .

ظلّ الخليفة عبد المؤمن وابنه يوسف (١) يقولان بمهدويّة ابن تومرت وعصمته ، ويدعوان له في الخطبة والمراسلات الرسميّة، وينعتانه بـ« الامام المعصوم والمهدي المعلوم »(٢) . الا أن الخليفة المنصور لم يكن يرى شيئا صحيحا ممّا ينسب الى ابن تومرت، وكان يستخفّ عقول العامّة الذين يقولون بمهدويّته وعصمته (٣).

وفي سنة ٦٢٧ هـ أصدر الخليفة المأمون (٤) مرسوما لعن فيه المهدي ابن تومرت، وأمر بازالة اسمه من الخطبة والسكّة والمخاطبات الرسميّة، وأنكر عليه عصمته ووصفه بـ« الغويّ المذموم » (٥).

لم يفكّر الموحّدون في جعل الأندلس قاعدة لحكمهم، بل لبثوا في افريقيا، وأرسلوا من حضرة مرّاكش نوّابا عنهم يقومون بالأمر فيها (٦). وكان الخليفة يجتاز اليها بين الفينة والفينة رغبة في الجهاد، أو تفقدا لشؤون الرعيّة .

كانت الأندلس في هذه الفترة تتعرّض لهجمة صليبيّة وافدة من أوروبا على غرار تلك التي كان يتعرّض لها المشرق الاسلامي . وقد آزرت الكنيسة هذه الهجمة، وأمدّتها بالعدد والعدّة (٧).

لم تأل الدولة الموحّديّة جهدا في تعزيز القوى الدفاعيّة للأندلس في وجه العدوان الصليبي، يظهر ذلك واضحا في البعوث العسكريّة المتتالية التي وجّهتها الدّولة للقيام بأعمال دفاعيّة أو هجوميّة .

---

١ - ثاني الخلفاء الموحّدين، ولي الأمر بعد وفاة والده عبد المؤمن سنة ٥٥٨ هـ استشهد في معركة شنترين سنة ٥٨٠ هـ . مخطوط المعرب المسرع : ورقة ٧٣؛ وفيات الأعيان : ج٧ ص ١٣٦ .

٢ - المنّ : ج ٢ ص ٢٧٦ و ص ٣١٠ .

٣ - المعجب : ص ٣٦٨ - ٣٦٩ .

٤ - هو ادريس بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الملقّب بالمأمون . بويع بالخلافة سنة ٦٢٤ هـ ، الا أن الموحدين الذين بمرّاكش نقضوا بيعته، فاستعان بملك قشتالة لاخضاع الناكثين، توفي سنة ٦٢٩ هـ . انظر : - الاحاطة : ج ١ ص ٤٠٦ - ٤١٦ ، القرطاس : ص ٢٤١ - ٢٥٤ .

٥ - القرطاس : ص ٢٥١ .

٦ - الحرب في أسبانيا : ص ١٧٧ .

٧ - أعلن البابا انوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦م) أن الحرب الدائرة بين المسلمين والنصارى في الأندلس حرب صليبية مقدسة . وسنأتي الى تفصيل ذلك . انظر : Moorish Culture, P. 140.

وكان الخليفة الموحدي غالبا ما يرأس تلك البعوث. ففي عام ٥٥٥هـ توجــه الخليفة عبد المؤمن الى الأندلس على رأس جيش ضخم ليتفقد شؤونها، وأقام فـــي جبل طارق، وهناك اجتمع بالسادة الموحدين والقادة الأندلسيين، وتدارس معهـــم كيفية تدعيم القوى الدفاعية للمدن الأندلسية، وغزو الصليبيين العابثين في نواحيها(١). كذلك عزم الخليفة عبد المؤمن على تسيير جيش كبير آخر للجهاد في الأندلس، فاستنفر الناس، وحشد الحشود، إلا أن الموت عاجله سنة ٥٥٨ هـ(٢).

تسلم الخليفة يوسف الحكم بعد وفاة والده، وكان الخليفة الجديد ذا روح جهادية عالية(٣)، فوجه بعوثا عسكرية مختلفة للجهاد في الأندلس.

ففي عام ٥٦٠ هـ وجه حملة عسكرية الى الأندلس لتدعيم القوى الدفاعية لمدينتي اشبيلية وقرطبة « ودفع الأعداء الروم والأشقياء عن معمورهما »(٤)، بل إن الخليفة نفســه جاز الى الأندلس مرتين: ففي سنة ٥٦٦ هـ توجه بقوات ضخمة من مراكش الى الأندلـس لافتتاح مدينة وبذه(٥) *، مكث الخليفة في الأندلس خمسة أعوام أشرف خلالها علـــى العمليات العسكرية التي كانت تقوم بها الجيوش الموحدية(٦)، ثم عاد الى مراكـــش سنة ٥٦٩ هـ(٧)، وبدأ يعد العدة لحملة عسكرية أخرى. وفي سنة ٥٨٠ هـ عبر الخليفة بقواته الى الأندلس واتجه صوب مدينة شنترين (٨) **.

---

١ - المن: ج ٢ ص ١٤٧-١٥٠، المعجب: ص ٢٨٢.
٢ - المن: ج ٢ ص ١٢٧، المعجب: ص ٣٠٦
٣ - مخطوط المغرب المسرع: ورقة ٧٣.
٤ - المن: ج ٢ ص ٢٥١، البيان المغرب: ج ٣ ص ٦٣.
٥ - المن: ج ٢ ص ٤٩٢، البيان المغرب: ج ٣ ص ١١.
* - وَبذَة: - حصن على واد بقرب أقليش يقع في الشمال الغربي لمدينة قونكة. الروض المعطار: مادة وبذة ص ٦٠٦.
٦ - البيان المغرب: ج ٣ ص ١١، وص ١٠٣-١٠٤، المن: ج ٢ ص ٥١٨.
٧ - المعجب: ص ٣٢٤.
٨ - انظر أخبار هذه المعركة مفصلة في: - البيان المغرب: ج ٣ ص ١٢٨-١٣٨، القرطاس: ص ٤٠، صفة جزيرة الأندلس: ص ١١٤، وفيات الأعيان: ج ٧ ص ١٣٦، مخطوط المغرب المسرع: ورقة ٧٣.
** - شَنْتَرين: - حصن عظيم على جبل شاهق من أعمال بطليوس. مخطـــوط الحلل السندسية: ورقة ٢٥.

لم تسفر المعارك التي خاضتها جيوش الموحّدين في عهد الخليفة يوسف عن نتائج مجدية: فقد أخفق المسلمون في معركة وبذة، وتحطمت جيوشهم أمام أبواب مدينة شنترين، واستشهد الخليفة نفسه في المعارك التي دارت حول تلك المدينة إثر إصابته بسهم[1].

تردّى الوضع في الأندلس بعد وفاة الخليفة يوسف: فقد نازل ابن الرنق[2] ((صاحب قُلُمْرِيَة* وما إليها من غرب الأندلس))[3] مدينة شِلْب**، فاحتلّها[4]. كذلك وصلت غارات القشتاليين إلى أحواز اشبيلية[5].

استنفر الخليفة المنصور، الذي تسلّم الخلافة بعد والده يوسف، عندما سمع نبأ احتلال مدينة شِلْب، فاستنفر الناس، واستمدّ الأسلحة، وفتح باب التطوّع للانضمام إلى الجيش الموحّدي. وفي شهر محرّم سنة ٥٨٦ هـ تحرّك الخليفة بقوّاته وجاز البحر إلى الأندلس.

قامت الجيوش الإسلاميّة بعدد من العمليّات العسكريّة في مناطق متعدّدة أسفرت عن استعادة مدينة شلب، وقاعدة قصر الفتح ((قصر أبي دانس))[6] ***. عاد الخليفة بعد ذلك إلى المغرب وأخذ يعدّ العدّة لحملة عسكرية كبرى. وفي سنة ٥٩١ هـ تمّ العبور إلى الأندلس، واتجهت الجيوش الموحّديّة صوب موضع ((الأَرَك))[7]، وهناك

---

١ - مخطوط المغرب المسرع: ورقة ٧٣.

٢ - هو شانْجُه الأوّل ملك البرتغال. توفي سنة ٦٠٨ هـ. المعجب: ص ٤٠٠، التاريخ الاندلسي: ص ٤٦٧.

* - من بلاد البرتغال، تقع في أقصى غرب الأندلس شمال شنترين. الروض المعطار: مادّة قلمرية: ص ٤٧١.

٣ - الروض المعطار: مادّة قُلُمْرِيَة: ص ٤٧١.

** - من بلاد البرتغال، تقع في نهاية ولاية الغرب الجنوبيّة على مقربة من المحيط الأطلسي. مخطوط الحلل السندسيّة: ورقة ٣١.

٤ - البيان المغرب: ج ٣ ص ١٧٥.

٥ - البيان المغرب: ج ٣ ص ١٧٥-١٧٦.

٦ - المعجب: ص ٣٥٦، الحلّة السّيراء: ج ٢ ص ٢٧٢-٢٧٣، وقارن بما ورد في الذيل والتكملة: ج ٥ ص ١٦١.

*** - نسبة الى بانية بني دانس، حصن غربي الأندلس، يقع على بعد ٤٤ كم جنوب شرق أشبونه. جمهرة انساب العرب: ص ٥٠١، الحلّة السّيراء: تعليق رقم (١) ج ١ ص ٢٧٢.

٧ - حصن منيع من قلعة رباح. الروض المعطار: مادّة الأَرَك ص ٢٦.

دارت رحى معركة عنيفة أحرز فيها الموحّدون نصرا مؤزّرا (١).

كان هذا النصر عظيما أحرزه المسلمون بقيادة الموحّدين، وكان من نتائجه أن كُبِت ملك قشتالة. إلاّ أنّ هذا النصر العظيم لم تلبث أن محت آثاره معركة العقاب سنة ٦٠٩ هـ (٢) على عهد الخليفة النّاصر (٣).

تمتّعت الأندلس في عهد الخلفاء الثلاثة الأول، وصدر حكم رابعهم الخليفة النّاصر بمستوى عال من القوة. وقد أدّى ذلك إلى تدعيم الوجود الإسلامي فيها فترة من الوقت، وعندما زالت تلك القوّة بدأ الخطر يهدّد الأندلس.

كانت معركة العقاب نذيرا بانهيار سلطان المسلمين في الأندلس. وقد وصفت بعض المصادر تلك المعركة بالهزيمة العظمى (٤) التي (لم تستقل الأندلس بعدها العثرة) (٥).

شجّعت هزيمة العقاب الطموحين بالقيام على الدولة الموحّديّة في الأندلس وخلع طاعتها. فقام محمد بن يوسف بن هود الجذامي في مرسية (٦)، وقام في الوقت نفسه محمد بن يوسف بن نصر الذي اصطدم بابن هود وقضى على حركته (٧).

---

١ — البيان المغرب: ج ٣ ص ١٩٤ — ١٩٥.

٢ — البيان المغرب: ج ٣ ص ٢٤٠ — ٢٤١.

٣ — ولي الخلافة سنة ٥٩٥ هـ بعد وفاة أبيه المنصور. كان غلب الحجاب، مستبدا في أموره. توفي سنة ٦١٠ هـ. انظر: القرطاس: ص ٢٣١ وص ٢٤١.

٤ — الحلل الموشّية: ص ١٣٤.

٥ — أعمال الأعلام: ق ٣ ص ٢٧٥.

٦ — تاريخ ابن خلدون: ج ٦ ص ٣٦١ — ٣٦٥، أعمال الأعلام: ق ٣ ص ٢٨٠، البيان المغرب: ج ٣ ص ٢٧٦. وانظر ترجمة ابن هود في: المغرب: ج ١ ص ٢٥١ — ٢٥٢، الاحاطة: ج ٢ ص ١٢٨ — ١٣٢.

٧ — الإحاطة: ج ٢ ص ٩٤، البيان المغرب: ج ٣ ص ٢٧٩، تاريخ ابن خلدون: ج ٦ ص ٣٦٦، نهاية الاندلس: ص ٣١ — ٣٣. وانظر ترجمة ابن نصر في: المغرب: ج ٢ ص ١٠٩.

اما مرّاكش فقد توالى على الخلافه فيها مجموعه من الخلفاء الضعاف الذين شغلوا بصراع مرير على السلطه . اغرى ذلك بعض الشخصيات بالتفكير في الثوره والانفصال عن الدوله الموّحديه وتشكيل دولة مستقلّه . فقامت دولة الحفصيين في تونس (١) ، وامارة بني زيان في تلمسان (٢) . الآ ان اخطر هذه الحركات الانفصاليّه كانت حركة بني مرين في المغرب الأقصى (٣) .

كان اضطراب احوال الاندلس فرصه سانحه للصليبيين الذين اخذوا يبسطون ايديهم على المدن الاسلاميه فيها وانتهت الامور بسقوطها كلّها ماعدا غرناطه التي استطاع ابن نصر ان يؤسّس فيها دولة .

ظلّت الخلافه في مّراكش تصارع سلطان بني مرين الزاحف ، وقد انتهى هذا الصراع بسقوط دولة الموّحدين ومقتل آخر خلفائهم سنة ٦٦٨هـ (٤) . وبذلك انتهت الدولة الموّحديه التي حكمت المغرب والاندلس زهاء قرن ونصف من الزمان من سنة ٥٢٤ هـ وحتى سنة ٦٦٨ هـ .

---

١ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٢٧١ - ٢٧٦ ، تاريخ ابن خلدون : ج ٦ص ٥٩١ . والحفصيّون :- نسبة الى جدّهم ابي حفص عمر بن يحيى ، الذى كان تلميذا اثيرا لابن تومرت . انظر : اخبار المهدى : ص ٣٢ - ٣٣ . البيان المغرب : ج ٣ص ٢٧١ .

٢ - تاريخ بن خلدون : ج ٧ص ١٥٤ وص ١٦٢ . وبنو زّيان : - نسبه الى يغمراسن ابن زيان مؤسس الدوله العبد الواديّة بتلمسان سنة ٦٣٣هـ انظر . القرطاس : ص ٢٥٧ .

٣ - الذخيره السنيّه : ص ٢٨ . وبنومرين : فخذ من زناته يسكنون بلاد القبله من زاب افريقيه الى سلجلماسه ، ويتنقلّون في تلك البرارى انظر : القرطاس : ص ٢٨١ - ٢٨٢ .

٤ - القرطاس : ص ٢٥٩ . الذخيره السنيّه : ص ١١٨ .

الحياة الاجتماعيـــــة

كان أثر الدعوة الموحّدية في الحياة الاجتماعيّة بارزا، يظهر ذلك في انقســــام الشعب إلى طبقتين متميّزتين هما :ـ الفئة الحاكمة ومن التحق بها ((الموحـــــدون))، وعامّة الشعب ((الرعيّة)). وقد أشار عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب إلــــى ذلك. فبعد أن أورد أسماء قبائل الموحّدين (١) علّق عليها بقوله :ـ ((فهذه جملـــة قبائل الموحّدين المستحقّين لهذا الاسم عندهم، والذين يأخذون العطاء، وتجمعهم الجيوش وينفرون في البعوث، وغير هؤلاء القبائل من المصامدة رعية لهم))(٢).

والتقسيم السابق لفئات المجتمع قائم على أساس عقائدي، لذلك فانّ الفئة الأولـى لم تشمل إلاّ القبائل السبع التي سارعت إلى الانضمام للدعوة الموحّدية. وقد استأثـرت تلك الفئة بميزات خاصة لم يستأثر بها أحد غيرها، فابن تومرت اختصّهم ((بكثير من الاختصاص، وعقد لهم من البرّ والتكرمة ما أنهضهم))(٣)، ومنهم اختار أعضاء حكومته (٤). أمّا عبد المؤمن فقد أنشأ لأبنائها مدرسة خاصّة في مراكش ووزّع خريجيها على مناصب الدّولة (٥).

وقد بلغ سلطان قبائل الموحّدين درجة عالية، إلى حدّ أنّ صوتها علا ـ أحيانا ـ فوق صوت الخليفة نفسه. فحين قتل ابن أحد صحابة المهدي أخا عبد المؤمن، طالـب عبد المؤمن بالقصاص من القاتل، إلاّ أنّ رجال القبائل الموحّدية أجبروه على التنـــازل عن دم أخيه، لأنّ القاتل ابن أحد صحابة المهدي (٦).

وقد عاش في الأندلس عناصر سكّانية متباينة، فهناك :ـ العربيّ، والبربريّ، والأندلسيّ، وأهل الذمّة. وقد كانت قبائل العرب أكثر تلك العناصر تأثيرا على مجريات الأمور فــي الدولة، وذلك لما طبعوا عليه ((من الخروج عن ربقة الحكم، وعدم الانقياد للسياسة ... فغاية الأحوال العادية عندهم الرحلة والتغلّب))(٧)، لذلك فقد تألفهم الموحّـــدون،

---

١ ـ وهذه القبائل هي :ـ هرغة وهنتاته وتينملل وجنفيسه وورِيكة وهزرجة وجدميـــوة. انظر : المعجب : ص ٤٢٣ ــ ٤٢٤.

٢ ـ المعجب : ص ٤٢٤

٣ ـ نظم الجمان : ج ٦ ص ٨٠ ــ ٨١.

٤ ـ بعد أن أعلن ابن تومرت أنّه المهدي المنتظر وبايعه أصحابه على ذلك، شرع فــي بناء حكومته. وقد قامت هذه الحكومة على وحدات مختارة من أتباعه. انظـــر : نظم الجمان : ج ٦ ص ٢٩، رقم الحلل : ص ٥٧، الحلل الموشّية : ص ٨٧ ــ ٨٩، الاستقصا : ج ٢ ص ٨٦.

٥ ـ الحلل الموشّية : ص ١٢٥.

٦ ـ أخبار المهدي : ص ١٠٤، البيان المغرب : ج ٣ ص ٢٤.

٧ ـ مقدّمة ابن خلدون : ص ١١٨.

ويبالغوا في استمالتهم، آملين أن يخلدوا إلى الهدوء، وأن يلتحقوا بالجيوش الموحّديّة المجاهدة في الأندلس(١)، إلاّ أنّ الموحّدين لم يتهاونوا معهم إذا حاولوا العبث والخروج. وقد سجّلت المصادر عددا من وقائع الموحّدين ضدّهم(٢).

نجحت سياسة الاستمالة التي اتبّعها الموحّدون مع القبائل العربيّة، إذ استطاعوا أن يؤلّفوا أبنائها، وأن يكسبوا كثيرا منهم جنودا في الجيش الموحّدى، وألّفوا منهم قوّة عسكرية مميّزة ظهرت في عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن (٣).

وكان أهل الذمّة يشكلون فئة ليست قليلة في الدولة الموحّديّة. وكان الخلفاء الموحّدون صارمين في التعامل معهم، فلم تنعقد لهم عندهم ذمّة. فعندما فتح الخليفة عبد المؤمن تونس سنة ٥٥٤هـ عرض على من بها من اليهود والنصارى الاسلام، فمن اسلم سلم، ومن أبى قتل، فأسلم عدد منهم(٤).

لم يكن أهل الذمّة الذين أسلموا، وخاصّة اليهود، مخلصين في اسلامهم. فهم لم يكفّوا عن أذى المسلمين والتجسّس عليهم(٥). لذلك عمل الخليفة المنصور على تمييز اليهود، على الرغم من إسلامهم، بأن جعلهم يرتدون زيّا خاصا بهم. وكان ذلك الزّى على أقبح صورة. والذى حمل الخليفة المنصور على فعل ذلك باليهود ((شكّه في إسلامهم)) (٦) وترددّه في أمرهم. وقد توسّل اليهود إلى الخليفة النّاصر لتغيير ذلك الزيّ، فأبدلهم أياه بثياب صفر وعمائم صفر(٧).

إلاّ أنّ أهل الذمّة نالوا قسطا من الحريّة في عهد الخليفة المأمون الذى استنجد بالفرنجة لكي يقضي على خصومه في عاصمة بلاده، فقد أباح للنصارى بناء كنيسة في مرّاكش، كما سمح لليهود ببناء مدارس خاصّة بهم(٨).

وقد عملت دولة الموحّدين جاهدة على بناء مجتمع إسلاميّ خال من العوائد الاجتماعية الفاسدة. فقد حذّر ابن تومرت أتباعه من المداهنة ((وسوء السيرة، وجميع عوائد الجاهليّة، واللهو والنياحة والسخط عند المصائب)) (٩)، ومخالطة أهل الفساد، وشرب الخمر.

---

١ — المنّ: ج ٢، ص ١٧٢ و ص ٤٣٦.
٢ — الحلل السندسية في الأخبار التونسية: ج ١ ق ٢ ص ٤٧٨، رحلة التجانيّ: ص ٤٤
٣ — المنّ: ج ٢ ص ٤١٧، البيان المغرب: ج ٣ ص ٩٢، الاستقصا: ج ٢ ص ١٤٩.
٤ — الاستقصا: ج ٢ ص ١٣٧، تاريخ الحكماء: ص ٣١٨.
٥ — المنّ: ج ٢ ص ١٨٧.
٦ — المعجب: ص ٣٨٣.
٧ — المعجب: ص ٣٨٣.
٨ — الاحاطة: ج ١ ص ٤٦٩، البيان المغرب: ج ٣ ص ٢٦٥، الاستقصا: ج ٢ ص ٢٣٩.
٩ — أخبار المهدى: ص ٨.

توالت الرسائل من الخلفاء الموحّدين إلى ولاتهم في الأمصار يظهرون فيهـــا تشددّهم في محاربة ألوان الفساد الاجتماعي . ففي سنة ٥٤٣ هـ وجّه عبد المؤمـــن رسالة إلى الطلبة والأعيان والكافّة أمرهم فيها بإراقة الخمر، وكسر دنانها ، والبحث عـن الأسباب التي تؤدّي إلى التمكّن منها ، وعدم التهاون في ايقاع أقصى العقوبةبكلّ مـن يشربها أو يتجّر بها . كما أمر بملاحقة المرتشين الذين يأكلون أموال الناس، والتوقّف عن بيع السبايا حتى يخاطبوه بأحوالهنّ ؛ لأنّ كثيرا من الناس يبيعونهنّ دون استبرا (١) *

وقد نشط الخليفة المنصور في مطاردة مظاهر الفساد التي بدت في الحضــرة الموحّدية غداة استلم الخلافة . فقد أغضبه انغماس النّاس في الدعة، وانهماكهم فـي ضروب اللهو ، ورواج سوق الخمر والقيان والغانيات؛ فأمر بإراقة المسكرات وقطعهـا ، والتحذير بعقاب الموت على استعمالها ، وأنفذ المخاطبات بذلك إلى ولاته في الأمصار، فأريق منها في البلاد ما يساوي أموالا جمّة . وضمّنت الكتب النافذة بذلك فصولا فـي بسط العدل ، والتشديد على العمّال والولاة بتأنيس الرعيّة ، وتوخّي رضاهم في اقتضـاء حقوقهم ، وكفّ أيدي الظالمين عنهم ، وإباحة جواز البحر للمشتكين . كذلك أمر المنصـور بمنع لبس الثياب الحريريّة الثمينة ، ومنع النساء من الطرز الحفيل على ثيابهن والاكتفـاء منه بالساذج ، وأخرج ما كان في المخازن من ضروب ثياب الحرير والديباج المذهـب، فبيعت منه ذخائر لا تحصى بأثمان باهظة ، ثمّ أمر صاحب الشرطة بقطع الملهين ومن شهرمن المغانيّين ، فثقّف من وجد منهم بكلّ مكان (٢) .

كان لممارسات الخلفاء الموحّدين تلك آثار واضحة في الحياة الاجتماعيّة . فقـد انحسرت — إلى حين — أسباب اللهو وبواديه ، « بارت سوق القيان » (٣) ، واستبـدل ذلك بمجالس العلم والرياضات العقليّة والجسدية . (٤)

أعجب الرحّالة ابن جبير بالمجتمع الموحّدي الذي استمّد منهج حياته من قواعـد الإسلام ، فقد قال في معرض حديثه عن دولة الموحّدين : « أنّه لا إسلام إلا ببلاد المغرب ، لأنّهم على جادّة واضحة لا بنيّات ** لها » (٥)

---

١ — نظم الجمان : ج ٦ ص ٥ ، ١٦٥ — ١٦٧ .

* الاستبراء : انتظار المرأة حتّى تحيض، ليتأكّد من عدم حملها أو تلد إن كانت حاملا .

٢ — البيان المغرب : ج ٣ ص ١٤٣ — ١٤٥ ، رسائل موحّدية : ص ١٦٤ — ١٦٧ .

٣ — البيان المغرب : ج ٣ ص ١٤٥ .

٤ — المعجب : ص ٢٧٠ .

** — البُنَيّات : بضمّ الباء وفتح النون ، الطرق الصغيرة المتفرّعة . لسان العرب : مادّة « بنو » .

٥ — رحلة ابن جبير : ص ٥٥ .

وقد اعتنى الخلفاء الموحّدون الأول بالرعيّة عناية بالغة، فبنوا المستشفيات، وأنفقوا على الأيتام، وقضيت مسائل الناس وحوائجهم ومطالبهم، وأنصف المظلوم من الظالم (١) .
فقد كان الخليفة المنصور «كلّما دخلت السنة يأمر أن يكتب له الأيتام المنقطعون، فيجمعون إلى موضع قريب من قصره، فيختتنون، ويأمر لكلّ صبيّ منهم بمثقال وثوب . .» (٢).

وحرصت الدولة على حقوق المواطنين، فلم تكن تبخسهم أشياءهم. فقد أمر الخليفة يوسف بتقدير أراضي أحد سكان مدينة إشبيلية وتعويضه أرضا بدلا منها، لأن الخليفة أراد أن يبني قصوره فيها(٣) . كما أمر الخليفة نفسه بتقدير قيمة المنشآت التي هدمت في اشبيلية لتوسيع أحد المساجد فيها، ودفع تعويض عنها(٤).

وقد قوي اقتصاد الدولة الموحّدية في عهد الخلفاء الأول، يظهر ذلك في كثرة المصانع التي أنشأتها الدولة في المغرب والأندلس. فقد كان في مدينة فاس وحدها اثنا عشر مصنعا لسبك النحاس، وثلاثة آلاف مصنع للنسيج، وسبعة وأربعون مصنعا للصابون، وأحد عشر مصنعا للزجاج، وأربعمائة مصنع للكاغد (٥).

وقد ازدهرت التجارة في دولة الموحّدين، ووصلت تجارتهم إلى غانة(٦) . فقد أورد صاحب النفح جذاذات من رسالة بعثها المنصور إلى ملك غانة يعاتبه فيها على احتباس التجّار المغاربة، ومنعهم من التصرّف(٧) .

لذلك شهد الشعب في المغرب والأندلس في عهد الخلفاء الأول فترة رخاء عظيمة. فقد كثرت الأرزاق في عهد عبد المؤمن(٨) ، وزادت المخازن في عهد الخليفة يوسف، «ونمت الأرزاق، وعمرت الأسواق بالبيع والتّجارة الرابحة، ودرّت على النّاس الخيرات درورا . . . وكثر المال في الأيدي»(٩) ، واتّصل «الأمن والعدل والفضل بحيث يسير

---

١ — المعجب : ص ٢٩٦، ٣٣٣، ٣٥٤ .
٢ — المعجب : ص ٣٦٤ .
٣ — المنّ : ج ٢ ص ٢٨٦ .
٤ — المنّ : ج ٢ ص ٢٨٥ .
٥ — زهرة الآس : ص ٤٤ .
٦ — غانة : من بلاد السّودان، بينهما وبين سجلماسة مسيرة شهرين، أهلها مسلمون، وإليها يقصد المياسير من سائر بلاد المغرب الأقصى . الروض المعطار : مادة غانة ص ٤٢٥ .
٧ — النفّح : ج ٣ ص ١٠٥ .
٨ — المنّ : ج ٢ ص ٢١٤ — ٢١٥ .
٩ — المنّ : ج ٢ ص ٣٤٧ .

الرّاكب حيث شاء من بلاد العدوة آمنا على نفسه لا يخاف إلاّ اللّه أو الذيب»(١) . ولم تزل أيّامه — أى يوسف — «أعيادا وأعراسا ومواسم، كثرة خصب، وانتشار أمن، ودرور أرزاق، واتّساع معايش»(٢) ، واستمّر هذا صدرا من إمارة الخليفة المنصور، لذلك فقد شبه أهل التّواريخ أيّام الخليفة يوسف بأيّام الخليفة عثمان بن عفّان : كثرة خير، وسماحة وبذلا(٣).

نتج عن هذا الرّخاء الاقتصادى ترف في الذوق الاجتماعي ، ورافق ذلك ضعف سَورة الفكر الّذى أقام عليه ابن تومرت دعوته، وعمل عبد المؤمن على تأكيده. ولعلّ أبرز مظاهر ذلك الترف تلك المنشآت العمرانية الضخمة التي أنشأها الخلفاء الموحّدون ، وأنفقوا عليها أموالا طائلة إظهارا لأبّهة ملكهم. فقد بنى عبد المؤمن في جبل طارق قصورا عظيمة أنفق عليها أموالا باهظة، وكذلك في مرّاكش(٤). وبنى الخليفة المنصور مقصورة في جامعه المتّصل بقصره في حضرة مرّاكش، وكانت قد وضعت على حركات هندسيّة ترفع بها لخروجه، وتخفض لدخوله (٥) . كما بنى السيد أبو يحيى بن أبي يعقوب بن عبد المؤمن والي قرطبة قصرا على متن النهر الأعظم تحمله أقواس عجيبة(٦) . أمّا الخليفة المستنصر(٧) فقد أقام لنفسه بستانا في غاية الحسن كأنّه الجنّة (٨).

وأقيمت المتنزّهات العامّة التي كان الشعب يخرج اليها (٩) . وقد كان الشعراء يقصدون هذه المتنزّهات، ويتبارون في قرض الشعر فيها على شكل الإجازة الشعرية ، فاستمرّت ظاهرة الارتجال في الشعر الأندلسي . فقد ذكر صاحب النفّح أنّ عددا من الأدباء اجتمعوا بمدينة سبته (١٠) سنة ٥٨١ هـ، فتذاكروا محبوبا لهم يسكن الجزيرة الخضراء (١١) أمامهم، فقالوا : — ليقل كلّ واحد منكم شيئا فيه. ثمّ أورد صاحب النفح ما قاله كلّ واحد منهم (١٢).

---

١ — المنّ : ج ٢ ص ٢٨٦ .

٢ — المعجب : ص ٣٣٢ .

٣ — المنّ : ج ٢ ص ٢٣٧ .

٤ — المعجب : ص ٢٨٢ ، ص ٢٩٦ .

٥ — النفّح : ج ٣ ص ٤٢٠ .

٦ — النفّح : ج ١ ص ٢٧٠ .

٧ — أحد أبناء الخليفة الناصر ، اسمه أبو يعقوب يوسف، بويع بعد وفاة أبيه سنة ٦١٠ هـ . استمرت خلافته حتى سنة ٦٢٠ هـ . انظر : — البيان المغرب : ج ٣ ص ٢٤٣ .

٨ — النفّح : ج ٣ ص ٥٢٨ .

٩ — النفّح : ج ١ ص ٤٧٤ .

١٠ — سبته : من أقاصي المغرب، وهي مورد البحرين : برّ العدوة وبرّ الاندلس. تقويم البلدان ص ١٣٢—١٣٣ .

١١ — الجزيرة الخضراء : — مدينة امام سبته من برّ الاندلس الجنوبي . تقويم البلدان : ص ١٧٣ .

١٢ — النفّح : ج ٤ ص ٨ .

وقد انحسرت ــ كما أشرنا ــ بعض مظاهر الفساد الاجتماعي في عهد الخلفاء الأول نتيجة ملاحقتهم إياها، إلاّ أنهم لم يستطيعوا القضاء عليها، فقد تذمر عبد المؤمن من عدم ارتداع الناس عن الانغماس في الملذّات والدّعة (١). وعندما ولي المنصور الخلافة كانت مراكش وغيرها من المدن تعجّ بأسواق الخمر والقيان ... إلاّ أنّ المنصور بادر إلى التصدّي لها، فاختفت.

إلاّ أنّه بعد وفاة المنصور عادت تلك المناكير إلى الظهور. وقد نقل صاحب النفح صورا عن المتنزّهات الخاصّة التي كان يقيمها بعض الأغنياء لخلواتهم وملذّاتهم مع ندمائهم، وقد زوّدت تلك المنازه بكلّ ما يحتاج إليه مؤمّل اللهو. وكان يجري فيها من ضروب اللهو والمجون والخلاعة ما يحتشم عن ذكره (٢).

ويبدو أن بعض القضاة في نهاية العهد الموحّدي كانوا يتهاونون في إقامة الحدّ على شاربي الخمر، وقد قال في ذلك أحد المرسيّين :ــ

الحمد لله بلغنا المُنى　　　لا حدّ في الخمر ولا في الغنَا

قد حلّل القاضي لنا ذا وذا　　　وإن شكرناه أحلّ الزّنا (٣)

بل أنّ بعض الخلفاء الذين تولّوا الحكم في عصور متأخّرة انغمسوا في اللهو والملذّات. فقد كان الخليفة المستنصر ميّالا الى حياة الدّعة والبطالة، مشتغلا عن تدبير الأمور بما تقتضيه نوازع الشّباب (٤).

أمّا المرأة فقد حظر عليها ابن تومرت مغادرة بيتها، ومخالطة الرّجال في الأماكن العامّة، وأخذ عليها إسفارها عن وجهها (٥). إلاّ أنّ خلفاءه التالين أتاحوا للمرأة قسطا وافرا من الحريّة. فقد جعل عبد المؤمن التعليم إجباريا على كلّ مكلّفة منهنّ (٦). وهناك ما يشير إلى أنّ المرأة الموحّديّة قد خرجت إلى الحياة العامّة، وشاركت فيها. فعندما دخل الخليفة يوسف مرسية سنة ٥٦٧هـ، خرجت النسوة لاستقباله « يبدين أصواتهن بالفرح، وينطقن بألسنتهن بكلّ لفظ منشرح » (٧). وعندما زار الخليفة المنصور قبر

---

١ ــ أخبار المهدي : ص ٦١.
٢ ــ انظر النفح : ج ٤ ص ١٨٠.
٣ ــ المغرب : ج ٢ ص ٣٨٦.
٤ ــ تاريخ ابن خلدون : ج ٦ ص ٢٥٠، القرطاس : ص ٢٤٣، مخطوط الوافي بالوفيات : ج ٢٦ ورقة ١٢٦.
٥ ــ أخبار المهدي : ص ٥٢، أعز ما يطلب : ص ٢٥٩.
٦ ــ رسائل موحّديّة : ص ١٣١ــ١٣٧.
٧ ــ المنّ : ج ٢ ص ٥١٤.

المهدي خرجت النساء لاستقباله ((يولولن ويضربن بالدفوف))(١).

وظهر في هذا العصر عدد من النسوة المشهورات. منهنّ : أمّ المجد مريم بنت أبي الحسن الغافقي الشاري، درست الحديث، ووصفتها المصادر بـ ((العجوز المسندة))(٢). ومنهن : أم السعد بنت عصام الحميري، تعرف بسعدونه، (لها رواية عن أبيها وجدّها وغيرهما)(٣). ومنهن : أم الهناء بنت القاضي أبي محمّد بن عبد الحقّ بن عطية، من شاعرات قرطبة، ((سمعت أباها، وكانت حاضرة النادرة، سريعة التمثّل، من أهل العلم والفهم والعقل))(٤) ولها تأليف(٥).

ومن النساء المشهورات في هذا العصر حفصة بنت الحاج الركونيّة المشهورة بالجمال والحسب والمال، وعشيقة أبي جعفر بن سعيد (٦). وكانت حفصة على زمانها مثل ولادة في قرطبة على زمانها أيضا، بل أنّها كانت أكثر جرأة في الهجوم على معاني العشق والإثارة والغيرة من ولادة (٧).

وكان بعض القضاة يأخذ برأي زوجته في الأحكام، فقد ذكر صاحب النفح أنّ أحد قضاة لوشه (٨) كانت له زوجة فاقت العلماء في معرفة الأحكام والنّوازل، وكان قبل أن يتزوجها ذكر له وصفها، فسعى اليها ؛ وكان في مجلس قضائه تنزل به النوازل، فيقوم إليها فتشير عليه بما يحكم به (٩).

كان للصراع الذي خاضته دولة الموحّدين ضدّ الصليبيين في الأندلس آثار واضحة في الحياة العامّة. فقد كانت الدولة تقيم احتفالات رسمية ضخمة احتفاء بالانتصارات التي كان يحرزها المسلمون، وبالغت في ذلك. وقد نقل ابن صاحب الصلاة صورا حية عنها، حيث يجلس الخليفة لقبول التهاني، وتضرب الطبول، وتخرج المواكب، وتسير الرسائل، وتخرج الصدقات، وتوزع البركات، ويطعم النّاس، وينشد الشعراء (١٠).

---

١ — المعجب : ص ٢٦٨.
٢ — اختصار الأخبار : ص ٢٢ وص ٣٠، وانظر : صلة الصلة : ص ١٤٩ — ١٥٣.
٣ — النفح : ج ٤ ص ١٦٦.
٤ — النفح : ج ٤ ص ٢٩٢.
٥ — النفح : ج ٤ ص ٢٩٢.
٦ — هو أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد : أحد مصنّفي كتاب المغرب، وزر لعثمان ابن عبد المؤمن، وقتله لما زكّته إيّاه في هوى حفصة المذكورة أعلاه. انظر : المغرب : ج ٢ ص ١٦٤، الرايات : ص ١٩٦.
٧ — انظر : — المغرب : ج ٢ ص ١٣٨ — ١٣٩، الإحاطة : ج ١ ص ٤٩١ — ٤٩٤، الرّايات : ص ٩٢ — ٩٣.
٨ — لَوْشة : من أقاليم ألبيرة. الرّوض المعطار : مادّة لوشة ص ٥١٣.
٩ — النفح : ج ٤ ص ٢٩٤.
١٠ — انظر : المنّ : ج ٢ ص ١٢٥ و ص ٢٥٣.

عانى الشعب في الأندلس من هجمات الصليبيين عليهم. فكثيرا ما دمّرت مدن، وأهلكت نفوس، وانتسفت زروع، فقد ترك العدوّ أهل مدينة قونكة (١) ((وكأنّهم نشروا من كفن، وخرجوا من جدث))(٢). وفي سنة ٥٥٤ هـ هاجم الأعداء قرطبة، ودمّروا زروعها، وعقّوا ربوعها (٣) . وفي العام نفسه لقيت إشبيلية ((عظيم الخطب، وجماع الرعب، وحلّ بها وبأهلها كربوحرب))(٤).

لذلك فقد شاعت ظاهرة الجلاء. وقد عبرت أعداد كبيرة من المهجّرين إلى المغرب.(٥)

اهتمّ الموحّدون بإعمار المدن المنكوبة وإغاثة أهلها. فقد رمّم الخليفة يوسف مدينة قونكة وأمدّها بالمؤن والأسلحة (٦) . وأمدّ مدينة بطليوس(٧) بميرة كبيرة من القمح والشعير وآلات الحرب. . . بما أبهت النّاظرين(٨).

وقد اعتنى الموحّدون بالمهاجرين وأسكنوهم، فقد أسكنوا أهل مدينة بلنسية وجزيرة شُقْر(٩) وشاطبة(١٠) ، وغيرهم من بلاد الشرق، ووهبوا لهم الأرض، ووسّع عليهم، وأتيح لهم التملّك بالمغرب(١١). كما اعتنوا بالأسرى وافتدوهم، وسبّلوا عليهم الخيل بسروجها ولجمها وآلات الحرب لها، وجبروهم، وكسوهم، وواسوهم (١٢).

---

١ — قُونكة وتكتب قُونقة، مدينة من أعمال كورة شنتبرية، وهي من أمنع حصون الثغر الأدنى. الحلّة السّيراء: ج ٢ ص ٢٢٨.

٢ — المنّ : ج ٢ ص ٥٠٥.

٣ — المنّ : ج ٢ ص ١١٦.

٤ — المنّ : ج ٢ ص ١١٨—١٢٠.

٥ — انظر : — المنّ : ج ٢ ص ٢٠٥، الحلّة السّيراء : ج ٢ ص ٣٠٢، عصر المرابطين والموحّدين : ج ٢ ص ٧٣٢.

٦ — المنّ : ج ٢ ص ٥٠٥—٥٠٦.

٧ — بَطَلْيوس : — مدينة عظيمة من غرب الأندلس، بينها وبين قرطبة ستة أيام. تقويم البلدان : ص ١٧٣.

٨ — المنّ : ج ٢ ص ٤٥٧—٤٦٣.

٩ — شَقْر : بفتح الشين وسكون القاف، جزيرة في شرقي الأندلس، بينها وبين بلنسية ثمانية عشر ميلا. معجم البلدان : مادّة شقره.

١٠ — شَاطِبة : مدينة جليلة في الأندلس، تقع في الجنوب الغربي لبلنسية. الرّوض المعطار : مادّة شاطبة، ص ٣٣٧.

١١ — انظر ظهير الخليفة الرّشيد في ذلك في كتاب عصر المرابطين والموحّدين : — ج ٢ ص ٧٣٣.

١٢ — المنّ : ج ٢ ص ٢٨٦.

ويبدو أنّ فترة الرّفاه الاجتماعيّ التّي عاشها الشّعب في المغرب والأندلس كانت مقصورة على عهد الخلفاء الأول . فبعد وفاة النّاصر توالى على الخلافة عدد من الخلفاء الضعاف الذين انشغلوا بالصراع على السلطة ، وأهملوا الرعيّة ، فاشتدّ الخوف ، وكثر اعتداء الأقوياء على الضعفاء ، وكسدت التجارة ، وغلت الأقوات ، وارتفعت الأسعار ، وطافت بالأندلس والعدوة شدّة عنيفة (١).

---

١ — الذخيرة السنيّة : ص ٣٥—٣٦ ، القرطاس : ص ٢٥٥ .

الحياة الفكريــــــة

استمرّت الحركة الفكريّة في المغرب والأندلس في عهد الموحّدين بالنموّ والازدهـار في كلّ ميدان، وظهر العلماء في كلّ فنّ، فشهدت الدولة الموحّديّة حركة فكريّة نشطة.

وقد ساعد على ذلك طبيعة الدعوة الموحّديّة التي شجعت العلم، وحثّت عليــه. فقد أبدى ابن تومرت حماسة واضحة للعلم في مطلع كتابه ((أعزّ ما يطلب))، حيث جعـل ((أعزّ ما يطلب، وأفضل ما يكتسب، وأنفس ما يدّخر، العلم الذى جعله الله سبب الهداية الى كلّ خير))[1] لذلك فقد هاجم ابن تومرت دولة المرابطين بسبب الحجر الفكـرى الذي كانت تمارسـه كما يدّعي[2].

وكان أمراء الموحّدين أنفسهم علماء محبّين للعلم، فقرّبوا أهل العلم، وشجعوهـم، وأكرموهم، وأغدقوا الصلات عليهم. فقد كان ابن تومرت أحد علماء عصره المجتهديـن في طلب العلم، حيث ارتحل إلى المشرق طلبا للعلم، واستغرقت رحلته خمسة عشر عاما، وعاد منها ((بحرا منفجرا من العلم، و شهابا واريا من الدّين))[3] وقد جلس ابن تومرت لتدريس العلم، ففي تونس جلس إليه مجموعة من الفقهاء يأخذون عنه[4]، وفي المهديّة[5] قرأ عليه النّاس كتبا من أصول الدين[6].

ولم يكن خلفاء ابن تومرت أقلّ تشجيعا للعلم منه. فعبد المؤمن بدأ حياتـــه طالب علم طموحا، وقد دفعه طموحه للسفر إلى المشرق طلبا للعلم، إلاّ أنّ ابن تومـرت ثنى عزمه عن ذلك[7]، وعندما ولي الخلافة لم تشغله أمور الحكم عن رعاية العلم والعلماء. فقد كان مؤثرا لأهل العلم، محسنا إليهم، يستدعيهم من البلاد، ويجرى عليهــم الأرزاق الواسعة، ويظهر التنويه بهم، والإعظام لهم، وكان يعقد ندوات علميّة أسبوعيّـة في قصـره[8].

---

١ — أعزّ ما يطلب: ص ٣.
٢ — المعجب: ص ٢٣٦—٢٣٧.
٣ — تاريخ ابن خلدون: ج ٦ ص ٤٦٥.
٤ — أخبار المهدى: ص ٥٥.
٥ — المهديّة: نسبة الى عبيد الله المهدى الذى بناها على شاطئ القيروان سنــة ٣٠٠ هـ. معجم البلدان: مادّة المهديّة.
٦ — وفيات الأعيان: ج ٥ ص ٤٧.
٧ — أخبار المهدى: ص ٥٥—٥٦.
٨ — المعجب: ص ٢٦٩، نظم الجمان: ج ٦ ص ٥٣، مخطوط الاغتباط بتراجم أعمـال الرّباط: ج ١ ورقة ٢١٥.

كذلك كان الخليفة يوسف بن عبد المؤمن أحسن النّاس ألفاظا بالقرآن، وأسرعهم نفوذ خاطر في غامض مسائل النّحو، وأحفظهم للّغة العربيّة (١). ولم يزل يوسف هذا يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب، ويبحث عن العلماء، وخاصّة أهل علم النّظر، إلى ان اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله ممّن ملك المغرب. ومن بين هؤلاء العلماء ابن طفيل (٢) الذى كان صديقا حميما له، شديد الشّغف به، فقد كان يقيم في قصره أيّاما ليلا ونهارا لا يظهر(٣). ولم يزل ابن طفيل يجلب العلماء له، ويحضّه على إكرامهم، ومن بينهم أبو الوليد بن رشد.(٤).*

وكان الخليفة المنصور من حفّاظ الحديث، محبّا للعلماء والأدباء، محسنا إليهم، مقرّبا لهم، مصغيا إلى المديح، مثيبا عليه. وكان محبّا للفلسفة، فبعد اضطهاده للفيلسوف ابن رشد عاد واستدعاه، واستخلصه لنفسه يطلعه على أسرار صناعة الصنائع(٥).

وقد بلغ من اعتناء الموحّدين بالعلماء أن قسموهم طائفتين، ((فقد جرت عادتهم بالكتب إلى البلاد واستجلاب العلماء إلى حضرتهم على أهل كلّ فنّ، وخاصّة أهل علم النّظر. وسمّوهم طلبة الحضر، فهم يكثرون في بعض الأوقات ويقلّون. وصنف آخر ممّن عني بالعلم من المصامدة يسمّون طلبة الموحّدين، ولا بدّ في كلّ مجلس عامّ أو خاص يجلسه الخليفة منهم ...)) (٦).

والحقّ أنّ الدولة الموحّديّة شجّعت العلم والعلماء، وأباحت للتفكير حرّيته، وحرّرته من القيود. وقد شجّع هذا الجوّ العلميّ العلماء والأدباء على الإنتاج والإبداع في كلّ ميدان.

---

١ — المعجب: ص ٣٠٩

٢ — من وادى آش، وهو من مشاهير الأطبّاء وأهل الحذق والنّظر توفي سنة ٥٨١هـ. الاحاطة: ج ٢ ص ٤٧٨ — ٤٧٩.

٣ — المعجب: ص ٣١٢، العبر في خبر من غبر: ج ٤ ص ٢٤٠.

٤ — المعجب: ص ٣١٤.

* — هو الفيلسوف المشهور محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الأندلسي. انظر ترجمته في التكملة: ج ١ ص ٥٥٣—٥٥٥.

٥ — المعجب: ص ٣٨٥.

٦ — المعجب: ص ٣٤٢.

وقد تعددت مظاهر النشاط الفكري في الدولة الموحدية . ومن هذه المظاهر : الرحلة في طلب العلم ، وهي نوعان : داخلية وخارجية ، أما الداخلية فكانت إلى المراكز العلمية المنتشرة في أنحاء الدولة . فقد كان كثير من العلماء المغاربة يعبرون إلى الأندلس للدراسة والسماع . وكان العلماء الأندلسيون يفدون على المغرب ويستقرون بمدنه (١). وقد ساعد ذلك على الامتزاج الثقافي بين المغرب والأندلس .

وأما الرحلة الخارجية فكانت غالبا إلى المشرق . وقد أوردت كتب التراجم أسماء كثير من المغاربة والأندلسيين الذين رحلوا إلى المشرق طلبا للعلم (٢). وبذلك استمر الاتصال الثقافي بين مشرق العالم الإسلامي ومغربه في عهد الموحدين .

ومن مظاهر النشاط الفكري في دولة الموحدين : اقتناء الأصول القديمة والعناية بها . فقد كان للشيخ أبي حفص بن عمر الهنتاتي (٣) همة عالية في مطالعة الكتب ((واقتنائها وانتساخها حتى اجتمعت له منها خزانة عظيمة عالية الفنون)) (٤) . وقد تحصل عند أبي الحسن الشاري (٥) ((من الأعلاق النفيسة ، وأمهات الدواوين العلمية ما لم يكن عند أحد من أبناء عصره ، ولا تحصل عند كثير ممن تقدمه)) (٦). وقد اقتنى أبو الخطاب أحمد بن واجب القيسي (٧) ((من الأصول العتيقة ، والدفاتر النفيسة كثيرا ، وربما سافر في تحصيلها ، وهي كانت جل ما أورث)) (٨). وقد بلغت قيمة الكتب التي اقتناها أبو العباس أحمد بن يحيى المهدري (٩) ستة آلاف دينار (١٠).

---

١ — أوردت المصادر أسماء كثير من المغاربة والأندلسيين الذين تنقلوا في أنحاء الدولة الموحدية . ونكتفي هنا بالإشارة إلى بعض المواطن التي ورد فيها ذلك . انظر : صلة الصلة : ص ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٢ ، ١٤٨ ، ١٥٠ .

٢ — انظر التكملة : ج ٢ ص ٨١٦ ، ٨٣٥ ، ٨٤١ ، ٨٥٠ ، ٨٥٦ ، ٨٧٥ .

٣ — من أبرز خاصة المهدي ، وإليه يرجع الفضل في تثبيت مركز الدولة . وهو بطل معركة البحيرة سنة ٥٦٨ هـ . انظر : — اخبار المهدي : ص ٣٣ ، المن : ج ٢ ص ٢٩٩ .

٤ — المن : ج ٢ ص ٢٩٩ .

٥ — ترجمته في صلة الصلة : ص ١٤٩ — ١٥٣ .

٦ — صلة الصلة : ص ١٥٢ .

٧ — ترجمته في التكملة : ج ١ ص ١٠٦ — ١٠٨ .

٨ — التكملة : ج ١ ص ١٠٨ .

٩ — ترجمته في التكملة : ١ ص ٩٤ .

١٠ — التكملة : ج ١ ص ٩٤ .

وقد كانت تلك الكتب المقتناة مشرقية في معظمها ، ممّا يدلّ على وحدة الفكر والثقافة في مشرق العالم الإسلامي ومغربه آنذاك. وبدافع الحرص على التراث فقد شرح الأندلسيون كثيرا من تلك الكتب وعلّقوا عليها . ومن هذه الكتب المشروحة : — كتاب الأمالي ، وكتاب الكامل ، وكتاب الجمل ، وديوان المتنبيّ (١).

ومن هذه المظاهر : المدارس وحلقات التدريس التي كان يعقدها العلماء ، ويقصدها الطلّاب من كلّ فجّ . ويدرس في هذه الحلقات عدد من الطلّاب على شيخ واحد يأخذون العلم عنه . ومن هؤلاء الشيوخ : أبو الحسن علي بن محمد الشآرى ، السالف الذّكر . وقد بنى أبو الحسن هذا في بلده مدرسة ((وقف عليها من الكتب ما يُحتاج إليه ، وشرع في تكميل ذلك على السنن الجارى بالمدارس ببلاد المشرق))(٢) . وقد أخذ عن أبي الحسن جلّة من العلماء .

ومنهم : — علي بن مؤمن بن محمد بن عصفور . أقرأ ببلده اشبيلية مدّة ، ثمّ خرج منها وجال ببلاد الأندلس ، وكان يقيم في كلّ بلد أشهرا يتصدّر للاقراء ، وكان الطلبة يقبلون عليه في كلّ بلد ينزل فيه (٤).

ومنهم : — أبو الحكم عمرو بن زكرياء الهراني(٥). ((رحل النّاس إليه من كلّ مكان ، وأخذ عنه القراءات عالم كثير))(٦). ومنهم : — أبو الحسن علي بن يوسف بن علي(٧) ، وقد ((كان معلّم كتّاب))(٨) .

وقد كانت المناظرات العلمية مظهرا آخر من مظاهر النشاط الفكريّ في دولة الموحّدين . وكان الخلفاء الموحدون أنفسهم يشتركون في تلك المناظرات . ومن هؤلاء : الخليفة عبد المؤمن والخليفة المنصور . وقد كان هذان الخليفتان يلقيان المسائل

---

١ — التكملة : ج ١ ص ١٣٠ .
٢ — صلة الصلة : ص ١٥٢ .
٣ — ترجمته في صلة الصلة : ص ١٤٢ .
٤ — صلة الصلة : ص ١٤٢
٥ — ترجمته في صلة الصلة : ص ١٥٧ .
٦ — صلة الصلة : ص ١٥٧ .
٧ — ترجمته في صلة الصلة : ص ١٤٤ .
٨ — صلة الصلة : ١٤٤ .

بأنفسهما على المشتركين في المجالس العلميّة (١). ومن تلك المناظرات : ـ المناظرات اللّغوية التي كانت تدور بين علي بن خروف (٢) وأبي زيد السّهيلي (٣) وأبي محمّد القرطبي (٤). وقد قيّد أبو علي عمر بن عبد المجيد الرّندي (٥) جزءاً فيما جرى بين ابن خروف وبين الأستاذ أبي محمّد القرطبي سمّاه بـ ((الخبّي في أغاليط القرطبّي)) (٦) .

ومن مظاهر النّشاط الفكريّ في دولة الموحّدين : ازدهار الوراقة ، فقد كان في مدينة فاس وحدها أربعمائة مصنع للورق (٧). وقد نبغ في هذا المعهد عدد من الورّاقين المغاربة والأندلسيين الذين كتبوا بخطوط مختلفة نذكر منهم : ـ أبا محمّد عبد الله بن سليمان بن حوط الله الأنصاري (٨) ، وأبا محمد عبد الوالي بن محمّد البتّي (٩) ، وأبا العبّاس أحمد بن محمّد البكري البطليوسي (١٠) ، وعيسى بن محمّد بن شعيب الغافقي (١١).

وكان من الخلفاء الموحّدين أنفسهم من يجيد الكتابة بأكثر من خطّ . وكان بعضهم يوقّع الرّسائل الرسميّة بيده بخطّ الثلث المشرقيّ ، وبالمداد الأحمر المعروف لهم (١٢).

ومن الطبيعي أن يكثر التأليف في دولة بلغ فيها النشاط الفكريّ مدى بعيداً ، لذلك فقد كثرت في دولة الموحّدين المصنّفات التي تبحث في مختلف العلوم والفنون ، ونبغ فيها عدد كبير من العلماء .

---

١ ـ المعجب : ص ٣٤٢ .
٢ ـ ترجمته في فوات الوفيات : ج ٢ ص ١٠٦ ، مخطوط الوافي بالوفيّات : ج ٢ ورقة ٦ .
٣ ـ ترجمته في بغية الملتمس : ص ٣٦٧ ، مخطوط الوافي بالوفيات : ج ١٦ ورقة ٨٩ ـ ٩٠ .
٤ ـ لم نهتد الى ترجمته .
٥ ـ ترجمته في صلة الصلة : ص ٦٧ ـ ٦٨ .
٦ ـ صلة الصلة : ص ٦٨ ـ ٦٩ .
٧ ـ زهرة الآس : ص ٤٤ .
٨ ـ ترجمته في التكملة : ج ٢ ص ٨٨٣ ـ ٨٨٥ .
٩ ـ ترجمته في الذّيل والتكملة : ج ٥ ص ٧١ .
١٠ ـ ترجمته في الذّيل والتكملة : ج ٥ ص ٢٢ .
١١ ـ ترجمته في الذّيل والتكملة : ج ٥ ص ٥٠٦ ، صلة الصلة : ص ٤٩ .
١٢ ـ البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٢٠ ، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحّدين : ص ٢٧٠ .

ففي مجال العلوم النقليّة اهتم الموحّدون بعلميّ التفسير والقراءات ، فازدهرا ، وذلك بسبب دعوتهم للرجوع إلى الكتاب والسنّة ، والأخذ بظاهرهما [١] . فقد رأى الخلفاء الموحّدون أن المسلمين قد شغلوا عن كتاب الله وسنّة رسوله بكتب الفروع التي لاقت سوقا رائجة في دولة المرابطين . لذلك عملوا جاهدين للقضاء على تلك الكتب ، فأحرق منها على عهد الخليفة المنصور أعداد هائلة [٢] .

وقد ظهر في هذا العهد علماء كثيرون نبغوا في علمي التفسير والقراءات ، نذكر منهم :ــ أبا عبد الله محمد بن علي بن العابد الأنصاري [٣] ، ألّف ((في تفسير الكتاب العزيز ، وشرح الأسماء الحسنى ، وفسّر كلّ مشكل الكتاب والسنّة في سفر متوسّط ، وألّف كتابه المسمّى بشعب الايمان)) [٤] .

ومنهم :ــ أبو الحسن علي بن جابر الدّباج [٥] ((كان حسن السّمت والهدى . . . مقرئا مجّودا . . . عكف على اقراء القرآن وتدريس العربية والأدب نحو خمسين سنة . . . ، وكتب بخطه الرائق الكثير ، وأتقن ضبطه وتقييده)) [٦] .

ومنهم :ــ الفقيه المحدّث المفسّر محمد بن يوسف بن سعادة الذى برع في علوم الدّين [٧] .

وقد عني الموحّدون بالحديث عناية فائقة ، فقد كان الخليفة المنصور من حفّاظ الصحيحين كما ذكرنا . واشتهر في الحديث وعلومه عدد من الرّجال نذكر منهم :ــ أبا محمّد عبد الحقّ بن عبد الرحمن الأشبيلي [٨] ، ((له تواليف حسان)) [٩] ، وقد صنّف في الأحكام نسختين كبرى وصغرى ، وله كتاب في المعتلّ من الحديث . توفي سنة ٥٨٢ هـ [١٠] .

---

١ ــ أخبار المهدى : ص ٢ و ص ٣ وص ٨ .

٢ ــ المعجب : ص ١٨٤ .

٣ ــ ترجمته في صلة الصلة : ص ٣٠ ــ ٣١ .

٤ ــ صلة الصلة : ص ٣١ .

٥ ــ ترجمته في الذيل والتكملة : ج ٥ ص ١٩٨ــ٢٠١ .

٦ ــ الذيل والتكملة : ج ٥ ص ١٩٩ .

٧ ــ ترجمته في التكملة : ج ١ ص ٥٠٥ــ٥٠٧ .

٨ ــ ترجمته في بغية الملتمس : ص ٢٩١ .

٩ ــ بغية الملتمس : ص ٢٩١ .

١٠ــ مخطوط الوافي بالوفيات : ج ١٦ ورقة ٥٥ .

ومنهم : — عبد الرحمن السّهيلي الأندلسي المالقي الأعمى المتوفّى سنة ٥٨١هـ. تصدّر للإقراء والتدريس، وبعد صيته، وجلّ قدره، واستُدعي إلى مرّاكش وحظي فيها(١).

ومنهم : — ابن الفخّار عليّ بن ابراهيم(٢) ((كان له في الفقه ومعاني الحديث تمكّن مكان))(٣).

ومنهم : — الشهيد أبو الرّبيع سليمان بن موسى الكلاعي . أربت مؤلّفاته على العشرين، كان ((حافظا للحديث، مبرزا في نقده، تامّ المعرفة بطرقه، ضابطا لأحكام أسانيده، ذاكرا لرجاله وتواريخهم وطبقاتهم))(٤). استشهد في معركة أنيشة سنة ٦٣٤هـ (٥).

وقد شجّع الموحّدون علميّ الأصول والكلام، فنبغ فيهما عدد كثير من العلماء المغاربة إلى درجة كانت تشدّ الرحلة إلى المغرب لطلبهما . فقد أجاز عبد الله بن باديس اليحصبي(٦) البحر إلى مدينة فاس وتبحّر على علمائها في علم الكلام(٧) ومن العلماء الذين اشتهروا بعلمي الأصول والكلام : — محمد بن عبد الكريم الفندلاوى (٨) . كان إماما في علم الكلام وأصول الفقه، وقد عكف على تدريسهما طوال حياته(٩).

ومنهم : — أبو الحسن عليّ بن محمد بن خليد المعروف بابن الإشبيلي(١٠)، ((كان أصوليّا ماهرا، متكلّما حاذقا، وهو الذى قرّر علم الأصول وعلم الكلام بمدينة فاس))(١١).

---

١ — المغرب : ج ١ ص ٤٤٨، بغية الملتمس : ص ٣٦٧، مخطوط الوافي بالوفيات : ج ١٦ ورقة ٥٥.
٢ — من أهل مالقة، كان صدرا في حفاظ الحديث، توفي سنة ٦٤٢هـ. انظر : — صلة الصلة : ص ١٣٥، الذيل والتكملة : ج ٥ ص ١٨٥—١٨٦.
٣ — صلة الصلة : ص ١٣٥، وانظر : الذيل والتكملة : ج ٥ ص ١٨٥—١٨٦.
٤ — مخطوط الوافي بالوفيات : ج ١٣ ورقة ١٥٩.
٥ — انظر : — الذيل والتكملة : ج ٤ ص ٨٩—٩٠، الحلّة السّيراء : ج ٢ ص ٣٠٢، إعتاب الكتّاب : ص ٢٤٩.
٦ — هو عبد الله بن باديس بن عبد الله بن باديس اليحصبي، من أهل جزيرة شقر. توفي سنة ٦٢٢هـ. انظر : التكملة : ج ٢ ص ٨٩٣.
٧ — التكملة : ج ٢ ص ٨٩٣.
٨ — من أهل مدينة فاس، توفي سنة ٥٩٦هـ. انظر التكملة : ج ٢ ص ٦٨١.
٩ — التكملة : ج ٢ ص ٦٨١.
١٠ — توفي سنة ٥٦٧هـ. انظر : صلة الصلة : ص ١٠١—١٠٢.
١١ — صلة الصلة : ص ١٠١.

وقد ازدهرت علوم اللّغة العربيّة في هذا العصر، ووجدت مدارس نحويّة تفرّدت بآراء خاصّة في مسائل الإعراب وغيره، ((فهذه مدرسة فاس التي يختلف أهلها عن مدرسة تلمسان في مسألة صرف أبي هريرة، وهذه مدرسة سبتة التي تخالف الجمهور في ضمّ النكرة المقصودة إذا نوّنت اضطرارا، وهذه مدرسة طنجه التي توجّه أسئلة نحويّة إلى مدرسة إشبيلية ...))(١) .

وظهر في هذا العصر أشهر علماء النحو واللّغة في الأندلس والمغرب. منهم : علي بن محمّد المغربي، ويعرف بابن خروف، برع في العربيّة، وانقطع لها، وأصبح من أئمّتها البارزين، وتصدّر لإقرائها طول حياته، وتفوّق بالأخصّ في شرح كتاب سيبويه، وألّف شرحه المشهور عليه، ويقال أنّه حمل منه نسخة إلى الخليفة النّاصر بمرّاكش، فوصله بألف دينار(٢).

ومنهم : ـ ابن عصفور النحوى الاشبيلي، ((حامل لواء العربيّة، في الأندلس، لازم ابن علي الشلوبين نحوا من عشرة أعوام إلى أن ختم عليه كتاب سيبويه... توفي بتونس سنة ٦٦٣هـ))(٣).

وأشهر النحويين الذين ظهروا في الأندلس أبو عليّ عمر بن محمّد الشّلوبين. غلبت عليه دراسة العربيّة، ونبغ فيها، حتّى غدا إمامها الذّى لا يبارى. وكانت تشدّ إليه الرّحال من سائر الآفاق للأخذ عنه. وكان امام العربيّة بالمشرق والمغرب... توفي سنة ٦٤٥هـ(٤).

ومن اللّغويين المشهورين أبو الخطّاب عمر بن الحسن بن دحية الكلبي، ((كان من أحفظ أهل زمانه باللّغة حتّى صار حوشيّ اللّغة عنده مستعملا، غالبا عليه))(٥) . ومن هؤلاء اللغويين السّهيلي المالقي السّالف الذّكر، فقد عمد في كتابه ((الرّوض الأنف))

---

١ ـ النبوغ المغربي : ج ١ ص ٢٦ ١، وانظر : التكملة : ج ٢ ص ٥٣٨.
٢ ـ انظر : ـ فوات الوفيات : ج ٢ ص ١٦٠، صلة الصلة : ص ١٤٢، بغية الوعاة : ص ٣٥٧، مخطوط الوافي بالوفيات : ج ٢٠ ورقة ٦.
٣ ـ مخطوط الوافي بالوفيات : ج ٢٠ ورقة ٥٢، وانظر : ـ صلة الصلة : ـ ص ١٤٢، فوات الوفيات : ج ٢ ص ١٨٤، بغية الوعاة : ص ٣٥٧.
٤ ـ انظر : ـ وفيات الأعيان : ج ٣ ص ٤٥٢، الذيل والتكملة : ج ٥ ص ٤٦٠ـ٤٦٤، المغرب : ج ٢ ص ١٢٩.
٥ ـ وفيات الأعيان : ج ٣ ص ٤٤٨، وانظر : بغية الوعاة : ص ٣٦٠.

الى إيضاح ما في سيرة ابن هشام ((من لفظ غريب، واعراب غامض، أو كلام مستغلق))(1).

وقد ازدهر الأدب في هذا العصر. فقد اعتنى الموحّدون به، ونال عندهم مكانة سامية، ويتجلّى ذلك في التشجيع المادّي والمعنوي للأدباء. فقد وهب عبد المؤمن أحد الشعراء ألف دينار على بيت واحد أنشده إيّاه(2). ووهب المنصور ابن منقذ(3) رسول صلاح الدين أربعين ألف دينار على قصيدة مدحه بها، ألف دينار على كلّ بيت(4).

كذلك كان الخلفاء الموحّدون يقيمون الندوات الشّعريّة التي يشترك فيها كثير من الشّعراء. فقد أقام عبد المؤمن ندوة أدبيّة ضخمة في جبل طارق، واستدعى لها الشعراء، وكان لا يستدعيهم قبل ذلك، واجتمع على بابه منهم عدد كبير(5).

ونضيف إلى رعاية الخلفاء وتشجيعهم، الأحداث الكبرى التي ألمّت بالمسلمين في الأندلس. فقد أذكت عواطف الشعراء، وألهبت مشاعرهم.

ومن أشهر الشعراء المغاربة أبو العبّاس أحمد بن عبد السلام الجَرّاوي ((كان عالما بالآداب، حافظا بليغ اللّسان، شاعرا مفلقا))(6). وهو ((أديب المغرب على الاطلاق في زمانه مع ماله من اعتداد بالنفس...)) (7).

ومنهم: — أبو عبد اللّه محمّد بن حسين بن عبد اللّه بن حَبّوس الفاسي. ((كان عالما محقّقا، وشاعرا مفلقا، يتقدّم في ذلك أهل زمانه))(8). وقد جمع شعره في ديوان حافل(9).

---

١ — الرّوض الأنف: ص ٣.
٢ — وفيات الأعيان: ج ٣ ص ٢٣٩.
٣ — هو مرهف بن أسامة بن منقذ، صاحب كتاب ((الاعتبار)) له علم بالأدب والشّعر.
انظر: تهذيب تاريخ ابن عساكر: ج ٢ ص ٤٠٠ — ٤٠١.
٤ — الاستقصا: ج ٢ ص ١٦٤.
٥ — المنّ: ج ٢ ص ١٥٠.
٦ — التكملة: ج ١ ص ١٢٨ — ١٢٩.
٧ — الفصون اليانعة: ص ١٠٢، وانظر: ذكريات مشاهير رجال المغرب، عدد ٦، ص ٧ وما بعدها.
٨ — التكملة: ج ٢ ص ٦٧٧.
٩ — التكملة: ج ٢ ص ٦٧٧.

ومن الشعراء الأندلسيين المشهورين الذين ظهروا في هذا العصر : أبو عبد الله محمّد بن غالب البلنسي المعروف بالرّصافي . ((كان شاعر وقته المعترف له بالإجازة))(١). مدح عبد المؤمن وهو — أي الشاعر — لم يزل صبيا يافعا ، ((وشعره مدوّن بأيدي النّاس، متنافس فيه . وقد حمل عنه وسمع منه))(٢).

ومنهم :— أبو الحسن علي بن حزمون ،((صاعقة من صواعق الهجاء))(٣)، أكثر قوله في طريقة التوشيح ،لم يدع موشّحة تجري على ألسنة النّاس إلاّ عمل في عروضها ورويّها موشحة أخرى(٤).

ومنهم : — أبو بكر يحيى بن مجبر ، ((أديب شاعر متقدّم في طريقة الشّعر، يسرع فيها وفاق أهل زمانه))(٥).

وقد أشارت المصادر إلى كثير من الدواوين الشعريّة لشعراء وجدوا في عصر الموحّدين . نذكر منها ديوان أبي بكر بن المنخّل الشّلبي(٦) ، وديوان ((نور الكمائم)) (٧)

١— التكملة : ج ٢ ص ٥٢٠ .

٢ — التكملة : ج ٢ ص ٥٢٠ . وانظر : وفيات الأعيان : ج ٢ ص ٤٣٢ — ٤٣٣ ، الرّايات : ص ١١٨ .

٣ — المغرب : ج ٢ ص ٢١٤ .

٤ — زاد المسافر : ص ٦٤ ، المغرب : ج ٢ ص ٢١٤ ، النفح : ج ٧ ص ٩ .

٥ — بغية الملتمس : ص ٥٠٨ . وانظر : الرّايات : ص ١١١ ، والعبر في خبر من غبر : ج ٤ ص ٢٦٧ .

٦ — التكملة : ج ٢ ص ٢٩٧ ، والشّاعر : هو أبو بكر محمّد بن ابراهيم بن المنخّل ، من أهل شلب، شاعر مجوّد ، توفّي في حدود سنة ٥٦٠ هـ . انظر : التكملة : ج ٢ ص ٢٩٦—٢٩٧ ، الرّايات : ص ٥٧ ، المغرب: ج ١ ص ٣٨٧ .

٧ — التكملة : ج ٢ ص ٥٥٧ .

لأبي القاسم الهمداني(١)، وديوان ابن سيّد الاشبيلي(٢)، وديوان أبي العبّاس الصدفي(٣)، وديوان أبي العبّاس الجراوي(٤).

أمّا النثر الفنيّ فقد أشارت المصادر إلى كثير من أعلامه الّذين انتظم بعضهم في كتّاب الدّولة الموحدية. منهم :ـ أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عبد اللهّ بن عيّاش التجيبي. كان ((رئيسا في صناعة الكتابة، خطيبا مصقعا، بليغا مفوّها)) (٥)، استكتبه المنصور ونال عنده دنيا عريضة. وقد حفظت المصادر بعض رسائله التي ظهر فيها روعة أسلوبه، ورشاقة قلمه (٦).

ومنهم :ـ أبو الفضل محمد بن علي بن طاهر بن تميم القيسي، ويعرف بابن محشرة. كان عالما متمكّنا، وأديبا بارعا، وكاتبا مجيدا. استدعاه الخليفة يوسف ليتولّى كتابة السرّ، فظهر في هذا المنصب بمقدرته، وروعة أسلوبه وبيانه(٧).

على أنّ أبرع كتّاب هذا العصر هو أبو المطرّف بن عُميرة المخزومي. ظهر في أواخر دولة الموحّدين، وشاهد محنة المسلمين في الأندلس. تفنّن في العلوم ونظر في العقليّات وأصول الفقه، ومال إلى الأدب، فبرع فيه براعة عدّ بها من كبار مجيدي النظّم. أمّا الكتابة ((فهو علمها المشهور، وواحدها الّذي عجزت عن ثانيه الدّهور)) (٨).
وقد صدرت عن ابن عميرة مجموعة من الرّسائل صوّرت محنة مسلمي الأندلس، وكشفت

---

١ — هو أبو القاسم محمد بن علي الهمداني، من أهل وادي آش. شاعر مطبوع، له مشاركة في الطبّ. توفي سنة ٥٩٦ هـ. انظر :ـ التكملة : ج ٢ ص ٥٥٦—٥٥٧.

٢ — التكملة : ج ١ ص ٨٠، والشّاعر هو أحمد بن علي بن سيّد الاشبيلي، يعرف باللّص لإغارته على الأشعار. توفي سنة ٥٥٧هـ أو ٥٧٨هـ. انظر :ـ التكملة : ج ١ ص ٨٠، النفح : ج ٤ ص ٢٠٣، المغرب : ج ١ ص ٢٠٢، الرّايات : ص ٤٨.

٣ — التكملة : ج ١ ص ٩٨، والشّاعر هو أبو العبّاس أحمد بن يعيش الصدفي، من أهل شريش. توفي سنة ٦٠٥ هـ. انظر : التكملة : ج ١ ص ٩٧—٩٨.

٤ — التكملة : ج ١ ص ١٢٨.

٥ — التكملة : ج ٢ ص ٦٠٦.

٦ — انظر : رسائل موحّدية : ص ٢٢٨—٢٥٩.

٧ — عنوان الدراية : ص ٣٠.

٨ — الإحاطة : ج ١ ص ١٧٤، وانظر : مخطوط الاغتباط بتراجم أعلام الرّباط : ج ١ ورقة ٤ — ٥.

عن رهافة حسّه، وروعة بيانه (١). وهناك نسختان خطيّتان من رسائله محفوظتان في الخزانة العامة بالرّباط (٢).

وقد عرفت العلوم العقليّة نهضة شاملة في عهد الموحّدين. فقد كانت الدّولة تمجّ بعدد كبير من الأطبّاء والصيادلة والفلاسفة والمهندسين. ووجد هؤلاء في الخلفاء الموحّدين الذين رعوهم ميدانا رحبا لمزاولة نشاطهم، فأبدع كثير منهم، بل انّ عددا من أعلام الفكر الاسلاميّ كان من هؤلاء العلماء.

فقد كان للطبّ مجالس راسة منظّمة كتلك التي كان يعقدها ابن زهر (٣)، وكان يقصدها الطلاّب من كلّ جهة، ويفتخرون بتلقّي قواعد الطبّ فيها (٤).

وأظهر المنصور اهتماما كبيرا بالطبّ. فقد عمّر ((بمرّاكش بيمارستانا غريبا أجرى فيه مياها كثيرة، وغرس فيه جميع الأشجار وزخرفه، وأمر له في كلّ يوم بثلاثين دينارا للأدوية . . . .)) (٥).

وقد ظهر في هذا العصر عدد كبير من الأطبّاء الذين أشارت المصادر إلى حذقهم ومهارتهم، نذكر منهم : — أبا بكر بن زهر، وأبا بكر بن طفيل، وأبا الوليد بن رشد، وأبا جعفر احمد الذهبي (٦)، وأبا بكر محمد بن علي الزّهري (٧)، وموسى بن ميمون القرطبي (٨).

---

١ — أنظر : النفح : ج ١ ص ٣٠٥-٣٠٦، الإحاطة : ج ١ ص ١٧٦، الرّوض المعطار : مادّة بلنسية ص ٩٧-١٠٠.

٢ — الأولى رقم ٢٣٢ك، والثانية رقم ٢٣٣ك.

٣ — هو أبو بكر محمّد بن عبد الملك بن زهر الإيادي. أخذ صناعة الطبّ عن أبيه. عاني عمل الشعر، وله موشّحات يتغنّى بها. انظر : عيون الأنباء : ص ٥٢١، رايات المبرّزين : ص ٤١.

٤ — عيون الأنباء : ص ٥٣٦.

٥ — مخطوط الوافي بالوفيات : ج ٦ ورقة ٥٢، وانظر المعجب : ص ٣٦٤.

٦ — هو أبو جعفر أحمد بن عتيق بن الحسن بن زياد بن جرج الذهبي من أهل بلنسية. ولد سنة ٥٥٤هـ وتوفي سنة ٦٠١هـ. انظر : التكملة : ج ١ ص ٩٥، الذيل والتكملة : ج ١ ص ٢٧٩، المغرب : ج ٢ ص ٣٢١.

٧ — هو أبو بكر محمد بن علي بن أحمد بن عبد الرحمن القرشي الزّهري، من أهل إشبيلية. توفي سنة ٦٢٣هـ عن سن عالية زاحمت التسعين. انظر : — التكملة : ج ٢ ص ٦١٩

٨ — يهوديّ النّحلة، قرأ الطبّ وأجاده علما. أظهر الاسلام خوفا من سلطان الخليفة عبد المؤمن، ثمّ ارتدّ بعد أن هاجر إلى مصر. توفي سنة ٦٠٥هـ. تاريخ الحكماء : ص ٣١٧ — ٣١٩.

وقد نبغ في عهد الموحّدين عدد من علماء النبات، أشهرهم : ـ ابن البيطار الأندلسي، وابن الرومية الإشبيلي . أمّا ابن البيطار فـ ((إليه انتهت معرفة النبات، وتحقيقه، وصفاته، وأسماؤه، وأماكنه، لا يجارى في ذلك . سافر إلى بلاد الأغارقة، وأقصى بلاد الروم، وأخذ فنّ النبات عن جماعة))[١]. وكان بمصر رئيسا على سائر المشّابين .

وأمّا ابن الرومية فقد مال إلى علم النبات ودراسته، وتجوّل من أجل ذلك في الأندلس والمغرب، ورحل إلى المشرق، ووقف في رحلاته على مالم يقف عليه غيره من أصناف النبات، وله تصانيف في النبات عديدة[٢].

ولعلّ أهمّ مظهر من مظاهر التحرر الفكري في دولة الموحّدين انتشار دراسة الفلسفة، وكانت من قبل لا تعني إلاّ الزندقة والإلحاد [٣]. ويعود اهتمام الموحّدين بالفلسفة إلى ((الدعوة التي ثار المهدي بها على فقهاء عصره الذين حرّموا العلوم العقليّة، وأقفلوا باب الاجتهاد، وقطعوا كلّ اتّصال بكتب الأصول . . . واستسلموا لتيّار التقليد، وترديد أقوال السّابقين)) [٤].

وقد أعطى ابن تومرت العقل حرّية واسعة في ميدان العقائد، ((فبضرورة العقل يعلم وجود الباري سبحانه)) [٥]، ومن ثمّ أقام الجانب التوحيدي [٦] من مذهبه على أساس عقليّ .

رعى الخلفاء الموحّدون الفلسفة واعتنوا بها . فقد انكبّ الخليفة يوسف أثناء ولايته على إشبيلية على دراسة فلسفة اليونان، ولا سيّما فلسفة أرسطو. ولمّا ولي الخلافة طمح به شرف نفسه، وعلوّ همّته إلى تعلّم الفلسفة، فجمع كثيرا من أجزائها، وبدأ من ذلك بعلم الطبّ، ثمّ تخطّى إلى ما هو أشرف من أنواع الفلسفة، وأمر بجمع كتبها، فاجتمع له منها قريب ممّا اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي [٧]. ولم يزل يوسف هذا

---

١ — فوات الوفيات : ج ١ ص ٤٣٤ .

٢ — عيون الأنباء : ص ٥٣٨ ، التكملة : ج ١ ص ١٢١ - ١٢٢ ، الإحاطة : ج ١ ص ٢٠٨ و ص ٢١٢ .

٣ — النفح : ج ١ ص ٢٢١ .

٤ — الأمير الشاعر : ص ٨٠ .

٥ — أعزّ ما يطلب : ص ٢٢٩ .

٦ — التوحيد : ـ هو عمدة مذهب ابن تومرت، وبه سمّى أتباعه . وجوهر هذا المبدأ هو ((العلم بالله)) وتنزيهه، وتصوّر تصوّرا روحيا صرفا مجرّدا من أيّ مادية أو تجسيم . انظر : أعزّ ما يطلب : ص ٢٢٩ ، أخبار المهدي : ص ٤ .

٧ — ترجمته في المعجب : ص ٢٥ - ٢٦ .

يجمع الكتب، ويبحث عن العلماء، وخاصّة أهل علم النظر، إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك المغرب (١). ولم يكن الخليفة المنصور أقلّ اهتماما من والده بعلـــــوم الفلسفة (٢).

وقد برع في ميدان الفلسفة اثنان من كبار فلاسفة الإسلام، هما : — أبو بكر بن طفيل، وأبو الوليد بن رشـــــد .

وازدهرت الهندسة في عهد الموحّدين، وإنّ المنشآت العمرانيّة الضخمة التي خلفوها لتشهد لهم بذلك. فقد أظهر الخلفاء الثلاثة الأول اهتماما بالغا بإقامـــــة المنشآت وتشييدها. فقد أمر عبد المؤمن ببناء حصون جبل الفتح، وإقامة القصـــــور الضخمة به (٣). كما أمر ببناء جامع تينملّل (٤)، ووسّع المدينة — أي مدينة تينملّل — عنـــد زيارته قبر المهدي سنة ٥٤٨هـ (٥). كذلك فقد شيد القصور الفخمة في مرّاكش (٦).

وأظهر الخليفة يوسف عناية بالغة بمدينة إشبيلية، وتكاد جهوده في ميدان الإعمار تكون مقصورة عليها. فقد بنى فيها قصور البحيرة الرّائعة (٧)، وأقام قصورا بديعة خارج باب الكحل (٨) * وشيد الجامع الكبير وقصبة إشبيلية (٩)، وأقام حول المدينة سورا عظيما، وأمر ببناء جسر يوصل بين إشبيلية وربضها القبلي بطريانه (١٠) **

---

١ — المعجب : ص ٣١٢ ؛ العبر في خبر من غبر : ج ٤ ص ٢٤٠ .
٢ — انظر : — الذيل والتكملة : ج ١ ص ٢٨١ ؛ المعجب : ص ٣٤٢ .
٣ — المنّ : ج ٢ ص ١٣٧ .
٤ — تينملّل : وتكتب تينمل وتانملت وتين ملّل . وهو من جبال السّوس، كان مهد الدعوة الموحّدية، ثم مدّنه عبد المؤمن وحصنه . انظر : المنّ : ج ٢ ص ٢١٥ .
٥ — المنّ : ج ٢ ص ٢١٥ .
٦ — المعجب : ص ٢٢٧ .
٧ — المنّ : ج ٢ ص ٤٦٤ .
٨ — المنّ : ج ٢ ص ٤٦٤ .
* — باب الكحل : أحد أبواب اشبيلية . المنّ : ج ٢ ص ٤٦٤ .
٩ — المنّ : ج ٢ ص ٤٧٤ .
١٠ — المنّ : ج ٢ ص ٤٦١ .
** — طريانة أو أطريانة : من حواضر اشبيلية . الحلل السندسيّة في الاخبار والآثـــار الاندلسية : ج ١ ص ٢١٩ .

وقد أسّس الخليفة المنصور حصن الفرج في اشبيلية، وأتم بناء الجامع الذى كان قد بدأ والده بناءه في تلك المدينة، وأقام له صومعة ضخمة، وتفافيح رفعت على منارة، وقد موّهت تلك التفافيح بمائة ألف دينار ذهبا (١)

واتّجه ضعفاء الخلفاء إلى تشييد القلاع والحصون لحماية المدن الإسلاميّة من اعتداءات الصليبيين. فقد أمر الخليفة المأمون ببناء برج الذهب في إشبيلية، كما ينسب إليه السّور الامامي المعروف بـ ((الحرم البرّاني)) أمام أسوار اشبيلية (٢).

وعلى الرّغم من ازدهار الحركة الفكريّة في عهد الموحّدين وتشجيع الخلفاء لها، فإنّ بعض المطاردات الفكريّة كانت تحدث بين الفينة والاخرى. ولعلّ أبرزها اضطهاد الفيلسوف موسى بن ميمون (٣)، واضطهاد ابن رشد وزملائه في عهد المنصور (٤)، ومصرع الفيلسوف ابن حبيب القصري * في عهد المأمون (٥).

ضعفت الحركة الفكريّة في الأندلس في نهاية العهد الموحّدى. ولعلّ هذا يعود إلى اضطراب الاحوال السياسية، وانصراف الأمّة إلى جهاد المعتدين وانشغالها بالمحنة، وانعدام الرّعاية للعلماء والمفكرين، وهجرة كثير منهم إلى المغرب.

---

١ — القرطاس: ص ٢٢٩.
٢ — القرطاس: ص ٢٧٣، المغرب الكبير: ص ٨٣٧.
٣ — المنّ: ج ٢ ص ٢٢٧، الاعلام: ج ٣ ص ٢٣.
٤ — التكملة: ج ١ ص ٥٥٣—٥٥٥، البيان المغرب: ج ٣ ص ٢٠٢.
* — ترجمته في المغرب: ج ١ ص ٢٩٦.
٥ — المغرب: ج ١ ص ٢٩٦.

الفصـــــل الأوّل

طبيعة الصّراع في شعـر الجهـــــاد

أ) جهاد في سبيل اللّـــه .
ب) العروبة في شعر الجهـــاد .

طبيعة الصّراع في شعر الجهاد

أ) جهاد في سبيل الله :ــ

كان الصّراع بين الموحّدين والفرنجة في الأندلس صراعا بين عقيدتين :ــ الإسلام والنصرانيّة. وقد أشارت المصادر الإسلاميّة القديمة إلى ذلك. ومن هذه المصادر رسائل الفتح التي كانت تصدرها الدّولة الموحّديّة. فقد وجّه الخليفة عبد المؤمن إلى الطلبة، والأعيان، والكافّة رسالة يخبرهم بهزيمة الرّوم في نواحي قرطبة. وقد أوضح الخليفة في هذه الرّسالة أنّه لم يقم في الأندلس إلاّ ((لتتميم المقصود فيها من إظهار الدّين، ونصر الملّة)). ووصفت الرسالة المسلمين بأولياء الله، وأنصار الحقّ. ووصفت الأعداء بالمشركين، والكفّار، وأعداء الله(١).

وفي سنة ٥٦٤هـ، وجّه الخليفة يوسف رسالة إلى طلبة الموحّدين في الدّيار الأندلسية، أوضح فيها أنّ الجيوش الموحّديّة لم تتجه إلى الأندلس لنصرة حزب على حزب، أو لاحتلال أرض، أو محاربة قوم، وإنّما اتجهت إليها قياما بحقّ الله في جهاد أعدائها.(٢)

وفي سنة ٥٩٢هـ، وجّه الخليفة المنصور رسالة إلى الطلبة، والأعيان، والكافّة في الأندلس يعلمهم بغزوته في ثغر الأندلس الشّمالي. وقد اعتبر الخليفة وقوف المسلمين على مدينة طليطلة (٣) ((وظيفة دينية))، ووصف الأعداء بالكفّار، ونعت جيشهم بـ ((جيش الصليب))، وخيل المسلمين ((خيل الله)).

وقد كان للجيوش الموحّدية في ساحات القتال مواقف مؤثّرة، تدلّ على تمكّن المشاعر الإسلاميّة في نفوس الجند. فحينما اصطفّت عساكر المسلمين على ساحل المهديّة، والتقى أسطول المسلمين بأسطول النّصارى، بكى الخليفة عبد المؤمن، وسجد قائلا :ــ ((اللّهم لا تضعضع دعائم الإسلام)) (٤).

وقبيل معركة الشّبيكة (٦)، جمع الشّيخ أبو يعقوب (٧) قادة الجيش، ووعظهم مذكرا بما لهم من الأجر عند الله تعالى إذا صدقوا في جهاد الكفرة(٨).

---

١ ـــ رسائل موحّدية : ص ١٢٢.

٢ ـــ المنّ : ج ٢ ص ٣٧٧.

٣ ـــ طليطلة :ــ عاصمة قشتالة، تقع جنوب مجريط شرقي طلبيره على نهر تاجُه. أخذها النّصارى سنة ٤٧٨هـ. الرّوض المعطار : مادّة طليطلة ص ٣٩٣ــ٣٩٥.

٤ ـــ انظر : رسائل موحّدية : ص ٢٣٠ــ٢٤٠.

٥ ـــ المكتبة العربيّة الصقليّة : ص ٣٠٣.

٦ ـــ وقعت سنة ٥٥٧هـ. انظر : الحلّة السّيراء : ج ٢ ص ٢٥٨.

٧ ـــ هو أبو يعقوب يوسف بن سليمان، من زعماء الموحّدين، وقد استخلصه عبد المؤمن لنفسه. أخبار المهدي : ص ٣٣ــ٣٥.

٨ ـــ المنّ : ج ٢ ص ١٩٧.

وفي معركة وبذة بايع قادة الجيش الخليفة على الجهاد . وما أن بدأ الهجوم حتى ((كبر المسلمون على المدينة بأصواتهم ، رافعين أعلى ما يقدرون عليه بالتوحيد والتكبير))(١). ولمّا انكشفت المعركة عن تفوق الصليبيين وخذ لان المسلمين جمع الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن عمر(٢) النّاس، ووقف فيهم خطيبا يحرّضهم على الجهاد . ومما قاله : ((قد كنتم بمراكش تقولون : — لو كنّا غزونا النّصارى لجاهدنا الله عزّ وجلّ واجتهدنا . فلمّا حضرتم معهم تأخرتم وجبنتم، وخنتم الله عزّ وجلّ، ونكلتم وما نصحتم ! ما أنتم بمؤمنين ولا بموحّدين إن تسمعوا النّواقيس تضرب، وتعاينوا الكفر، ولا تدفعوا المنكر)) (٣).

ومن الأمور التي توضّح نظرة المسلمين إلى الصراع ما روي عن الخليفة يوسف من أمره بجمع الأحاديث النبوية التي تحثّ على الجهاد ، ودراستها ، وإلقائها على الجند(٤).

كذلك فإنّ سفارة ابن منقذ إلى الخليفة يعقوب المنصور، بغضّ النظر عن نتائجها ، تصوّر المشاعر الإسلاميّة المشتركة نحو الصّراع، كما تدلّ على فهم واحد له . فبينما كان الموحدون يواجهون الهجمات الصليبيّة على الأندلس، كان صلاح الدّين الأيّوبي يتصدّى للحملات الصليبية على المشرق . لذلك فقد أحسّ صلاح الدّين أنّ الدولة الموحّدية هي خير صديق يمكن طلب العون منه ، لإيمانه بأنّ القضية التي يدافعان عنها قضيّة واحدة ، وأنّ العدوّ الذي يجاهدانه عدوّ واحد(٥).

آزرت الكنيسة في روما الحرب التي شنّها الفرنجة على مسلمي الأندلس. واعتبر البابا هذه الحرب حربا صليبيّة مقدّسة(٦) ضدّ المسلمين الذين نعتهم بـ ((أعداء الدّين))(٧). فعندما عزم الصليبيّون على محاربة المسلمين في عهد الخليفة النّاصر ، أرسل مطران طليطلة مبعوثيه الى فرنسا والامم المجاورة لاستثارة حماسة النّصارى على العبور إلى الأندلس. كذلك فقد أرسل ملك قشتالة مبعوثا إلى البابا يرجوه أن يدعو أمم أوروبا النّصرانية لمؤازرته ، وذلك بتنظيم حملة صليبية ضدّ المسلمين في الأندلس.

---

١ — المنّ : ج ٢ ص ٤٩٣ .

٢ — من فقهاء إفريقية ، تعلّق بابن تومرت، وأصبح من أتباعه الأثيرين . نظم الجمان : ج ٦ ص ٢٢ .

٣ — المنّ : ج ٢ ص ٥٠١ .

٤ — المعجب : ص ٢٣٨ .

٥ — انظر حديثا مفصلا عن سفارة ابن منقذ وظروفها ونتائجها كتاب : جولات في تاريخ المغرب : ص ٦٩—١٠١ .

٦ — انظر : أوروبا العصور الوسطى : ج ٢ ص ١٠٥ .
Moorish Culture, P.195; Moors in Spain, P. 168.

٧ — تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين : ص ٢٦٩ و ص ٣٣٥ .

نجحت مساعي ملك قشتالة تلك. فقد اجتمعت لديه حشود هائلة من الصليبيين الوافدين من أنحاء أوروبا (١)، وأقيمت الصلوات طلبا للنصر (٢)، وألقى رجال الدين النصارى الخطب والمواعظ في الجند حتّى يبعثوا الحماسة فيهم(٣).

أشار المؤرّخون المسلمون إلى جهود ملك قشتالة تلك. وقد كان عبد الواحد المرّاكشي أكثر المؤرّخين إدراكا لذلك، حيث قال :– ((وخرج الأذفنش – لعنه الله – إلى قاصية بلاد الرّوم، مستنفرا من أجابة من عظماء الرّوم وفرسانهم، وذوي النجدة منهم، فاجتمعت له جموع عظيمة من الجزيرة نفسها، ومن الشام، حتّى بلغ نفيره إلى القسطنطينية. وجاء معه صاحب بلاد أرغن، المعروف بالبرشنوني، لعنه الله))(٤).

أمّا صاحب الرّوض المعطار فقد قال :– ((ثمّ استفات الأذفنش بأهل ملّته، وحثّهم على حماية دينهم، فاستجابوا له، وانثالوا عليه من كلّ مكان)) (٥). كما أشار صاحب شذرات الذهب إلى ذلك بقوله :– ((واستنفر الأذفنش عليه – أي على الخليفة النّاصر – حتّى فرنج الشّام وقسطنطينيّة الكبرى))(٦).

وقد أشار إلى ذلك بصورة بليغة واضحة الخليفة النّاصر في كتابه عن معركة العقاب، حيث قال :– ((فبثّ – أي ملك قشتالة – القسّيسين والرهبان من برتغال إلى القسطنطينيّة العظمى . . . فجاءه عبّاد الصليب من كلّ فجّ ومكان سحيق))(٧).

اضطرمت الحماسة الصليبيّة في نفوس النّصارى، فقامت جماعات الفرسان الدينيّة. وقد نذرت هذه الجماعات نفسها للدفاع عن النصرانيّة، ونزول الميدان دائما لمقاتلة المسلمين (٨). فقامت في قشتالة جماعة ((فرسان القنطرة)) وجماعة ((فرسان قلعة رباح)). كما قامت في جليقة جماعة ((القدّيس ياقب)). أمّا البرتغال فقد ظهر فيها

---

١ — انظر :– العرب في أسبانيا : ص ١٨٤، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين : ص ٣٦٠ — ٣٦١،
A Hist. of the Middle Ages, P. 1[illegible],
Out lines of the Med. Hist, P.261, Apolitical Hist. of the Moslem in Spain, P. 273.

٢ — المعجب : ص ٣٢٤.
٣ — تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين : ص ٢٦٨.
٤ — المعجب : ص ٣٢٩.
٥ — صفة جزيرة الأندلس : ص ١٣٧.
٦ — شذرات الذّهب : ج ٥ ص ٤٤.
٧ — البيان المغرب : ج ٣ ص ٢٤٠.
٨ — تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين : ص ٢٦٩.

فرسان ((الداوية)) ، وفرسان ((القديس يوحنا)) ، وجماعة ((المحاربة الجديدة)) ، وجماعة ((القديس ميخائيل ذى الجناح)) [١] .

شجعت الكنيسة هذه المنظمات التي قامت بنفس الدور الذى قامت به الداوية والاسبتارية في الأراضي المقدسة . بل أن البابا اسكندر الثالث ، والبابا أنوسنت الثالث ، وكلاهما يتمتع بروح صليبية عالية ، أسهما إسهاما مباشرا في قيام أشهر منظمة دينية حربية عرفتها الأندلس ، وهي منظمة سنتياجو Santiago [٢] .

وقد كانت الجيوش الصليبية المتجهة نحو المشرق ، تغير وجهتها نحو الأندلس ، لمساعدة الصليبيين الذين كانوا يقاتلون المسلمين في هذه الجبهة [٣] . وهذا يدل على أن الحرب التي خاضها الصليبيون في المشرق والمغرب حرب ذات طابع واحد . فلم يكن ميدان الحروب الصليبية مقصورا على المشرق وإنما شمل الأندلس أيضا . وهذه الحروب في نظر الأوروبيين المعاصرين لا تقل أهمية عن الحروب الصليبية التي احتدمت في مشرق العالم الإسلامي . بل أن ابن الأثير جعل ابتداء الحروب الصليبية في الأندلس ، ثم امتدت فشملت بلاد الشام [٤] .

واكب الشعراء في المغرب والأندلس أحداث هذا الصراع ، وعبروا عنه تعبيرا واضحا وذهبوا في ذلك مذهبا يدل على عمق إحساسهم به .

---

١ — The Empire and the Papacy, P. 431.
وانظر : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين : ص ٢٦٦—٢٧٠ .

٢ — أوروبا العصور الوسطى : ج ١ ص ٥١١ .

٣ — انظر : Med. Hist., P. 48.

٤ — يقول ابن الأثير في هذا الصدد :— ((كان ابتداء ظهور دولة الفرنج ، واشتداد أمرهم ، وخروجهم الى بلاد الاسلام ، واستيلائهم على بعضها ، سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، فملكوا مدينة طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس . . . ثم قصدوا سنة أربع وثمانين وأربعمائة جزيرة صقلية وملكوها . . . وتطرقوا الى أطراف افريقية فملكوا منها شيئا ، وأخذ منهم . . . فلما كان سنة تسعين وأربعمائة خرجوا إلى بلاد الشام . . .)) .
أنظر : تاريخ الكامل : ج ١ ص ٢٧٢ .

ففي سنة ٥٥٥هـ، انتصر المسلمون على الفرنجة في المهديّة، وأخرجوهم منها (١). وقد نسب إلى الخليفة عبد المؤمن قصيدة قالها في هذا الفتح، منها :—

وأشرقت الشّمسُ المنيرة فوقنـــا (٢) وأصبح وجه الحقّ غير مُحجّـَـــــــــب
وطُهِّر هذا الصُّقع من كلّ كافـــر وعاد به الإسلام بعد تقلّـــــــــب
وكُسِّرت الصلبانُ في كلّ بيعـــة ونادى منادي الحقّ في كلّ مرقـــب (٣)

فقد وضع الشاعر انتصار المسلمين على الفرنجة في المهديّة في إطار الإسلامـــي الشّامل . وتوضيحا لذلك، فقد ربط هزيمة النصارى، بطقوس عقيدتهم، وانتصار المسلمين بشعائر دينهم، مستخدما في ذلك ألفاظا مرتبطة بعقيدة طرفي الصراع . مثل :— ((كافر)) و ((الإسلام)) و ((الصلبان)) و ((بيعة)) .

وقد استوعب الشاعر المعنى القرآني في البيت الثاني، حين جعل المشركيــن ((نجسا)) (٤)، وعدّ إخراجهم من ديار الإسلام تطهيرا لها .

وفي هذا المعنى قال ابن الأبّار (٥) :—

طهِّرْ بلادك منهم إنّهم نجـــس ولا طهارة إن لم تغسل النّجســــا (٦)

وفي سنة ٥٥٥هـ، جاز الخليفة عبد المؤمن البحر إلى الأندلس على رأس جيــش . وقد هدد ابن سيد الاشبيلي الصليبيين بهذا الجيش قائلا :—

لا أبنَ يا آلَ الصليب وحزبَـــه حتّى يعمّ القتلُ كلّ مُصلِّـــــــب
ويورث التوحيدُ عرشَ بلادكـــم من بعد ما حيّ عدكم وتنقّـــــــب

***

حتّى تقرّ عيوننا في أرضنـــا وتقرّ عينٌ نبيّنا في يثــــــرب (٨)

---

١ — تاريخ الكامل : ج ١١ ص ٢٤٢—٢٤٤، المنّ : ج ٢ ص ١٤٧ .
٢ — قرئت في المنّ ((موهنا)) .
٣ — المنّ : ج ٢ ص ١٢٤، البيان المغرب : ج ٣ ص ٤١ .
٤ — سورة التوبة : آية ٢٨ .
٥ — هو الكاتب المشهور أبو عبد الله محمّد بن الأبّار، صاحب كتاب التكملة . كان ((فاضلا في النثر والتاريخ وطلع الآداب)) . توفي قتلا سنة ٦٥٨هـ . انظر : المغرب : ج ٢ ص ٣٠٩، الرايات : ص ١١٤، أزهار الرياض : ج ٣ ص ٢٠٤ .
٦ — النفح : ج ٤ ص ٤٦٠ .
٧ — الحلل الموشية : ص ١٢٩، المنّ : ج ٢ ص ١٤٧ .
٨ — المنّ : ج ٢ ص ١٧٠ .

ونلمح في الأبيات المشاعر الإسلامية الدافقة التي أوحت إلى الشاعر بتهديد الأعداء على هذا النحو، وهو تهديد حافل بالمؤثرات الوجدانية التي تستمد تأثيرها من العقيدة الإسلامية، وتثير مشاعر الإيمان في النفوس. ومن أبرز تلك المؤثرات، وصف الأعداء بـ ((آل الصليب وحزبه)) ، وربط الصراع بشخص سيدنا محمد عليه السلام.

وقد قال الشاعر نفسه قصيدة أخرى في المناسبة ذاتها ، ومما ورد فيها قوله : —

أبلغْ ذوي الشرك والإلحاد قاطبة ... أنّ ما لهم من جنود الله من قِبَلِ

أتاكمُ الجيشُ محفوفا جوانبه ... بالمشرفية والخطية الذُّبُلِ

ريعوا إلى السّلم والإسلام ويحكم ... لا تحسبوا دولة التوحيد كالدُّوَلِ(١)

ويؤكد الشاعر في هذه الأبيات فهمه الإسلاميّ الشامل للصراع. وحتى يقرر ذلك، فقد نعت الأعداء بـ ((ذوي الشرك والإلحاد)) ، ونعت المسلمين بـ ((جنود الله)) ، وحث الصليبيين على التسليم والدخول في الإسلام، لأنه لا قدرة لهم بهؤلاء الجند الذين يجاهدون في سبيل الله، وبدولة الموحّدين التي تقاتل لإعلاء كلمة الله.

ويستبين القارئ لقصيدة أبي العباس الجراوي التي قالها في انتصار المسلمين سنة ٥٥٦هـ(٢) الطابع الديني الذي أضفاه على هذا الانتصار، حيث اعتبره إعلاء لدين الواحد القهار وتمكينا له، يقول : —

أعليتَ دين الواحد القهّارِ ... بالمشرفية والقنا الخطّارِ

ورأى بك الإسلامُ قرّةَ عينِه ... وغدت بك الغرّاء دار قرارِ(٣)

وقد نقل أبو عمر الأشيري(٤) الصراع إلى ميدان العقائد عندما نظر إلى هزيمة الصليبيين سنة ٥٦٨هـ(٥) ، باعتبارها إهانة للشرك عامة، يقول : —

دارت رحا الهلكات بالسّبطاطِ(٦) ... وسطا بها ريبُ الزّمان السّاطي

وأُهينَ فيها الشركُ أيّ إهانةٍ ... شنعت كريه هياطِها بمياطِ* (٧)

---

١ — المنّ : ج ٢ ص ١٥٨ — ١٥٩ .

٢ — البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٦ .

٣ — البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٠٦ .

٤ — هو حسن بن عبد الله بن حسن ، من أهل تلمسان . كان من أهل العلم بالقراءات، إلا أن الأدب غلب عليه . التكملة : ج ١ ص ٢٧٠ .

٥ — المنّ : ج ٢ ص ٥٢١ .

٦ — السّبطاط : تقع جنوب طليطلة . ويقوم مقامها الآن المدينة الملكية . محنة مسلمي الاندلس : ص ٩٦ .

* — الهياط والمِياط : الإقبال والإدبار . لسان العرب : مادّتا ((هيط)) و ((ميط))

٧ — زاد المسافر : ص ١٠١

وقد استوحى أبو بكر بن مجبر التعابير المرتبطة بالعقيدة الإسلامية (١) ، والتاريخ الإسلامي لأحداث إيحاءات معيّنة، عندما وصف تحرّك الجيش الإسلامي سنة ٥٨٦هـ(٢)، حيث قال :—

بشراي هذا لواء قلّ ما عقدا ... الآومدّ له الرّوح الأمين يدا

إمام جيش أراد الله نصرته ... فأرسل الملأ الأعلى له مددا

إنّي لأحكم بالنصر العزيز له ... وإن سكتّ فإنّ الوحي قد شهدا(٣)

والشّاعر لم يورد تلك المعاني القرآنيّة إلاّ ليؤكّد المعنى الذى أراده. وهو أنّ الحرب التي يخوضها المسلمون ضدّ الصليبيين حرب في سبيل الله، لذلك فإن السّماء تمدّها بالعون، وتؤيّدها.

ولمّا كان المسلمون في قتالهم الأعداء مجاهدين في سبيل الله، فقد وصفهم الشّعراء بـ ((حزب الله)) . وقد ورد هذا النّعت في القرآن الكريم(٤). من ذلك قول الشوّاش الشّلبي (٥) :—

يا سعد دين الله أفلح حزبه ... وهوت عداه في عذاب واصب(٦)

أمّا الصليبيّون فهم ((حزب الكفر)) :—

فأولئك حزب الكفر ألا ... إنّ الكفّار لفي نكس(٧)

وكذلك فإنّ أرضهم ((أرض كفر)) :—

فطاف بأرض الكفر حتّى أعادها ... إلى الحقّ وانقاد الأبيّ المشاقق(٨)

---

١ — التوبة : آية ٢٦ و ٤٠ ، الأحزاب : آية ٩ .
٢ — البيان المغرب : ج ٣ ص ١٧٩ .
٣ — البيان المغرب : ج ٣ ص ١٧٩ .
٤ — المائدة : آية ٥٦ ، المجادلة : آية ٢٢ .
٥ — هو أبو الوليد اسماعيل بن عمر المعروف بـ ((الشّواش الشّلبي)) . توفي سنة ٥٩٩هـ. سمّاه السيوطي : محمدًا . بغية الوعاة : ص ٨٦ ، الأعلام : ج ٢ ص ٢٤ .
٦ — المنّ : ج ٢ ص ٢٠٨ .
٧ — المعجب : ص ٣٧١ .
٨ — المنّ : ج ٢ ص ١٦٧ .

وهي أيضاً ((أرض المشركين)) :ـ

أوطأتَ أرض المشركين كتائبـــا   كادت تصير الأرض من وطآتهـــا
كالبحرِ يطفحُ موجها جريـاً إذا   هبّت رياحُ النّصرِ في راياتهــا (١)

وما دام الصراع بين الاسلام والكفر، فقد صوّر الشّعراء الأمر الذى يقاتل من أجله المسلمون ((أمر اللّه)) . فالخليفة المنصور عندما خرج إلى معركة ((الأرك)) خرج لـ((أمر اللّه)) واثقاً من النّصر :ـ

ومضيتَ لأمر اللّه علـــى   ثقة باللّه ولم تخـــس (٢)

والصليبيّون عندما ذلّوا في غزوة المنصور سنة ٥٩٢هـ، إنّما ذلّوا لـ((أمر اللّه)) :ـ

ذلّوا لأمرِ اللّه قسـراً   وهم أولو نجــدة أبــاةُ (٣)

وفي هذا المعنى قال أبو العبّاس الجرّاوى :ـ

الأمرُ أمر اللّه ليس يضـــرّه   ما حاولت من كيدِه الأعــداءُ (٤)

ومن المعالم البارزة التي توضح نظرة الشعراء إلى الصّراع، وتؤكّد فهمهم الإسلاميّ له، التركيز على استثارة المشاعر الإسلاميّة لدى القبائل العربيّة التّي تقطن إفريقية، وذلك بتبصيرها بالخطر الذّى يهدّد الاسلام في الأندلس، وتحميلها مسؤوليّة الاشتراك في الدّفاع عنه، واعتبار ذلك امتداداً لما قامت به أصولها في نصرة الإسلام أوّل أمره.

ففي سنة ٥٥٤هـ، وجّه القاضي ابن عمران (٥) قصيدة الى بني سليم (٦) ، يحثّهم على الجهاد، ويدعوهم إلى الالتحاق بالجيوش الموحّديّة في الأندلس. ولم يبق من هذه القصيدة إلاّ ما يلي :ـ

---

١ ـ تحفة القادم، نشر في مجلّة المشرق، بيروت، المجلّد ٤١، سنة ١٩٤٩، ص ٥٦٨.
٢ ـ المعجب : ص ٣٧١.
٣ ـ البيان المغرب : ج ٣ ص ٢٠٠.
٤ ـ المنّ : ج ٢ ص ١٦٧.
٥ ـ هو القاضي أبو موسى عيسى بن عمران، قاضي الجماعة في مرّاكش. وقد كان فريد زمانه ديناً وعلماً وأدباً. توفي سنة ٥٧٣ هـ. المنّ : ج ٢ ص ٤٤١.
٦ ـ بنو سليم : من أوسع بطون مضر وأكثرهم جموعاً، فيهم شعوب كثيرة. الاستقصا : ج ٢ ص ١٤٦.

أُسُلَيمُ دعوةُ ذي اخاءٍ مرشدٍ	هادٍ إلى الحقّ المبين الُمسعِدِ
ومذكّرٍ ما كان أسلافٌ لكم	فضلوا به أفعالَ كلّ مسوّدِ
بجهادِ أعداءِ الإله ونصرهم	لرسولِ ربّهم النبيِّ محمّدِ
وتصرّفوا أنّا عليكم عمّرْ	حتّى يعود جواب هذا المَنْشَدِ(١)

فقد استوحى الشّاعر بعض مواقف بن سليم في نصرة سيّدنا محمد عليه السلام، وجهاد الكافرين أيام الإسلام الأولى ، وربط ذلك بالجهود التّي ستبذلها هذه القبيلة في جهاد الصليبيين في الأندلس، إيمانا منه بأن كلا الجهدين امتداد للآخر. ولا شكّ أنّ الشاعر أراد من هذا الرّبط أن يحقق استثارات وجدانيّة في نفوس أبناء هذه القبيلة، تحفزها على تلبية النداء.

وفي هذا المعنى قال ابن طفيل قصيدة وجّهها إلى العرب مستدعيا ومحرّضا على قتال الصليبيين . حيث ذكّر بالرّوابط الإسلاميّة التّي تربط هؤلاء العرب بالموحّدين . كما ذكّر بالدّور الذى اضطلعت به هذه القبائل في حمل الرسالة الإسلاميّة ونشرها ، ودعاها إلى مواصلة ذلك، وإحياء مناقبها الأولى . يقول : ـ

نَصحناكم والنّصحُ في الدّين واجبٌ	بما لكم فيه صلاحُ العواقبِ
بكم نُصِرَ الإسلام بدءاً ، فنصرهُ *	عليكم، وهذا عودة جدٌّ واجبِ
فقوموا بما قامتْ أوائلكُم بهِ	ولا تُغفلوا إحياءَ تلكَ المناقبِ(٢)

وفي سنة ٦٤٠ هـ أمر السيد أبو عمران ، والي اشبيلية يومئذ ، ابن سهل الأندلسي(٣) بمخاطبة عرب المعقل (٤) بكتاب استنفار . وقد ضمّن هذا الكتاب قصيدة في ذلك المعنى ، مطلعها : ـ

رِدوا فمضمون نجاحُ المَصْدَرِ	هي عزّةُ الدّنيا ونوزُ المَحْشَرِ

وواضح ما في هذا الاستهلال البارع، من حثّ على الجهاد ، وترغيب فيه .

---

١ ـ البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٩ .

٢ ـ المن : ج ٢ ص ٤١٢ ـ ٤١٣ .

٣ ـ هو أبو إسحاق إبراهيم بن سهل الإسرائيلي . كان من عجائب الزّمان في ذكائه . وقد شكّ المؤرخون في إسلامه . توفي سنة ٦٤٩ هـ . المغرب : ج ١ ص ٢٦٩ ، الرّايات : ص ١٥ .

٤ ـ عرب المعقل : نسبهم خفّي مجهول . يعدّهم بعض نسّابي العرب من بطون هلال . وهم يدعون أنهم من آل البيت . كانت مساكنهم قرب البحرين . هاجروا إلى المغرب، وتفرقوا في أنحائه . قبائل المغرب : ج ١ ص ٤١٢ .

وقد غمرت الروح الجهادية القصيدة ، وظللتها بشتى الظلال ، حيث استوحى ابن سهل ثقافته الإسلامية حين أسهب في الحديث عن الثواب الذى أعده الله للمجاهدين في سبيله . يقول : ـ

خلّوا الدّيارَ لدارِ خلدٍ واركبوا	فمرَ العجاج إلى النعيم الأخضر
وتسوّغوا كدرَ المناهل في السّرى	تُرووا بماء الحوض غير مكدّر
وتجشّموا الحرَ الأجاج فإنّه	سبب به تردونَ نهرَ الكوثر
وتحمّلوا حرّ الهجير فإنّه	ظلّ لكم يوم المقام الأكبر

وتثير الأبيات المشاعر الإسلامية في نفوس المؤمنين حين تبصّرهم بالجزاء الذى أعده الله للمجاهدين في سبيله . وقد استعان الشاعر لتوضيح ذلك ببعض الألفاظ الإسلامية المرتبطة بالحياة الأخرى لإحداث إيحاءات معيّنة . مثل : ((الحوض)) ، ((الكوثر)) ، ((دار الخلد)) ، ((يوم المقام الأكبر)) .

وقد ردّد ابن سهل معنى ردّده الشعراء من قبله ، وذلك حين دعا العرب إلى مواصلة الدّفاع عن الإسلام ، وأكد لهم أن ذلك فرض عليهم ، لأنّه دين نبيّهم : ـ

أنتم أحقُّ بنصرِ دينِ نبيّكم	وبكم تمهّد في قديم الأعصُر
أنتمْ بنيتمْ ركنَه فلتدعموا	ذاك البناء بكلّ ألمسَ أسمَر

واستمراراً في استثارة المشاعر الإسلامية لدى القبائل العربية ، فقد قدّم ابن سهل صورة موثّرة لتضعضع الوجود الإسلامي في الأندلس وانحساره ، وعلوّ الكفر وتقدّمه : ـ

أضحى الهدى يشكو الظّما ولأنتمُ	ظلّ وريّ كالرّبيع الممطر
وعلا الجزيرةَ غيهبٌ وغدوّكم	مطويّة فوق الصباح المُسْفِر
الدّينُ نادَاكم وفوقَ سروجكم	غوثُ الصريخ وبغيةُ المستنصر
لم يبقَ للإسلام غيرُ بقيّةٍ	قد وُطّنت للحادثِ المتنكّر (١)

فمصير الوجود الإسلامي في الأندلس يلحّ على الشاعر ويقلقه في كلّ بيت من تلك الأبيات . وقد قدّم التعبير الشّعرى الإسلام صورة حيّة ، تهتف بالعرب مستنجدة ، وهي صورة موثّرة . وخلال ذلك جاء النكير على العرب بسبب تقاعسهم وتخاذلهم عن الجهاد ، فيوقظهم من همود الإلف والعادة ، ويلفتهم إلى تطلّي واقع الإسلام منْ حولهم .

---

١ ـ ديوان ابن سهل : ص ١٤٠ ـ ١٤١ .

ومن الأمور التي تلقانا كثيرا في شعر الجهاد، التفات الشعراء إلى الماضي، واستيحاء بعض المواقف والأحداث التي تحتل مكانة سامية في التراث الإسلامي، وربطها ببعض الوقائع والشخصيات الإسلامية التي وجدت في عهد الموحدين.

فقد أوحت هزيمة الصليبيين في معركة الأرك إلى أبي العباس الجراوي بهزيمة الكفار يوم بدر، فربط بين الهزيمتين إيمانا بأن كلتيهما نصر للإسلام، وهزيمة للكفر، يقول: —

لقد أوردَ الأذفنشُ شيعتَه الردى ... وساقهمُ جهلاً الى البطشة الكبرى

حكى فعلَ إبليسٍ بأصحابه الأولى ... تبرأ منهم حين أوردَهم بدرا (١)

وقد استثار عبور الجيوش الموحدية الى الأندلس سنة ٥٦٠ هـ (٢) المشاعر الإسلامية في نفس ابن حربون (٣)، فأوحت إليه بتهديد الأعداء بمعركة كبرى على غرار معركة اليرموك، حيث قال: —

فالآنَ قلْ لذوي الإلحاد شأنكمُ ... فما لكم دونَ هذا الأمر ملتحدُ

هاتيكَ ثانيةُ اليرموك قد رجفتْ * ... ما إن لكم صببٌ عنها ولا صعدُ (٤)

ويرتبط التاريخ الإسلامي للأندلس بشخصيتي: موسى بن نصير، وطارق بن زياد، اللذين قادا جيوش الفتح الاسلامي لها. فلا غرابة إذن أن وجدنا بعض الشعراء يستلهمون مواقف تينك الشخصيتين، ويقرنونها بمواقف بعض الشخصيات الموحدية المجاهدة. من ذلك، ما فعله أبو العباس الجراوي، حيث اعتبر جهود الخليفة عبد المؤمن في محاربة الكفار مكملة لجهود هذين القائدين في فتح الأندلس، ونشر الإسلام فيها. يقول: —

لو رأى موسى ما فعلتَ وطارقٌ ... زريا بما لهما مِنَ الآثار

أتممتَ ما قد أمّلوه فذاتهم ... من نصرِ دينِ الواحدِ القهّار (٥)

---

١ — البيان المغرب: ج ٣ ص ١٩٧، شاعر الخلافة الموحدية: الملحق ص ٧.

٢ — البيان المغرب: ج ٣ ص ٦٣، المن: ج ٢ ص ٢٥٠ — ٢٥٣.

٣ — هو أبو عمر بن عبد الله بن حربون، كان أولا في جملة كتاب ابن قسي زعيم المريدين، ثم في جملة كتاب السيد أبي حفص. أورد ابن صاحب الصلاة عدة قصائد له. وابن حربون هذا غير ابن حزمون. انظر: المن: ج ٢ ص ٢٤٥، تعليق رقم (١).

٤ — المن: ج ٢ ص ٢٥٥.

٥ — البيان المغرب: ج ٣ ص ٤٦.

واستمرارا في استيحاء أحداث الماضي وربطها بالحاضر، فقد قرن عبد الواحد المرّاكشي شخصية ابراهيم بن ابي يوسف(١) بشخصية الخليفة العبّاسي المنصور، حيث قال :—

أحييتمُ المنصورَ فهو كأنّه   لم تفتقدْهُ معالمٌ وعلومُ
ومحابرٌ ومنابرٌ ومساربٌ   وحِمى يحاطُ وأرملٌ ويتيمُ

وقد استلهم المرّاكشي القصص القرآني بحذق، عندما قرن مدينة طليطلة التي تعاني من الاحتلال الصليبي بشخصيّة السيّدة هاجر التي قاست من الآلام كثيرا، حيث قال :—

وأرى طليطلةً كهاجرَ إثرها   سيزفّها الأذفنشُ وهوَ ذميمُ(٢)

وهذا الالتفات إلى الماضي واستيحاء بعض الأحداث والشخصيّات التاريخيّة التي تتبوّأ مكانة سامية في التراث الإسلامي، أكسب بعض القصائد هالة إسلاميّة وضاءة قادرة على استثارة ((إيحاءات فكريّة وعاطفيّة في نفوس المسلمين جميعا، والمقاتلين منهم بصورةٍ خاصّة)) (٣). ولا شكّ أن لهذه الإيحاءات آثارا فاعلة في النّفوس.

ولمّا كان المسلمون في حربهم ضدّ الصليبيين مجاهدين في سبيل الله، فقد اعتبر الشعراء قتلاهم شهداء. من ذلك ما ورد في قصيدة ابن الأبّار التي رثى فيها أبا سليمان الكلاعي خاصّة ومن استشهد في معركة أنيشة(٤)، حيث قال :—

وموجا عليها مأربا ومَفاوِزا(٥)   مصارعَ غُصّت بالطُّلى والجماجمِ
تحيّي وجوها في الجنان وجيهةً   بما لَقيتْ(٦) حمرا وجوهَ الملاحمِ
وأجساد ايمانٍ كساها نجيعُها(٧)   مجاسدَ من حوكِ(٨) الظّبا واللّهاذمِ

---

١ — هو ابن الخليفة المنصور. قال عنه المرّاكشي : ((إ من خيرة ولده، وأجدرهم بالأمر)) ، ولي إشبيلية سنة ٦٠٥ هـ . المعجب : ص ٣٨٧ .
٢ — المعجب : ص ٣٨٧ .
٣ — صدى الغزو الصليبي : ص ٨٦—٨٧ .
٤ — وقعت سنة ٦٣٤ هـ . وقد هزم فيها المسلمون . مخطوط الحلل السندسيّة : ورقة ٢٥ .
٥ — قرئت في المرقبة العليا ((مفازة)) .
٦ — قرئت في المرقبة العليا ((بقيت)) .
٧ — قرئت في المرقبة العليا ((نحيفها)) .
٨ — قرئت في المرقبة العليا ((نسج)) .

مكرّمة حتّى عن الدّفن في الثّرى — وما يكرم الرّحمنُ غيرَ الأكـــارمِ
همُ القوم راحوا للشّهادة فاغتدَوا (١) — وما لهم في فوزهم من مقـــاومِ

*

مَضوا في سبيل اللّه قدما كأنّمـــا — يطيرون من إقدامهم بقـــوادمِ
يَرَوْنَ جوار اللّه أكبرَ مغنـــمٍ — كذاك جوارُ اللّه أسنى المغانـــمِ

فقد ربط ابن الأبّار مقتل كثير من المسلمين في معركة أنيشة بمعان دينيّـــة مستوحاة من القرآن الكريم. كما صوّر الرّوح الجهاديّة العارمة التّي ملأت قلوب أولئـــك المجاهدين، ودفعتهم إلى الإقدام على الموت، وطلب الشهادة. لذلك جاء التعبيـــر الشّعرى زاخرا بالمعاني الإسلاميّة التّي تثير المشاعر، وتأسر الوجدان. والشّاعر لـــم يورد هذه المعاني إلاّ بوحي من الطّابع الإسلاميّ للصراع.

وقد ردّد ابن الأبّار في قصيدته كثيرا من التعابير الإسلاميّة المرتبطة بالحيـــاة الأخرى. مثل: ((دار السّلام)) و ((الحور)): —

منازلٌ إلى دار السّلام منـــازم — بها الحورُ، واهاً للمنادى المنــادِمِ

و ((جنات النّعيم)): —

تبوّأتَ جنّاتِ النّعيم ولم تـــزلْ — نزيلَ الثُّريّا قبلَها والنّعائـــمِ

و ((الفردوس)): —

وحمتَ على الفردوس حتّى وردتَـــه — ففزتَ بأشتاتِ المُنَى ذوزَ غانـــمِ (٢)

وقد ناقش الشعراء المسلمون الصليبيين في عقيدتهم، ونعتوها بصفات مستوحـــاة ممّا ورد في القرآن الكريم عنها. مثل: — الشرك، والكفر، والضلال ... (٣)

وبعد، فقد قدّم الشّعراء الصّراع الذّي احتدم بين الموحّدين والصليبيين فـــي إطاره الإسلاميّ الشامل: — باعتباره صراعا بين المسلمين عامّة وغزاة الدّيار الإسلاميّة. فقد نظر الشّعراء إلى هؤلاء الغزاة على أنّهم قوم مختلفون في العقيدة، ويقاتلـــون المسلمين تحت لواء تلك العقيدة، واعتبروا أيّ انتصار يحرزه المسلمون على أولئك الغزاة انتصارا للإسلام، وأيّ هزيمة تلحق الصليبيين هزيمة للكفر عامّة. ومن ثمّ فقد رأى الشعراء

---

١ — قرئت في المرقبة العليا ((واغتدوا)).
٢ — المرقبة العليا: ص ١٢٠ — ١٢٢، الذيل والتكملة: ج ٤ ص ٩٠ — ٩٥.
٣ — حتّى لا يكون في الحديث تكرار، فإنّ الدارس لم يتحدّث عن عقيدة الصليبيـــين في هذا الموضع، وانّما أرجأ ذلك إلى فصل تال.

أنّ جهاد الموحّدين للصليبيين في الأندلس متمّم لجهاد الفاتحين الأوّلين لهـــا . كما اعتبروا جهود المغرب في نضال الصليبيين امتدادا للجهود التي بذلها العرب الأوّلون لنصرة الإسلام، وموازرة سيدنا محمد عليه السلام.

وقد كان مصير الإسلام في الأندلس محور تفكير الشعراء ، وخاصّة في السنـــوات الأخيرة للدولة الموحّدية ، وهي السنوات التي اشتدّت فيها وطأة العدوان الصليبـــي . وقد بدأ ذلك واضحا في قصيدة ابن سهل .

لذلك فقد غمرت المشاعر الإسلاميّة شعر الجهاد ، فما من قصيدة قيلت ، وطالما هاالدّارس، إلاّ كانت العقيدة الإسلاميّة توجّه مشاعر قائلها ، بحيث باتت تلك القصائـــد تمثّل روح الصّراع.

وإذ يضع الشّعراء الصّراع في إطاره الإسلاميّ الشامل ، فإنّهم يخرجونه من الدّائرة الإقليميّة الضيّقة ، أو العنصرية البغيضة . وهم بذلك لم يكونوا أمناء على التاريـــخ فحسب ، وإنّما يحافظون على المشاعر الإسلاميّة الموحّدة ، وبالتالي يستقطبون أكبر قـــدر من المسلمين على درب الجهاد[1]. وتتجلى أهمية ذلك في دولة مثل الدولة الموحّديـــة : اتّسمت رقعتها ، وتعدّدت عناصر سكّانهـــا .

---

١ — صدى الغزو الصليبي : ص ١٤٠ .

ب) العروبة في شعر الجهاد :ـ

من الأمور التّي تركت لمسات واضحة في شعر الجهاد ، الدور الذى اضطلعت به القبائل العربيّة ، التّي تقطن افريقية ، في جهاد الصليبيين في الأندلس على عهد الموحّدين .

وقد دخل قسم من أولئك العرب إفريقية مع حركة الفتوح الاسلاميّة الأولى ، واستقرّوا هناك (١) . إلاّ أنّ القسم الأكبر منهم كان من العرب الذين استوطنوا مصر ، ثمّ نقلهم الفاطميون في القرن الخامس إلى إفريقية (٢). وتضّم هذه القبائل شعوبا من بني هِلال (٣) ، وبني سُلَيم ، وعرب المَعْقِل (٤).

ولمّا فتح الموحّدون إفريقية ، قدم إلى الخليفة عبد المؤمن أمراء تلك القبائل ، فتلقّاهم بالمبرة ، وأحسن اليهم . إلاّ أنّ العرب الهلاليين شغّبوا على الموحّدين ، وتحدّوهم ، فلقيتهم جيوش الخلافة في سَطيف (٥) . وقد هزمهم الموحّدون في هذه الموقعة هزيمة نكراء . وفي إثر هذه الهزيمة ، راجع الهلاليّون بصائرهم ، واستكانوا لعزّ الموحّدين ، ووفدوا على الخليفة عبد المؤمن في مرّاكش ، فأكرم زعماءهم ، وأطلق أسراهم ، وردّ سباياهم (٦).

وما كادت الجيوش الموحّديّة تقضي على تشغيب بني هلال ، حتّى بلغ عبد المؤمن أنّ بني سليم قد قاموا في قابس (٧) ، فخاطبهم بشعر من قول ابن عمران ، ثمّ كتب لهم شعرا آخر من قول ابن طفيل يستدعيهم ، ويحثّهم على الهدوء والسكينة . إلاّ أنّهم لم يستجيبوا له ، فجرّد الموحّدون لهم جيشا استطاع أن يهزمهم (٨).

---

١ — انظر : فتوح افريقية : ج ١ ص ١٣٥ .

٢ — انظر : تاريخ ابن خلدون : ج ٦ ص ٢٨ .

٣ — هم بنو هلال بن عامر بن صَعْصَعَة ، من قبائل مضر . كانت منازلهم في نجد . جمهرة أنساب العرب : ص ٢٧٣ ، تاريخ ابن خلدون : ج ٦ ص ٣٧ .

٤ — قبائل المغرب : ج ٢ ص ٤١٢ .

٥ — مدينة حصينة في افريقية . وهي قديمة أزليّة كثيرة الخلق . الرّوض المعطار : مادّة سطيف ، ص ٣١٨ .

٦ — تاريخ ابن خلدون : ج ٦ ص ٤٤ ، الحلل السندسيّة في الأخبار التونسيّة : ج ١ ق ١ ص ٤٧٨ .

٧ — من بلاد إفريقية ، بينها وبين القيروان أربع مراحل . الرّوض المعطار : مادّة قابس ، ص ٤٥٠ .

٨ — البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٩ .

كذلك عادت القبائل الهلاليّة بقيادة بني رياح [١] إلى التشغيب، فسرّح لهم عبد المؤمن جيشا نازلهم قرب القيروان [٢]، وأوقع بهم، وقتل شيخهم [٣].

أمر الخليفة عبد المؤمن مرّة أخرى — بعدم المساس بالغنائم التّي أخذت من العرب الهلاليّة، وحراستها بحين الشّرف والنبل. وحين أقبلت عليه وفودهم أكرم مثواهم، وأحسن إليهم، وردّ أشياءهم كاملة غير منقوصة [٤].

استطاع عبد المؤمن بهذا الصنيع المتكرّر أن يستميل العرب إليه، ويسلس قيادهم. ولم يعد من حركته إلى إفريقية إلاّ وهو يجرّ وراءه حشودا ضخمة من العرب [٥].

رأى الخلفاء الموحّدون الّذين جاءوا بعد عبد المؤمن أن سياسة لين الجانب هي خير وسيلة يمكن استمالة القبائل العربيّة بها. لذلك فقد أجزلوا لها ولشيوخها العطاء — ويحدّثنا ابن صاحب الصلاة — وهو مؤرّخ معاصر للموحّدين — عن مآدب الطعام الضخمة التّي كانت تقام لهم، والأعطيات الجزيلة التّي كانوا يختصّونهم بها، والكسوات العجيبة التّي كانوا يسدلونها عليهم [٦].

ويبدو أنّ رغبة أكيدة في الاستفادة من قوّة القبائل العربيّة لجهاد العدوّ الصليبي في الأندلس كانت عند الموحّدين. وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك بقوله: — ((ولم يزل الموحّدون يستنفرونهم في جهادهم في الأندلس وربّما بعثوا إليهم في ذلك المخاطبات الشعريّة)) [٧]. فعندما أراد الخليفة عبد المؤمن العبور إلى الأندلس استنفر القبائل الهلاليّة [٨]. كذلك فقد استدعى الخليفة يوسف العرب، وحرّضهم على الجهاد بكتاب بعثه إليهم [٩]. وقد تكرر هذا الأمر منه [١٠].

---

١ — من القبائل العربيّة التّي زحفت إلى إفريقية، الاستقصا: ج ٢ ص ١٥١.

٢ — القيروان: — مدينة بإفريقية، مُصّرت في الإسلام زمن معاوية بن أبي سفيان. تقويم البلدان: ص ١٤٥.

٣ — رحلة التّجاني: ص ٣٤١، رسائل موحّدية: ص ١١٣.

٤ — أخبار المهدي: ص ١١٧.

٥ — المنّ: ج ٢ ص ١٤٤.

٦ — انظر: المنّ: ج ٢ ص ٣٩٨ وص ٤٢٢ وص ٤٣٧، البيان المغرب: ج ٣ ص ١٣٨.

٧ — تاريخ ابن خلدون: ج ٦ ص ٤٤.

٨ — المعجب: ص ٢٦٣.

٩ — البيان المغرب: ج ٣ ص ٨٨.

١٠ — انظر: المنّ: ج ٢ ص ٤١١ — ٤١٦.

كثيرا ما كانت القبائل العربيّة تلبّي النداء، يدفعها إلى ذلك العقيدة الإسلاميّة، والإيمان بالجهاد وسيلة للدّفاع عن حرمة الدّين الحنيف. فعندما جاز عبد المؤمن إلى الأندلس سنة ٥٥٥ هـ عبرت معه حشود ضخمة من العرب(١).
وقد وصلت إلى الخليفة يوسف جموع وفيرة منهم، وقد كان يوم قدومهم مشهودا (٢).
أمّا الخليفة النّاصر، فقد وصل إليه من العرب ((أمم لا يعلمهم إلاّ الله ولا يحصيهم، وجاءوا كأمواج البحر في جيوش لا يطلّ على مصباحها السّاري)) (٣).

شكّل مقاومة هذه القبائل فئة هامّة في الجيش الموحّدي. وقد أبلت هذه الفئة في جهاد الأعداء، والدّفاع عن الإسلام بلاء حسنا. ظهر ذلك في مرحلة مبكّرة من تاريخ الدّولة الموحّدية، حيث اشترك بعض فرسان القبائل العربيّة في فتح مدينة المهديّة سنة ٥٥٥هـ(٤).

كان المتطوّعين من أبناء القبائل العربيّة يجوزون إلى الأندلس لتأدية فرض الجهاد كلّما دعت الحاجة إلى ذلك. ففي عام ٥٦٠ هـ، تحرّك السيّد أبو حفص إلى الأندلس على رأس جيش، وصحبه في هذه الحركة جملة وافرة من العرب ليتقدم بهم إلى إشبيلية وقرطبة لحماية ثغورهما (٥).

وقد توجّهت فئة من هؤلاء العرب إلى بطليوس، وانتصرت على حامية المدينة. كما توجّهت مجموعة نحو غرناطة، ومجموعة لمقاتلة ابن مردنيش(٦).

وفي سنة ٥٦١ هـ وجّه الخليفة يوسف جيشا من العرب إلى اشبيلية (٧)، ووجّه سنة ٥٦٣ هـ جيشا آخر الى قرطبة (٨). وفي سنة ٥٦٥ هـ اشترك جند من العرب في التوجّه نحو بطليوس (٩). وفي السنة التالية اشترك جند من العرب في فتح

---

١ - المنّ : ج ٢ ص ١٤٤.
٢ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٩٢، المنّ : ج ٢ ص ٤١٧، الاستقصا : ج ٢ ص ١٤٩.
٣ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٢٢٨.
٤ - الاستقصا : ج ٢ ص ١٢٧.
٥ - المنّ : ج ٢ ص ٢٥٠.
٦ - المنّ : ج ٢ ص ٢٦٩، وعن ابن مردنيش انظر الإحاطة : ج ٢ ص ١٢١-١٢٧.
٧ - المنّ : ج ٢ ص ٢٩٤.
٨ - المنّ : ج ٢ ص ٣٥٥.
٩ - المنّ : ص ٤٠٠، البيان المغرب : ج ٣ ص ٧٦.

بسطة(١) * كما أبلى الجند العرب في معركة وبذة(٢).

كذلك اشتركت الكتائب من أبناء القبائل العربية في جهاد الصليبيين مع الخليفة المنصور(٣). وقد أوضحت رسالة الفتح التي أرسلت بمناسبة فتح حصن ((شَلْبطرّة)) (٤) سنة ٦٠٨ هـ، أن العرب أول من هاجم الصليبيين، وقتلوا منهم أربعمائة فارس(٥).

هذه بعض الأمثلة التي تشير إلى اشتراك العرب المسلمين الذين يقطنون إفريقية في الدفاع عن الإسلام في الأندلس زمن الموحدين. وقد كان لهذا الدور أصداء واضحة في شعر الجهاد.

فقد توالت قصائد الاستنفار على هذه القبائل تدعوها إلى الإسراع في التوجه إلى الأندلس لمجاهدة الصليبيين، وإعلاء كلمة الله. وقد بذل الشعراء وسعهم في ذلك. فقد أشادوا بمواقف هذه القبائل من الإسلام وحمل لوائه منذ البداية، وبصّروهم بالخطر المحدق بالدين الحنيف، وحمّلوهم مسؤولية الاشتراك في الدفاع عنه. كما أشادوا بشرف أرومتهم، ومضاء عزيمتهم، ونجدتهم، وكفايتهم في الحروب، وشجاعتهم.

وكان الخليفة يوسف بن عبد المؤمن من أبرز الخلفاء الموحدين الذين لجأوا إلى سياسة استنفار العرب واستدعائهم من افريقية. ففي سنة ٥٦٦ هـ، وجّه قصيدة من إنشاء ابن طفيل الى بني هلال يستدعيهم ويحرّضهم على الجهاد، حيث قال :—

ألا فابعثوها همّةً عربيّةً ... تحفّ بأطراف القنا والقواضب

أفرسانَ قيس من هلال بن عامر ... وما جمعت من طاعن وُمضارب

لكم قبّة للمجد شدّوا عمادها ... بطاعة أمر الله من كلّ جانب

وما خُلقُ الأعراب إخلاف موعد * ... ولكنّ صدق الوعد خُلق الأعارب

---

١ — المنّ : ج ٢ ص ٤٠٥ .

* — بَسْطة : — مدينة بالأندلس، من قرى وادي آش، حسنة الموضع . الروض المعطار : مادّة بسطة ص ١١٣ .

٢ — المنّ : ج ٢ ص ٤١١ .

٣ — البيان المغرب : ج ٣ ص ١٨٨ .

٤ — شلبطرّة : حصن من عمل قلعة رباح . الروض المعطار : مادّة شلبطرّة ص ٣٤٤ — ٣٤٥ .

٥ — البيان المغرب : ج ٣ ص ٢٣١ .

قال الشاعر يناشد بني هلال ، ويحثهم على الجهاد . وهو في ذلك يستثير النخوة والحمية في نفوسهم ، فيشيد بعلو همتهم ، وشجاعة فرسانهم ، ويذكرهم بأمجادهم القديمة ، ويدعوهم إلى المحافظة عليها بطاعة أمر الله في جهاد الأعداء . ويصفهم بالوفاء بالوعد ، والمحافظة عليه .

وإذ انكبّ الشاعر في الأبيات السابقة على مخاطبة المشاعر العربية الأصيلة لدى تلك القبائل ، فإنه في الأبيات التالية يركّز على استثارة المشاعر الاسلامية التي تعمقت نفوسها . وهنا تقترن العروبة بالاسلام اقترانا رائعا ، حتى أن المرء لا يستطيع الفصل ما بين استثارة المشاعر الدينية أو الحمية العربية . حيث اتكأ الشاعر في استثارته على استيحاء التاريخ الأول لهذه القبائل التي أبلت في حمل الرسالة ونشرها ، وذكّرها بالروابط المتينة التي تربطها بالاسلام ، وتربط الاسلام بها . يقول :—

وقوموا لنصر الدين قومة ثائرٍ ... وفيئوا إلى التحقيق فيئة راغبِ

فقوموا بما قامت أوائلُكم ... ولا تُغفلوا إحياءَ تلك المناقبِ

وقد جعل اللهُ النبيَّ وآلَه ... وسهديه منكم بلا عيب عائبِ

هو الأمرُ أمر الله منجٍ وسعدُه ... لكل منيبٍ ناصح الجيب تائبِ (1)

وقد نحا ابن عياش نحو ابن طفيل في أبياته التالية ، التي أخذت من قصيدة بعثها الى العرب يستدعيهم ويستنفرهم :—

وقوموا لنصر الدين قومةَ ثائرٍ ... وشدّوا على الأعداء شدّةَ صائلِ

وأشروا بني قيسٍ إلى نيل غايةٍ ... من المجد تُجنى عند برد الأصائلِ

فما العزُّ إلا ظهرُ أجردَ سابحٍ ... تموتُ (2) الدنيا في شدّه المتواصلِ

وأبيضَ مأثورٍ كأن فرنده ... على الماء محبوكٌ (3) وليس بسائلِ

بني العمّ من عليا هلال بن عامرٍ ... وما جَمَعَتْ من باسلٍ وابن باسلِ

تعالوا فقد شُدَّتْ إلى الغزو نيةٌ ... عواقبها مقصورة (4) بالأوائلِ

---

١ — المنّ : ج ٢ ص ٢ (٤١٢ — ٤١٣) ، وانظر القصيدة في مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية ، مدريد ، مجلد ٣ ، سنة ١٩٥٣ ، ص ٣٠ — ٣٢ .
٢ — قرئت في المعجب ((تفوت)) .
٣ — قرئت في المعجب ((منسوج)) .
٤ — قرئت في المعجب ((منسورة)) .

الحمية العربية

*

فطيروا إليها يا هلال بن عامر ثقالاً خفافا بين حافٍ وناعـــــل (١)

فالشاعر يدعو العرب إلى نصرة الدين الحنيف والدفاع عنه . وقد قدم بين يدي دعوته أساليب استثارة مستوحاة من القيم العربية، حيث زين لهم النتائج التي يحققونها من الغزو،فهو يحقق لهم المجد الحربي الذي يفخرون به، ويطمعون إليه. كما أشاد بأصالة نسبهم، وشجاعة فرسانهم، وذكرهم بصلة القرابة التي تربط الموحدين بهم. وقد كان الشاعر لبقا في هذه الناحية، حيث خاطب العرب بقوله :—
((بني العم)) . فلهذا التعبير في هذا الجو نداوة رغبة تمس القلوب، وروح رضى يلمس النفوس.

ومن تلك الأشعار التي خاطب بها الشعراء قبائل العرب في افريقية، قصيدة أبي العباس الجراوى التي قالها مادحا وفود بن هلال التي وفدت إلى الحضرة الموحدية . ويمضي قسم كبير من القصيدة في الإشادة بأمجاد تلك القبيلة، وأصالة نسبها ، وكرم أجدادها ، وشجاعتهم وثقلهم السياسي ومكانتهم، وحكمتهم، وفصاحتهم . يقول :—

أحاطت بغايات العلا والمفاخر	على قدم الدنيا هلالُ بنُ عامـــر
وزانوا سماء المجد بدءا وعودة	بزهر خصالٍ كالنجوم الزواهـــر
أوائلهم في الجود والبأس غايـة	وكم تركوا من غايةٍ للأواخــــر
وكم فيهمُ من مثل كعبٍ وحاتـم	وكم فيهم من مثل عمرو وعامـــر
وكم قدْ أقامُوا من عُروشٍ موائـل	وكم قدْ أقالُوا منْ جُدودٍ عواثـر
وكم لهمْ من حكمة تبهرُ النـدى	ومن مَثلٍ في الشرقِ والغربِ سائـر

ويمضي قسم آخر من القصيدة على هذا النحو، فيشيد الشاعر بالأبنـاء، ويحافظتهم على أمجاد الآباء ومفاخرهم، مركزاً إشادته على شجاعتهم، وقوتهـم، وتمرسهم بفنون القتال، ومهارتهم .

---

١ — المن : ج ٢ ص ٤١٥ — ٤١٧ . وقد نسب بعض المؤرخين إلى عبد المؤمن، وتبعهم في ذلك بعض الباحثين المحدثين . انظر :— المعجب: ص ٢٦٤ — ٢٦٥، الحلل الموشية : ص ١٣١، النبوغ المغربي : ج ٢ ص ٢٦٦، العلوم والفنون والآداب على عهد الموحدين : ص ١٥١ .

وفي ظلّ هذه الإشادة المستمرّة ، يتوجّه أبو العبّاس الجرّاوي بدعوة بني هلال الى الالتحاق بالجيوش الموحّدية المجاهدة ، وهو في ذلك ما يزال يستثير هذه القبيلة ، فيصف أبناءها بالعزم ، والتصميم ، ورجاحة العقل :—

بني عامرٍ أنتمْ صميمٌ فصمّموا ... إلى الموت تصميمَ اللّيوث الخوادرِ

ولا تتوانَوا في مَواطن نفوسِكُمْ ... فإنّكمْ أهلُ النُّهى والبَصائرِ

والشّاعر لا يدعو هؤلاء العرب من أجل مطمع شخصيّ ، أو غاية ذاتية ، وإنّما يدعوهم إلى جهاد الكفرة :—

ولا بدّ من يومٍ على الكفر أيْشَومٍ ... تعمّ به الدنيا وفودُ البشائرِ(١)

وعندما خرج قراقوش[٢] الأرمنّي على طاعة الدولة الموحّدية ، وقام بالأمر في إفريقية[٣] ، بعث الخليفة المنصور الأبيات التالية الى قبيلة سُليم العربية ، يحثّها على نبذ طاعة هذا الرّجل الوافد الغريب وإخلاص النيّة في طاعة الموحّدين ،
يقول :—

يا أيّها الرّاكبُ المزجي مطيّتَه(٤) ... على عذافرةٍ تشقى بها الأكَمُ(٥)

بلّغْ سُلَيْماً على بعدِ الدّيار(٦) بها ... بيني وبينكم الرّحمن والرّحمُ

يا قومَنا لا تشبّوا الحربَ إنْ خمدَتْ ... واستمسِكوا بعُرى الإيمان واعتصِمُوا

كم جرّبَ الحربَ من قد كان قبلكُمُ ... من القرونِ فبادَتْ دونَها الأمَمُ

حاشا الأعاربَ أنْ ترضَى بمنقصةٍ ... ياليتَ شِعري هلْ ترضَوْنَ أمْ رضيتُمُ

يقودُهمْ أرمنيّ لا خلاقَ لَهُ ... كأنّه فيهمُ من جهلِه(٧) علَمُ

اللّهُ يعلمُ أنّي ما دعوتُكُمُ ... دعاءَ ذي تِرَة(٨) يوماً فينتقِمُ

---

١ — شاعر الخلافة الموحّدية : الملحق ، ص٤٥ .

٢ — أحد مماليك صلاح الدّين بن أيّوب ، ظهر في المغرب على عهد المنصور ، واستولى على طرابلس وقابس ، عظم أمره وتبعه كثير من العرب ، مخطوط الوافي بالوفيات : ج ٢٦ ورقة ٥٥ .

٣ — السّلوك لمعرفة دول الملوك : ج ١ ق ١ ص ٦٠ وص ١٦٤ .

٤ — قرئت في الحلل السندسية ((السّاري لطيّته)) .

٥ — قرئت في الحلل السندسيّة ((يشقى بها الألم)) ، وفي الوافي بالوفيات ((يشقى)) .

٦ — قرئت في الحلل السندسيّة ((المزار)) .

٧ — قرئت في نفح الطّيب ((كأنّه بينهم من جهلهم علم)) .

٨ — قرئت في نفح الطيب ((دعاء قوّة)) .

ولا لجأتُ لأمرٍ يُستعانُ بــهِ — من الأمورِ وهذا الخَلْقُ (١) قد علموا

لكنْ لأجزي رسولَ اللّه عن نسبٍ — يُنْمَى (٢) إليهِ وتُرعى تلكمُ الذِّمـــمُ

فإن أتيتمْ فحبلُ اللّهِ متّصـــلٌ — وإن أبيتمْ فحدّ السّيفِ يحتكـمُ (٣)

ويركّز الشّاعر في الأبيات السابقة على استثارة مشاعر قبيلة سليم العربيّة ، لعلّها تخلد إلى الهدوء والسكينة ، وتكفّ عن مناصرة قراقوش ، وقد ألقى الشّاعــر أبياته مصحوبة بمؤثرات متنوّعة ذات تأثير في القلب ، فذكّر بروابط العقيدة والرّحــم التي تربط الموحّدين بهذه القبيلة ، ونفّر من الحرب وويلاتها ، مشيرا إلى عزّة العــرب الذين يأنفون من الذلّ ، ويرفضون أن يقودهم رجل أرمنيّ بصفات قراقوش ، معلنا أنّه غير طامع بهم ، وإنّما يريد أن يحافظ على شرفهم ، وعزّتهم ، ونسبهم المتّصل بالرّســول الكريم . ومع ذلك فان الأبيات لم تخل من تهديد لهذه القبيلة .

وتصوّر الأبيات سياسة الموحّدين تجاه العرب الذّين يقطنون افريقية . فهــم يبذلون وسعهم في استمالتهم حتّى يخلصوا الطّاعة لهم ، ويكسبوهم جندا مجاهدين في الأندلس . لذلك أوصى الخليفة المنصور الذي قال الأبيات ((بمداراة العــرب وملاطفتهم والإحسان اليهم)) (٤).

كان لهذه المخاطبات المتوالية فعل السّحر في نفوس أبناء القبائل العربيّة . فقد لبّوا النداء ، والتحقوا بالجيوش الإسلاميّة المجاهدة في الأندلس ، وأبلوا فــي قتال الأعداء .

أشاد الشّعراء بالدّور الذّي اضطلع به العرب في جهاد الكفرة . فتحدّثوا عن قوّة فرسانهم ، وشجاعة أبنائهم ، وبسالة جندهم في الدّفاع عن الاسلام وحمايته . والشّعراء في ذلك يصدرون عن روح اسلاميّة عميقة .

فهذا الخليفة عبد المؤمن ، يمدّ أهل الأندلس بغزوة كبرى تشفي صـــدور المؤمنين ، جهّز لها جيشا ضخما من العرب المتمرّسين بفنون القتال . يقول :-

---

١ — قرئت في الحلل السندسية ((وأهل الخلق)) .

٢ — قرئت في الحلل السندسية ((تنمى)) .

٣ — انظر : — نفح الطيّب : ج ٣ ص ٢٠٢ ، الحلل السندسيّة في الأخبــــار التونسية : — ج ١ ق ٢ ص ٣٦١ ، مخطوط الوافي بالوفيات : ج ٢٦ ورقة ٥٥٥

٤ — البيان المغرب : ج ٣ ص ٢٠٨ .

ولا بدّ من يومٍ أغرّ محجّـــلٍ ... يسيلُ دماءُ الكفرِ في كلّ مذنبٍ
وتشفَى صدورُ المؤمنين بغزوةٍ ... تكونُ على حكم الحسام المـــدرّبِ
ويغزو بلاد الرّوم جيشٌ عرمـرمٌ ... تخيّر(١) من قيسٍ وأبناء يعـــرُبِ(٢)

وعندما جاز الخليفة عبد المؤمن إلى الأندلس سنة ٥٥٥هـ ، عبرت معه حشود ضخمة من العرب لجهاد الصليبيين . وقد بشّر شاعر مجهول أهل الأندلس بقدوم هؤلاء العرب الذين سيغزون الكفر ويفتكون به . يقول :—

نبشّركم أنّا اهتممنا بأمركـــمْ ... فلهتكمُ منّا المكرّمةُ الجـــرْدُ
ويصحبُنا من خالص العرب معشرٌ ... أنابوا فما ردّوا ، وتابوا فما ارتدّوا

*

ستغزو بلادَ الرّوم منهم عصائبٌ ... وتحمي حمى التوحيدِ من خيلهم جُنْدُ

*

جيوشٌ بنصرِ اللهِ تهمي عليكمُ ... يروقُ بها وعدٌ ويزهى بها نجـــدُ
ويشجَى بمرآها الأعادي كأنّمـا ... عليكم بها صمّ الشوامخ تنهـــدُّ
ستعلم أرضُ الرّوم أيّ فـــوارسٍ ... على ظهرها منهم إذا وفد الوفْدُ(٣)

ونلمح من الأبيات تطوّع كثير من العرب للجهاد في الأندلس ، وقد أوحى ذلك الى الشاعر بالاشادة بهم على هذا النحو . وفي إشادة أظهر فيها أنّ العروبة والإسلام من نسيج واحد . فالحرب التي سيخوضها هؤلاء العرب ليست حرب أوطان ولا حرب أجناس ، وإنّما هي حرب اسلاميّة شاملة .

وفي هذا المعنى قال الأصمّ المرواني قصيدة في المناسبة السابقة :—

حدّثْ عن الرّوم في أقطار أندلسٍ ... والبحرُ قد ملأ العبرين بالعَـــربِ
من كلّ من يتركُ الهيجاءَ في حلله ... جمرٍ إذا اخضرّتِ الغبراءُ بالعُشُبِ
مقلّب بين مشتاةٍ ومهاجـــــرةٍ ... تقلُّبَ السّيفِ بينَ الماءِ واللّهـــبِ
يرمي بهم ظهر طرفٍ بطنَ سابحة ... فالبّر في شُغُلٍ والبحرُ في صَخَـــبِ

---

١ — قرئت في البيان المغرب ((بخيل)) .
٢ — انظر : المنّ : ج ٢ ص ١٢٥ ، البيان المغرب : ج ٣ ص ٤١ .
٣ — المنّ : ج ٢ ص ١٣٣—١٣٤ .

وَتعبر الماءَ منهم نارُ عاديـة   يَصْلى بها عابدُ الأوثانِ والصلبِ (١)

والأبيات فيها إشادة قويّة بالعرب الّذين جازوا إلى الأندلس، وقد كان الشّاعر صريحا في تحديد الهدف الّذي جازوا من أجله، ألا وهو جهاد ((عابد الأوثان والصلب)) .

وقد أبلى الفرسان العرب في فحص بلقون (٢) بلاء حسنا ، ممّا دفع أبا العبّاس الجراوي إلى الاشادة بهم قائلا :—

أتممتَ ما قد أمّلوه فغاتَهم   من نصر دين الواحد القهّار

بعراب خيل فوقهن أعاربٌ   من كلّ مقتحمٍ على الأخطار

أكرمْ بهنّ قبائلاً أقلالها   في الحرب يُغنيها عن الإكثار

هُم أظهروه مع النبيّ وواجب *   أنْ يتبعوا الإظهارَ بالإظهار (٣)

ويصوّر الشّاعر في هذه الأبيات الوشائج القويّة الّتي تربط العروبة بالإسلام . فهو إذ يشيد بالدور الّذي اضطلع به العرب في جهاد الصليبيين في الأندلس، فإنّه يعدّ ذلك استمرارا لما بذله آباؤهم وأجدادهم في حمل الرسالة الإسلاميّة ونشرها ، ويدعوهم إلى مواصلة الدّفاع عن الدين الحنيف، والانتصار له ، لأن ذلك فرض عليهم كما كان فرضا على الّذين خلوا من قبلهم .

وفي سنة ٥٦٠ هـ عبرت إلى الأندلس حشود ضخمة من العرب بصحبة السيّد أبي حفص (٤) . وقد أشار أبو عمر بن حربون إلى ضخامة هذه الحشود في قصيدة قالها ، منها :—

جمعتمْ من بني قيس شعوباً   تسيل بها المَعاني والشّعابُ

تجانسَ جيشُهم لفظاً ومعنىً   فهمْ ذُرَبٌ ، وخيلُهمُ عِرابُ (٥)

وربّما أوحى اشتراك العرب في المعارك ضدّ الصليبيين ، وحسن بلائهم فيها ، وما ترتّب على ذلك من إشادة بهم ، تعتمد على استيحاء تاريخهم الإسلاميّ الأوّل ، ربّما أوحى ذلك إلى الشعراء أن ينعتوا الصليبيين بـ ((العجم)) ، ويعمّموا وصف ((العرب)) على جميع المسلمين . وهنا تمتزج العروبة بالإسلام امتزاجا

---

١ — المنّ : ج ٢ ص ١٦٠ .
٢ — لم نستطع تحقيق المكان ، وربّما كان اسما آخر لفحص مرسية الّذي تطلق عليه المصادر ((حامة بلقوار)) . انظر : المنّ : ج ٢ ص ٢٧٣ .
٣ — البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٦—٤٧ .
٤ — المنّ : ج ٢ ص ٢٥٥ .
٥ — المنّ : ج ٢ ص ٢٦٣ .

عجيبا ، حتى ليخيل إلى المرء أنه ليس ثمة فارق بين دافع ديني إلى الجهاد ، أوحمية عربية تحفز على القتال . ولعل مكانة العرب في التاريخ الإسلامي ، وارتباطهم بالحياة الأولى للإسلام ، قد جعل للعروبة أكثر من مجرد معنى عرقي ، بل أصبحت هي والاسلام من ((مادة)) واحدة .

فهذا ابن حريون يهدد ((العجم)) ب ((العرب)) المسلمين ، الذين سيدلفون اليهم على صوات خيولهم الأصيلة :—

ويشر العجمَ أنّ العربَ قد دلَفتْ   على الجراب ، وأنّ الملتقى صددُ (١)

كما أشار الشاعر نفسه الى أنفة العرب المسلمين من الخضوع للأعاجم الصليبيين في فتح بطليوس :—

فسَعدَك مولانا سَعدنا ، ولم تكنْ   لتعمد يذي العربُ تلكَ الأعاجما (٢)

وكان للعرب القادمين من إفريقية دور محمود في معركة السبطاط . وقد أشاد أبو عمر الأشيرى بهذا الدور ، حيث تحدث عن شجاعة الفرسان العرب المسلمين ، وعنف فتكهم بالأعاجم الصليبيين ، وإمتانتهم لهم :—

جيشٌ من العربِ الذينَ إذا غزَوا   كَوَوا الأعاجمَ في الطُّلا بعِلاطِ *

قومٌ إذا شَمخَ الزّمانُ بأنفــــه   وَضَعُوا السّيوفَ مواضعَ الأستواطِ (٣)

وعندما سقطت بلنسية ، وجّه شاعر مجهول قصيدة إلى صاحب إفريقية ، يحثه على توجيه العرب الى الأندلس ، وارسالهم لاغاثة أهلها . يقول :—

مولايَ ، هاكَ معادةَ أنبائهــا   لتنيلَ منك سعادة أبنائهــا

إنّ الأعاجمَ للأعارب نهبــةٌ *   مهما أمرتَ بغزوها أحيائهــا

تاللهِ لو دبّت لها دبّابها (٤)   لطوتْ عليها أرضَها وسمائهــا

ولو استقلّتْ عوفُها (٥) لقتالهــا   لاستقبلتْ بالمقرباتِ عفائهــا

أرسلْ جوانحَها تجئكَ بصيدها   صيداً ، ونادِ لطحنها أرحائهــا

---

١ — المن : ج ٢ ص ٢٥٥ .
٢ — المن : ج ٢ ص ٣٨٥ .
* — العلاط : الوسم . لسان العرب : مادة علط .
٣ — زاد المسافر : ص ١٠١
٤ — دبّاب : من شعوب بني سليم . تاريخ ابن خلدون : ج ٦ ص ٦٣٤ .
٥ — عوف : هم بنو عوف بن بهثة بن سليم . مواطنهم من وادي قابس الى أرض بونة . تاريخ ابن خلدون : ج ٦ ص ١٤٤ .

*

أولوا الجزيرة نسرةً إنّ العِدا تبغي على أقطارها استيلاءَهـا

نقضتْ بأهل الشّرك من أطرافها فاستحفظوا بالمسلمين نماءَهـا (١)

ولم يسلخ الشّاعر في الأبيات السّابقة العروبة عن رسالتها الكبرى ، وإنّمـا هي في سبيل الدّفاع عن تلك الرسالة ، وحمل لوائها . فهو يبصّر الأمير الحفصيّ بقوّة بعض القبائل العربيّة ، ويدعوه إلى استقطاب طاقاتها ، وحشد امكاناتهـا ، لجهاد ((أهل الشرك)) في الأندلس . والشّاعر لم يذكر قبائل العرب خاصة ، إلاّ لإيمانه القويّ بالوشائج المتينة الّتي تربطهم بالإسلام ، وتحفزهم على تلبية النـداء ، والاستماتة في الدّفاع عن الدّين الحنيف .

وعندما أوشكت اشبيلية على السقوط ، بعث ابن سهل الأندلسيّ قصيدة إلـى عرب المعقل ، يستنفرهم ، ويحثّهم على الجهاد . وممّا قاله فيها :—

يا معشرَ العرب الّذين توارثوا شيمَ الحميّة أكبرا عن أكبـر

*

لكم صرائم لو ركبتم بعضهـا أغنتكمُ عن كلّ طرف مضمّـر

ولو انكم جهّزتمُ عزماتكـم لهزمتمُ منها الحدّ و بعسكـر

*

أينَ الحفائظ ما لها لا تنبعث؟ أينَ العزائم ما لها لا تنبري ؟

أيهزّ منكم فارسٌ في كفّـه سيفاً ، ودين محمد لم ينصـر ؟ !

*

جُدّوا وَنمّوا بالجهاد أجوركم ما خابَ قصد مشمّر وشمّـر

*

لو صوّرَ الإسلام شخصاً جاءكم عمدا بنفس الوامق المتحيّـر

لو أنّه نادى لنصر نفسكـم ودعاكم : يا أُسرتي يا مَعْشَري (٢)

وتثير الأبيات المشاعر الاسلاميّة والحميّة العربيّة معا . فإذ يحثّ الشّاعر العرب المسلمين على جهاد الأعداء ، فإنّه يلفتهم إلى تصوّر واقع الإسلام فـي الأندلس ، ويؤكّد لهم ارتباطهم بهذا الدين الّذي يهتف بهم مستنجدا ، ويحدّد لهم مسؤولياتهم تجاهه .

---

١ — نفح الطّيب : ج ١ ص ٤٨٠ — ٤٨١ .

٢ — ديوان ابن سهل : ص ١٤١ — ١٤٢ .

ويتخلل ذلك إشادة بقوة العرب، وشجاعتهم، وشهامتهم التي تأبى عليهم رؤية الخطر محدقا بالإسلام ، ولا يخرجون للدفاع عنه .

وهكذا أبرز الشعراء الدور الذي اضطلع به العرب في جهاد الصليبيين في الأندلس على عهد الموحدين . وقد كان هذا الدور واسعا إلى حد جعل الشعراء يتصورون الصراع بين عروبتهم، دون أن يخرجوه عن إطاره الإسلامي الشامل :- فيفصلوا العروبة عن الإسلام، أو يفصلوا الإسلام عن العروبة . ومن ثم فقد اعتبر الشعراء جهاد الصليبيين فرضا على العرب المسلمين، واعتبروا هذا الجهاد امتدادا لجهاد آبائهم وأجدادهم في نصرة الإسلام أيام الأولى . بل انهم ذهبوا في ذلك إلى حد اعتبر فيه الشعراء العرب أحق الناس في الدفاع عن الدين الحنيف .

والشعراء إذ يفعلون ذلك ينطلقون من أساس فكري متين، وهو إيمانهم العميق بالأواصر القائمة بين العروبة والإسلام، حتى بات كل منهما يمثل جزءا من حقيقة الآخر . فهم حين يتصورون هذا الدين ، لا يستطيعون نسيان العرب الذين آمنوا به ، وطوفوا أرجاء العالمين برسالته . وكذلك حين يتصورون العرب، لم ينسوا هذه الرسالة الخالدة التي خالطت نفوسهم، وأعلت شأنهم، وأنشأتهم خلقا آخر .

لذلك فقد برزت العروبة عنصرا واضحا في شعر الجهاد . فأشاد الشعراء بمواقف العرب في نصرة الدين ، والدفاع عنه ، وتحمل تبعاته . كما أشادوا بقوة أولئك العرب، وعزتهم ، وشجاعتهم، وشهامتهم . والشعراء في ذلك يصدرون عن روح إسلامية عميقة . ومن هنا لم يعثر الدارس على موقف واحد تحدث فيه الشعراء عن العروبة منفصلة عن الإسلام، وانما كانوا يقرنونها دائما بالدين الحنيف. وكانت الروح الإسلامية تسير جنبا إلى جنب مع الروح العربية، محتضنة إياها وموجهة لها .

الفصـــــــــل الثانـــي

شخصيّة البطـــل في شعـــر الجهـــاد :

أ) مفهوم البطولــــــــــة .
ب) دور البطل في الصّـــراع.
جـ) القيم والمثل العليا في شعر الجهاد .

أ) مفهوم البطولة :ـ

البطولة في اللغة : الغلبة على الأقران (١). وهي غلبة يرتفع بها البطل عمّن حوله من النّاس ارتفاعا يملأ نفوسهم له إجلالا وإكبارا (٢).

وقد عرف العرب قبل الإسلام البطولة . وهي عندهم بطولة إنسانيّة لا تتّصل بقوى خفيّة ، وتستند على مقوّمات ثلاثة :ـ حربيّ يقوم على الشجاعة والبسالة في القتال ، ونفسيّ يقوم على احتمال الشدائد والحلم والأنفة والعزّة ، وخلقي يقوم على صيانة الشرف ، وعلى الكرم والوفاء وحماية الجار . . . وبذلك تعانقت ((بطولة السيف مع بطولة النفس والخلق والطموح إلى المثل الرّفيعة)) (٣).

وعندما أضاءت الجزيرة العربيّة بنور ربّها ، لم يرفض الدّين الحنيف القيم الجاهليّة كلّها ، وإنّما رسّخ بعضها بعد أن هذبها ، وصقلها ، ووجّهها وجهة تخدم العقيدة ، وأمدّها بروحانية مضطرمة : فأضاف إليها ما أضاف ، وأبعد منها ما أبعد . وقد عبّر عن ذلك بصورة واضحة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام حيث قال :ـ ((بُعِثْتُ لأتمّمَ حسنَ الأخلاق)) (٤).

وقد ظلّت البطولة العربيّة الإسلاميّة تستمدّ مقوّماتها من تلك الروافد الثلاثة : الحربي ، والخلقي ، والنفسي .

---

١ ـ انظر : لسان العرب : مادّة ((بطل)) ، الفروسيّة : ص ١٣٠ .
٢ ـ البطولة في الشعر العربي : ص ٦ .
٣ ـ المصدر السابق : ص ٥ .
٤ ـ موطأ مالك : ج ٢ ص ٦٠٤ .

ب) دور البطل في الصّراع :-

ظهر في عصر الموحّدين عدد من القادة الّذين أبلوا في جهاد الأعداء، وتجسّدت فيهم الفضائل والمثل العليا المتعارف عليها في المجتمع الموحّدي . وإذا كان وجود القائد البطل أمرا لا بدّ منه في كلّ حرب، فإنّ الحاجة إليه تزداد في الحروب القديمة، ((لأنّ دوره إذ ذاك كان يتجاوز حدود التخطيط والتوجيه من بعيد إلى المشاركة الفعليّة في القتال، مع ما يترتّب على ذلك من اتّصال شخصيّ بجنوده، يحرّضهم على ما يستمتع من فضائل ومزايا، قائدا ومقاتلا))(١).

وأهمّ أبطال الصّراع الّذين تغنّى الشعر ببطولتهم في عهد الموحّدين هم :- الخليفة عبد المؤمن، والخليفة يوسف، والخليفة يعقوب المنصور . بالإضافة إلى البطولة الجماعيّة للمجاهدين المسلمين . فقد مجّد الشعراء بطولة الخليفة عبد المؤمن يوم قاد الجيوش وفتح المهديّة، ويوم قاد تلك الجيوش وعبر بها إلى الأندلس. وأكبر الشعر بطولة الخليفة يوسف حين عبر بجيوشه الجرّارة إلى الأندلس مرّات عديدة دفاعا عن الإسلام، وانتصارا له . وتغنّى الشعراء ببطولة المنصور غداة قاد الجحافل الإسلاميّة، ونزل موضع الأرك، وألحق بالصليبيين هزيمة قاسية .

وقد يخيل إلى البعض أنّ التركيز على دور البطل في الصّراع العسكري ضدّ الأعداء، نوع من إنكار المجهود الجماعي . إلاّ أنّ هذا التخيّل مخالف الواقع، فالأحداث التاريخية تثبت أنّ للقائد الصالح دورا كبيرا في استغلال طاقات الأمّة ، والإفادة منها ، وتوجيهها وجهة صحيحة للدّفاع عن نفسها . ثمّ إنّ الشّعراء لم يغفلوا تصوير البطولة الجماعيّة للجيوش الإسلاميّة .

فقد تحدّث ابن صاحب الصلاة (٢) عن الجيوش الضّخمة التي جهزّها الخليفة عبد المؤمن، وقادها إلى الأندلس تلبية لنداء أهلها، حيث قال :-

وكن إلى نصر الجزيرة بعدما	أتاه مع الرّكبان ناعٍ وناعِقُ
بجيشٍ تضيقُ الأرضُ عنه بطولها	وَترْهَبُه لو عايَنَتْه العمالِقُ
وأبيضَ وردي القميص كأنّما	تفتّح فوق النَّصْلِ منه شقائقُ
تُجرِّدُه أيدي الأحبّةِ في الوغى	وتُغمِدُه هامُ العدى والمفارِقُ (٣)

---

١ - حدى الغزو الصليبي : ص ١٥٥ .

٢ - هو غير عبد الملك بن صاحب الصلاة ، صاحب كتاب المنّ بالإمامة . ولم نعثر على ترجمة له .

٣ - المنّ : ج ٢ ص ١٦٧ .

ويبرز التعبير الشعري محرّكا قدح زناد البطولة في عهد الموحّدين، وهو الخطر الصليبي الذي كان يهدّد المسلمين، وتتبدّى في الأبيات الفروسيّة في أسمى صورها . فقد صوّر الشّاعر البطل فارسا ، يعزّ عليه أن يسمع الصريخ من المسلمين دون أن يستجيب لهم، ويدفع الظّلم والعدوان عنهم . والشّاعر في ذلك، لم يغفل تصوير البطولة الجماعيّة للجيش المسلم الّذي يتحمّل عبء القتال : فهو جيش ضخم العدد، كامل العدة ، يرهب كلّ من يعاينه .

وقد تغنّى أبو بكر بن المنخّل الشّلبي بالبطولة الحربيّة للخليفة عبد المؤمن في المعارك ، حيث قال :

يلوذونَ في الهَيْجا بأروعَ ماجدٍ إذا دارتِ الهيجاءُ كانَ لها قُطْبا
وإن عصفتْ ريحُ الوغى أحدقوا به فكانوا له جِسما، وكانَ لهُمْ قَلْبا (١)

والتركيز في البيتين السّابقين على إبراز التفاعل بين البطل وجنده في القتال . فقد صوّر الشّاعر الخليفة عبد المؤمن فارسا، يتقدّم الفرسان في العراك والنزال، ويتحمّل العبء الأكبر من القتال، ويبعث الحميّة في نفوس جنده، الّذين يلتفّون حوله لائذين به .

وقد أبرز الشّعراء عناية ((البطل)) بالجيوش، وتجهيزها ، وتوجيهها نحو العدوّ، وقيادتها . يظهر ذلك في الأبيات التالية الّتي قالها ابن المنخّل الشّلبي في الخليفة يوسف :ـ

لمّا رأيتَ الدّينَ أظلمَ جوُّهُ والحربُ قدْ سدلَتْ عليه قَتامَها
أقبلْتَها شعثَ النّواصي شُزّباً جُرداً تُباري في الفَلاةِ سَمامَها (٢)
من كلِّ مُشْرِفةِ التّليلِ(٣) كأنّما عَقَدوا بباسِقةِ النّخيلِ لجامَها
وأغرَّ وضّاحِ الحجولِ مطهّمٍ (٤) يجلو إذا خاضَ الغمارَ ظلامَها
تَسْري بخيرِ عصابةٍ قيسيّةٍ تَسْري الفتوحُ مُشيحةً قُدّامَها
كُسَنِ القِسيِّ ضوامراً فإذا رَمى عن نَزْعِها الأعداءَ كُنَّ سِهامَها
يَلْقى العداةُ الرّعبُ دونَ لقائِها فيزِلُّ قبلَ قِتالِها أقدامَها (٥)

---

١ ـ المنّ : ج ٢ ص ١٥٣ .
٢ ـ السّمام : طائر دون القطا في الخِلْقة . لسان العرب : مادّة ((سمم)) .
٣ ـ التّليل : العنق . لسان العرب: مادّة ((تلل)) .
٤ ـ المُطَهَّم : المُجْتَمع المدّور . لسان العرب . مادّة ((طهم)) .
٥ ـ المنّ : ج ٢ ص ٤٥١ ـ ٤٦٠ .

وتمتزج في هذه الأبيات البطولة العربيّة بالبطولة الخلقيّة . فإذ يشيد الشّاعر بشجاعة البطل ، وقيادته الجيوش، وإشرافه عليها ، فإنّه لم يغفل تصوير الدّافع الذّي قدح زناد ذلك في نفسه ، وهو العقيدة .

والبطولة في الأبيات السابقة بطولة جماعيّة . فالشّاعر لم يصوّر البطل وحده ، وإنّما صوّر جماعة المسلمين المجاهدين معه ، وأشاد بهم ، وأبرز دورهم .

وقد أشاد ابن حربون بحسن بلاء الخليفة يوسف في معركة السبيكة سنة ٥٥٧ هـ ، حيث قال : —

وسائلْ به تُخبرْك عن عزماتهِ	سوائلُ من ماءِ الحديدِ رواكـــدُ
عليها لرقراقِ السّرابِ غلائلٌ	عليهنّ من ردْعِ الدّماءِ مجاسـدُ
تجمّعْنَ من ماءٍ ونارٍ تألّقـا	فلا الماءُ منسابٌ ولا الجمرُ هامـدُ(١)

فالشّاعر يفاخر ببسالة الخليفة يوسف في معركة السّبيكة ، تلك البسالة التي تعرفها أدوات الحرب ، وتقرّ له بها . إلاّ أنّ الأبيات يعوزها التفصيل الدقيق للدور البطولي الذي اضطلع به ((البطل)) في تلك المعركة ، ولعلّ ذلك يعود إلى أنّها جاءت ضمن قصيدة مدحيّة استعاد فيها الشّاعر ذكريات وقائع ماضية للبطل . فالمعركة حدثت سنة ٥٥٧ هـ ، والقصيدة قيلت سنة ٥٦٠ هـ (٢).

وتشير المصادر إلى قيادة الخليفة المنصور معركة الأرك ، واشتراكه فيها . وقد أشاد ابن حزمون ببطولة ذلك الخليفة في تلك المعركة قائلا : —

لاقيتَ جموعَهُمُ فَخَـــدَوا	غَرَضاً في قبضةِ مُفْتَـــرسِ
ملؤوكَ تضيقُ الأرضُ بهـمْ	عَدَداً لم يُحصَ ولم يُقَـسِ
خرجوا بَطَراً ورئـاءَ النّـا	سِ ليختلسوا مع مُختلِـسِ
ومضيتَ لأمرِ اللّـهِ علـى	ثقةٍ باللّهِ ولم تَخِـسِ
فأناخَ الموتُ كلاكلَـهُ	بطِباقٍ على بشرٍ رجـسِ(٣)

وتتفتّح الأبيات السابقة على إبراز شجاعة البطل في القتال ، وفتكه بالأعداء وغيرته على الإسلام ، وإخلاصه له . إلاّ أنّ الشاعر لم يعط تفصيلا شافيا لبطولة المنصور في المعركة ، وإنّما اكتفى بالإشارة السريعة حتّى يتحدّث عن الهزيمة التي ألمّت بالصليبيين .

---

١ — المنّ : ج ٢ ص ٢٤٨ .
٢ — انظر المنّ : ج ٢ ص ١٦٨ وص ٢٤٥ .
٣ — المعجب : ص ٣٧٢ .

وكثيرا مايخلط الشعراء الموحدون المدح بالحماسة وروح الفروسية (١) ، ويظهر ذلك في الأبيات التالية لأبي الوليد يونس القسطلي (٢) :ـ

وعذراء من بكر الفتوح افتضضتها	وليس لها إلا بحدكم الوغى عقد
دفعت لها سمر الرماح نسيئة	وكان لها من واضحات الظبى نقد
ومهمة لا يهتدى لسبيلها	بقارعة ينسى لها الأبلق الفرد *
صببت عليها الخيل أهدى من القطا	إلى أن هوت أعلامها الشم تنهد
فمن أهيف أعداء رمح مهفهف	ومن ناهد يقتاده فرس نهد
أمام الخميس الأرجواني كأنه	هلال تمام والنجوم له جند
وسحت دموع السمهري كأنما	وقد دميت خرصانها الأعين الرمد
كماة إذا هزوا القنا وتعدوا	تثنت على غدرانها القضب الملد (٣)

وتبرز هذه الأبيات داغما آخر قدح زناد البطولة في عهد الموحدين ، وهو الفتوة التي تترفع عن أى متاع مادى ، فليس بغير الفتوة يمكن أن نعلل قوة احتمال البطل وشجاعة فرسانه ، الذين فتكوا بقلاع الأعداء وفتهاوت أمامهم .

وتظهر أخلاق الفتيان وتقاليدهم واضحة في شخصية الشهيد أبي الحملات مدافع بن يوسف بن سعد الجذامي (٤) ، قائد الأعنة ببلنسية . وقد صور ذلك ابن حزمون في موشحة رثاه فيها ، منها :ـ

ياعين بكي السراج	الأزعرا	النيرا اللامع
وكان نعم الرتاج	فكسرا	كي تنثرا مدامع
من آل سعد أغر		مثل الشهاب المتقد
بكى جميع البشر		عليه لما أن فقد
والمشرفي الذكر		والسمهري المطرد
شق الصفوف وكر		على العدو متعمد
لو أنه منعاج	على الورى	من الثرى أو راجع
عادت لنا الأفراح	بلا افترا	ولا امترا تضاجع (٥)

---

١ ـ الأدب الأندلسي في عهد الموحدين : ص ١٥٤ .

٢ ـ هو أبو الوليد يونس بن محمد القسطلي . شاعر مشهور رحل إلى المشرق . توفي سنة ٥٧٦ هـ ، انظر : المغرب : ج ١ ص ١٥٤ .

* ـ الأبلق الفرد : هو حصن السموأل بن عاديا . الروض المعطار : مادة الأبلق الفرد ، ص ١٠ .

٣ ـ زاد المسافر : ص ٥٧ .

٤ ـ لم نعثر له على ترجمة : ووالده علم مشهور . انظر النفح : ج ١ ص ٤٥٦ .

٥ ـ المغرب : ج ٢ ص ٢١٧ ـ ٢١٨ .

فقد استلهم ابن حزمون قيم المجتمع الموحّدي ومثله العليا عند ما صوّر أبا العلاء فارسا مقداما ، أزهر الوجه ، واثقا من شجاعته حين يكرّ على الأعداء ، ويفتك بهم .

وظهر في عهد الموحّدين أبطال آخرون من غير الخلفاء نذكر منهم - عددا - أبي العلاء - عبد الملك بن سعيد (١) . وقد قدّم ابن أبو جعفر بن سعيد صورة مشرقة له ، وقد شدّ عليه درعا ، وخرج بجنده غازيا ، يقول :-

أيا قائدَ الأبطالِ في كلِّ وجهـةٍ	تطيرُ قلوبُ الأسدِ فيها من الذُّعـرِ
لقد قلتُ لمّا أن رأيتُك دارعـا :	أيا حُسْنَ ما لاحَ الحَبابُ على النَّحرِ !
وأنشدتُ والأبطالُ حولَك هالـةٌ :	أيا حُسْنَ ما دارَ النجومُ على البَدرِ !
غدوتَ مثلما سارَ الصباحُ إلى الدُّجى	وأُبْ مثلما آبَ النسيمُ عن الزَّهـرِ (٢)

والأبيات فيها تصوير رائع للبطولة الفرديّة التي تعضدها بطولة جماعيّة. فقد صوّر الشّاعر ((البطل)) فارسا مقداما ، يقود جندا أبطالا إلى أصعب الموارد دون أن تخور عزائمهم ، وانّما يستبشرون بها ، ويقدمون عليها .

ويلاحظ أنّ الشّاعر قد اتّكأ على الطبيعة في تقديم الصورة الشعريّة . وهي صورة ناعمة رقيقة . ولا غرابة أن يكون ذلك في بيئة عرفت بجمال الطبيعة ، وفي مجتمع شغف بالطبيعة ، وممّن شاعر قضى كثيرا منّ وقته في المنازه والرّياض يبحث عن المتعة والجمال .

وقد أبلى المسلمون في معركة أنيشة بلاء حسنا ، ومن بينهم أبو سليمان الكلاعي ، ((وقد كان رحمه الله من أولي الحزم والجرأة والبسالة . . . وثبات الجأش ويمن النقيبة ، يحضر الغزوات ، ويباشر بنفسه القتال ، ويبلي فيه البلاء الحسن ، وآخرها الغزاة التي استشهد فيها بالكائنة على المسلمين بظاهر أنيشة من عمل بلنسية على نحو ثلاثة أميال منها ، حضرها ، وحرّض المسلمين ، وقد اختلّوا ، على قتال عدوّهم ، ورغبهم في مكافحته ، ولم يزل متقدّما أمام الصفوف زحفا إلى الكفّار ، مقبلا غير مدبر (والراية بيده) (٣) ينادي المنهزمين : أمن الجنّة تفرّون ؟ حتّى قتل صابرا محتسبا غداة يوم الخميس لعشر بقين من ذي حجّة أربع وثلاثين وستّ مائة . . .))(٤)

---

١ - أحد مؤلّفي كتاب ((المغرب في حلى المغرب)) توفي سنة ٥٦٢ هـ . المغرب : ج ١ ص ٦ .

٢ - المغرب : ج ٢ ص ١٦٧ .

٣ - المرقبة العليا : ص ١١١ .

٤ - الذيل والتكملة : ج ٤ ص ٩٠ ، وانظر إعتاب الكتّاب : ص ٢٤١ ، برنامج شيوخ الرعيني : ص ٦٦-٧٢ .

رثى ابن الأبّار أبا سليمان الكلاعيّ خاصّة، ومن استشهد في معركة أنيشة عامّة في قصيدة طويلة أشاد فيها ببسالة المسلمين وبطولتهم في هذه المعركة، منها قوله :-

تساقوا كؤوس الموت في حَوْمة الوغى ... فمالت بهم ميل الغصون النّواعم

مضوا في سبيل الله قُدْماً كأنّما ... يطيرون من إقدامهم بقوادم

يرون جوار الله أكبر مغنم ... كذاك جوار الله أسنى المغانم

مآثم راموها فخاضوا لنَيْلها ... ولا روع يثنيهم، صدور العظائم

*

وبين الثنايا والمخارم رمّة ... سرى في الثنايا طيبها والمخارم

بكتها المعالي والمعالم جهدها ... فلهف المعالي بعدها والمعالم

*

لقيت الرّدى في الرّوع جذلان باسماً ... فبوركت من جذلان في الرّوع باسم(١)

فقد وجّه الشّاعر القلوب في معرض تصويره مصاب المسلمين في هذه المعركة إلى تصور البطولة الجماعيّة للمجاهدين المسلمين، الّذين سعوا إلى جهاد الأعداء، وأبلوا في حربهم أحسن البلاء، وهم في ذلك يصدرون عن شعور عميق بوجوب نصرة الدّين الحنيف، والدّفاع عنه، حتّى ينالوا الثواب الذى أعدّه الله للمجاهدين في سبيله .

ولم يكن حديث الشّعراء عن دور البطل في الصّراع العسكرىّ مقصوراً على إبراز الدّور الّذى اضطلع به في تجهيز الجيوش، وقيادتها، والاشتراك الفعليّ في المعارك، وإنّما تعدّاه إلى إبراز الآثار النفسيّة الّتي تنجم عن وجوده في الأمّة . فقد رأى الشعراء أنّ البطل، بما يستمتع من مزايا وصفات، قادر على حفز الأمّة، وبعث طاقاتها، وتفريج أزماتها النفسيّة، وإشعارها بالثّقة، وبالتالي خلق حالة من الأمن والاطمئنان بين صفوفها . ومن هؤلاء الشعراء ابن سيّد الاشبيلي الذى قال في عبدالمؤمن :-

فكان كالنوم في أجفان ذى سَهَد ... أو كالأمان على أحشاء ذي وجَل

أضحى بكَرّته الإسلام في جذل ... والمشركون وأهل الكفر في جدل(٢)

فالتعبير الشعريّ يرسم صورة معبّرة للحالة النفسية التي نجمت عن وجود البطل، وهو عبدالمؤمن، في الأمة : فقد أمن المسلمون به، أمّا المشركون فقد شاع الرّعب

---

١ - المرقبة العليا : ص ١٢٠-١٢٢، الذيل والتكملة : ج ٤ ص ١٠-٩٥ .

٢ - المنّ : ج ٢ ص ١٥٨ .

والفزع في قلوبهم، والاضطراب بين صفوفهم، بل إنّ التعبير الشعريّ قدّم الإسلام بصورة حيّة سعدت بهذا البطل .

وقد قال الأصمّ المرواني في المعنى نفسه :-

جلّى إيابُك عنّا كلَّ مظلمـــةٍ * وآنس الدّين من إيحاش مغتـــرب
صافحْ بتلك اليد البيضاء قبّتها * فإنّها أصبحــت مسْودّة الكُتُب(١)

فقد أبرز الشاعر دور البطل في تأنيس الرّعيّة، وإخراجها من وحشتها، وكشف شدّاتها، وتفريج أزماتها، وما ينتج عن ذلك من راحة نفسيّة، وشعور بالأمن والاستقرار .

وقد أشاد أبو الحكم رضى البلنسي(٢) بجهود الخليفة يوسف في إحياء الأمّة، وبعث الثّقة والنّشاط في نفوس أبنائها في قصيدة ذكر فيها ما تقدّم من الفتن، حيث قال :-

أعاد والقومُ قد ملّوا السّرى فهمُ * من الدّؤوب على أكوارهم ميـــلُ
فخلتُهم من عقال أُنشِطوا طربـاً * والنّفس تبعثها حُذى التعاليـلُ
وخلتُ أنّ الحيا لمّا أعاد همُــا * فالماءُ مطّرِد، والزّهرُ مطلـــولُ(٣)

ويظهر من الأبيات أنّ بعض المسلمين قد ملّوا الغزو، وأشفقوا من الإبعاد فيه، إلاّ أنّ الخليفة يوسف استطاع بوعوده وجهوده أن يعيد الأمل إليهم، ويملأهم نشاطاً وثقة، ويوجههم نحو أهدافهم .

وإذا أبرز الشّعراء دور البطولة الفرديّة في طمأنة الأمّة، فإنّهم لم يغفلوا دور البطولة الجماعيّة في ذلك، يظهر هذا في الأبيات التالية التي قالها ابن حربون عندما عبرت الجيوش الإسلاميّة إلى الأندلس سنة ٥٦٠هـ، يقول :-

دلفتُمْ بالأسود إلى بـــلادٍ * ثوتْ حججاً تعيثُ بها الذّئــابُ
أشبّهها غداة حللتموهـــا * بلادَ الجدب حلّ بها السّحــابُ
فلولاكم لقد أضحتْ مواتـــاً * يُسَنُّ على ترائبهـــا التّــرابُ
فقد ألقى عصى العمران فيهـا * وقوّض رحْلَه عنها الخـــرابُ(٤)

---

١ - المنّ : ج ٢ ص ١٥٨ .
٢ - هو المتدرّب رضى، من أهل سرقسطة، وسكن بلنسية . كان أديباً شاعراً . التكملة : ج ٢ ص ٧٠٦ .
٣ - المنّ : ج ٢ ص ٤٢٢ .
٤ - المنّ : ج ٢ ص ٢٦٢-٢٦٣ .

فالشاعر الذي عاصر سوء الأوضاع في الأندلس قبيل عبور هؤلاء المجاهدين ، لم تفته ملاحظة الوضع الجديد فيها بعد عبورهم إليها وعنايتهم بها : فقد كان الأعداء يعيثون فيها فسادا ، ويرهقون أهلها ، إلاّ أنّ هؤلاء المجاهدين كشفوا كربها ، وأزاحوا الغمّة عنها ، ونشروا العمران فيها .

وهكذا أبرز الشعراء دور ((البطل)) في الصراع العسكريّ ضدّ العدوّ . فهو يجهزّ الجيوش ، ويقودها ، ويشارك في المعارك ، ويبعث طاقات الأمّة ، ويوجهها للدفاع عن نفسها .

ولم يغفل الشعراء تصوير البطولة الجماعيّة للمجاهدين المسلمين . فقد تشابكت الوشائج بين البطل وجنده ، وهم يسعون بما أوتوا من قوّة ، ويلحّون في السّعي إلى جهاد المعتدين ، مرخصين مهجهم وأرواحهم .

حـ) القيم والمثل العليا في شعر الجهاد :ـ

البطولة العربيّة الإسلاميّة بطولة إنسانية ، تقوم على مجموعة من الفضائل الخلقيّة والنفسيّة والحربيّة . وبهذا فإنّ البطولة مفهوم يشمل جميع الفضائل والقيم الحسنة التي تميّز البطل في مجتمع معيّن .

والبطولة بهذا المعنى تلتقي مع مفهوم ((الفتوّة)) العربيّة الاسلاميّة في بعض الفضائل دون أن ترادفها ، ذلك أنّ الفتوّة الإسلاميّة لها تقاليدها الخاصّة (١) ، أمّا البطولة فتفلت من أسر تلك التقاليد لتتخذ مفاهيم معيّنة من المجتمع الذّى توجد فيه .

والشّعراء حين يخلعون الفضائل على البطل ، فإنّهم يستوحون قيم المجتمع ومثله العليا في عصر معيّن . وهم بذلك يحاولون تقريب صورته من صورة الإنسان النموذج ، التّي تعدّ المثل الأعلى في ذلك المجتمع .

ويمكن أن نجمل الفضائل التي خلعها الشعراء على البطل المسلم في المغرب والأندلس زمن الموحّدين فيما يلي :ـ

الشجاعة ، الجهاد في سبيل الله ، الكرم ، التقوى والعدل ، الرحمة ، سعة العلم ، وأصالة النسب .

والشجاعة من أبرز سمات البطل في شعر الجهاد ، لأنّها عدّته في الحرب وسلاحه ، وهي شجاعة تعتمد على ثبات القلب ، وقوّة العقيدة . ويمكن أن نجمل صورها في شعر الجهاد في الحماسة للقتال ، والإقدام عليه ، والثبات والجلد ، وقوّة الاحتمال ، والتمرّس بفنون القتال ، والعناية بأدواته ، والفتك بالأعداء ، والثقة بالنفس ، والهيبة . . .

فقد أشاد الأصمّ المرواني (٢) بحماسة عبد المؤمن للقتال وإقدامه عليه . فهو إذا ما دعته الحرب لبّى نداءها ، وطار إليها ، متقدّما الجيوش الضخمة ، يقول :ـ

ملك إذا ما دعته الحربُ من بُعُدٍ ... طارُ السّفينُ أَمام الجَحْفَلِ اللّجِبِ (٣)

---

١ ـ انظر : الفتوة عند العرب : ص ١٣ و ص ١٩ ، الملامتيّة والصّوفيّة : ص ٢٤ ، Encyclopaedia of Islam, Under 'Futuwa'

٢ ـ سمّاه صاحب المنّ : ((القرشيّ الأصمّ القرطبي المعروف بالطّليق)) . انظر : المنّ : ج ٢ ص ١٥٩ ، النفح : ج ٣ ص ٥٩٢ ، زاد المسافر : ص ١٢٦ .

٣ ـ المنّ : ج ٢ ص ١٦١ .

وقد ربط ابن الأبّار أروع معاني الشجاعة بالعقيدة الدينيّة ،عندما أشاد ببسالة أبي سليمان الكلاعي في القتال : فهو يقدم على الموت، مبتهجا به ،حتّى ينال الثواب الذّى أعدّه اللّه للمجاهدين في سبيله : —

أتاه رداه مقبلاً غيرَ مدبرِ ليُحْظَى بإقبالٍ من اللّه دائمِ (١)

وثبات القلب عند النوازل مظهر آخر من مظاهر الشجاعة. وقد صوّر الشوّاش الشّلبي رباطة جأش الخليفة يوسف، وقوة احتماله، وصبره على منازلة الأقران، وشدّة قلبه في المعارك التي يهرب منها أشجع الأبطال : —

للّهِ دَرّك والفوارسُ تدّعي والحربُ خاسرةُ المتاعِ زبونُ
واليومُ يظلم للعيون قتامُه فتنيره * لك غرّةٌ وجَبينُ
في مأزقٍ ضَنْك تزلّ كُماتُه ومقامكُم صدقٌ هناك رصينُ
ولربّ صوّال الزئيرِ حَطَمْتَه فغدا له بعدَ الزّئير أنينُ (٢)

كما أشاد ابن المنخّل الشّلبي بجلد الخليفة يوسف وصلابته ،فهو يظلّ قائما على القلاع والحصون يذلّلها ،حتّى يقتحمها عنوة : —

فلربّ نابيةِ السّنام منيعة ذلّلتُها حتّى وطيتَ سنامُها
ومنيعةٍ صَعُبتْ وعزّ مرامُها سهّلتَ بالبيضِ الرّقاقِ مُرامُها (٣)

وقد تحدّث الشّواش الشّلبي عن تمكّن الخليفة عبد المؤمن من أساليب القتال ، وتمرّسه بها ،حتّى بات الانتصار في المعارك من عاداته : —

عاداتُ منصورِ العزائم غالبِ ضُمِنَتْ فتوحُ مشارقٍ ومغاربِ
عاداتُ مخترمِ العداة مُظفّرِ * مغتالِ كلّ معاندٍ ومحاربِ (٤)

وقد أشار الشّاعر السّابق إلى النشأة الحربيّة للخليفة يوسف، حيث أُخذ بوسائل الفروسيّة صغيرا ، وتمرّس بها كبيرا ،ولذلك فإنّ ميادين القتال تحنو عليه حنوّ الأمّ البرّة بولدها ،لأنّها ألفته : —

---

١ — الذّيل والتكملة : ج ٤ ص ٩٤.
* — قرئت في المنّ ((وتثيره)) .
٢ — المنّ : ج ٢ ص ٢٤١ — ٢٤٢ .
٣ — المنّ : ج ٢ ص ٤٦٠ .
٤ — المنّ : ج ٢ ص ٢٠٨ .

عزّ ربيبَ والحُلوم لِداتـــــــه　　والمشرفيّ أخ له وخَديـــــــنُ

تركَ المهاد لسَرج* أجردَ سابــحٍ　　وصفا عليه سَردُه الموضـــــونُ**

شِبْلٌ غدتْه لحوم أساد الوغـــــى　　في حيث متلفٌّ الوشيج عريـــــنُ

وكأنما الهيجاءُ أمٌ بــــــرّةٌ　　تحنو عليه برفقة وتليـــــــنُ(١)

ويستشف من هذه الأبيات الطريقة التي كان ينهجها الموحدون في تربية أبنائهم. فهم يأخذون بأسباب الفروسية صغارا، ويشبون عليها.

وقد ردد الشاعر المعنى السابق في قصيدة أخرى قالها في الخليفة نفسه (٢).

وتحدثت المصادر عن عناية الموحدين بالأسلحة، واقتنائهم أياها. وقد قــدّم الشعراء طرفا من ذلك. فوصفوا عنايتهم بالخيول، وقيامهم على أمرها. كما صوّروا اهتمامهم بالسفن، وسعيهم إلى بنائها (٣).

ولطول ألفة بني عبد المؤمن للرّماح وعنايتهم بها، فإنهم لم يعودوا قادرين علــى تمييز كعوبها من أيديهم، وإنّما التبست عليهم، كما يقول ابن حربون :ـ

وقد ألفوا الأرماح حتّى لأوشكــت　　كعوبُ القنا أن يحسبوها بَراجمـــا** (٤)

والثقة بالنفس مظهر آخر من مظاهر الشجاعة. فالبطل إذ يقتحم الخطوب بقلب ثبت، وشجاعة فائقة، كان واثقا من شجاعته، وبأسه، ودربته، في حميّا القتال.

فالخليفة عبد المؤمن لو شاء لخاض المعركة راجلا :ـ

فلو شاءَ لم يركبْ جوادا لجحفـلٍ　　ولا حملته للسّفار الأيانـــــقُ (٥)

وهو يستخفّ بالأعداء، ولا يرهب لقاءهم، وإنّما :ـ

تلقاه آسادُ الوغَى وكماتُـــــه　　فكأنّما يلقاهُ سربُ كواعـــــبِ(٦)

---

*ـ ورد في المتن ((ليسرج)) ، وبذا ينكسر الوزن.

**ـ السّرد الموضون :ـ الدّرع المنسوجة.

١ ـ المنّ : ج ٢ ص ٢٤١ .

٢ ـ انظر :ـ المنّ : ج ٢ ص ٢٤١ .

٣ ـ انظر :ـ النفح : ج ٣ ص ٢٣٨ ، مخطوط الوافي بالوفيات : ج ٢٦ ورقة ١٦ .

***ـ ورد في الأصل ((مراجما)) ، ولا معنى له.

٤ ـ المنّ : ج ٢ ص ٣٨٧ .

٥ ـ المنّ : ج ٢ ص ١٦٥ .

٦ ـ المنّ : ج ٢ ص ٢١٠ .

وقد صوّر ابن المنخّل الشّلبي الخليفة يوسف فارسا أزهر الوجه، يبذّ أقرانـــــه، ويتفوّق عليهم : —

وإذا امتطى ظهر الحصان رأيته　　بدر الكتائب ليثها جحجاحهـــا (١)

ويقدّم ابن سيّد الاشبيلي في الأبيات التالية، صورة مشرقة للبطولة الحربيّـــة للمجاهدين المسلمين، وما كان يملأ نفوسهم من قوّة وبأس، وثقة بالنفس، وإقدام علـــى القتال، وارتياح إلى الموت، وابتهاج بـــه : —

من كلّ أزهر للحياء بوجهـــــه　　في السّلم رقراق اللّجين المذهّـــب

يرتاح للموت ارتياح قناتـــــه　　للطّعن أو صمصامة للمضـــرب

مرح بمعترك الهياج كأنّـــــه　　في ضنكة متقلّب في ملعـــــب (٢)

وكان الصراع بين الموحّدين والصليبيين بالغ العنف. لذلك كان التغنّي بقـــوة البطل، وفتكه بالأعداء، وإرهابهم، وقدرته عليهم، سمّة من سمات شعر الجهاد.

فسيوف الخليفة عبد المؤمن قطعت أجسام العداة، وفتكت بها، كما يقول ابن صاحب الصلاة : —

تقسّم أجسام العداة سيوفـــه　　ولدن بأيدي الطّاعنين بواســـق (٣)

وقد قدّم ابن سيّد الأستاذ (٤) صورة ساخرة للرّعب الذّى دبّ في قلوب الأعـــداء من بطش الخليفة يوسف وفتكه، يقول : —

راع الممالك فاتّقت بملوكهـــا　　حتّى كأنّ بها حبالى تطلـــق

شقي العدى منه ببداشة محنـــق　　عجبا، وهل ينتابه ما يحنـــق؟ (٥)

---

١ — المنّ : ج ٢ ص ٢٤٤ .
٢ — المنّ : ج ٢ ص ١٦٩ .
٣ — المنّ : ج ٢ ص ١٦٦ .
٤ — لم يوضح ابن صاحب الصلاة المقصود بابن سيّد. فهناك ابن سيّد المالقي، وابن سيد الاشبيلي. والمرجّح أنّ المقصود ابن سيّد الاشبيلي؛ لأنّ المالقي توفي بعد سنة ٥٦٠هـ، والثاني مات بعد سنة ٥٧٦هـ، والقصيدة قيلت سنـــة ٥٦٦ هـ. انظر : المنّ : ج ٢ ص ٤٥٣ تعليق رقم ٧، الرّايات : ص ٤٨.
٥ — المنّ : ج ٢ ص ٤٥٤ و ص ٤٥٦ .

وصورة القتلى الذين ملأت جثثهم الرحب، فلا تجد الخيول مكانا على الأرض تضع سنابكها عليه، صورة قديمة تدل على كثرة القتلى. وقد استعان الأمير الشاعر أبو الربيع الموحد(١) بها، عندما صور فتك الخليفة المنصور بالأعداء، حيث قال :ـ

أوطأتها هام الكماة فلم تضع ... إلا على خدٍّ طريحٍ مُتَكَّسِي(٢)

وقد صوّر ابن سيّد الاشبيلي خوف الصليبيين من المجاهدين المسلمين، حتى بات هذا الخوف لا يفارقهم. فهم يتوهمون وقع أسلحتهم، فيهمّون بالفرار عن أوطانهم، يقول :ـ

تتوهّمُ الكفّارُ وقعَ سلاحِهم ... فتهمُّ عن أوطانِهم* بتغرّبِ(٣)

ولم تكن هذه الشجاعة التي تحلّى بها البطل المسلم موجّهة نحو مجد فردي أو قبلي. وإنّما هي شجاعة موجّهة إلى خدمة الأمّة، والدفاع عن الإسلام، وجهاد الكفّار.

ولعلّ أبرز صورة يقدّمها الشعراء للبطل المسلم، هي صورة المجاهد في سبيل الله. ولا شكّ أن هذه هي الصورة الطبيعيّة لمقاتل تحت لواء الإسلام، ضدّ أعداء يقاتلون باسم الكفر.

فقد اعتبر الأصمّ المرواني جهاد الخليفة عبد المؤمن للصليبيين في الأندلس استمرارا لجهاد السابقين الأولين للكفّار، يقول :ـ

منه يعاودُ هذا الفتح ثانيةً ... أضعافَ ما حدّثوا في سالفِ الحِقَبِ

ويلبسُ الدّينُ غضّاً ثوبَ عزّتِهِ ... كأنّ أيّامَ بدرٍ عنه لم تَغِبِ(٤)

ويقدّم ابن المنخّل الشلبي الخليفة يوسف في صورة إنسان غيور على الدين. فهو عندما رأى الضيق الذي يعاني منه الإسلام وجّه الخيول الأصيلة الجرداء لقتال أعدائه، يقول :ـ

لمّا رأيتَ الدّينَ أظلمَ جوُّهُ ... والحربُ قد سُدلتْ عليه قَتامُها

أقبلتَها شُمَّ النّواصي شُزَّباً ... جُرداً تباري في الفلاةِ سَمامُها (٥)

---

١ ـ هو أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن، أحد أمراء الموحدين. كان شاعرا أديبا ماهرا. وديوانه مطبوع. توفي سنة ٦٠٤هـ. انظر :ـ الغصون اليانعة : ص ١٣١ـ١٣٤، الأمير الشاعر : ص ١٢٨، ذكريات المشاهير : عدد (١٠) ص ٧ وما بعدها.

٢ ـ ديوان أبي الربيع : ص ٢٨.

* ـ ورد في المن ((أوطارهم)).

٣ ـ المن : ج ٢ ص ١٧٠.

٤ ـ المن : ج ٢ ص ١٦١.

٥ ـ المن : ج ٢ ص ٤٥٩.

والعقيدة هي التي أورت زناد البطولة في نفس الخليفة المنصور عند ما رأى الضيم الذى حلّ بالإسلام : —

غضبتَ وما للدين غيرُك ناصرُ ... لمنابر الإسلام أنْ تتملّكا
شكتِ الثغورُ الخطبَ لمّا لم يكُنْ ... إلاّ إليك من الخطوبِ المُشتكَى (١)

وقد ردّد القاضي أبو بكر بن محمد الزهري(٢) المعنى نفسه، في قصيدة وصف فيها إحدى غارات الموحّدين على الصليبيين : —

خرجتَ وللإسلام أنّةُ مُوجَعٍ ... تذوبُ لها الصمُّ القواسي من الصّخرِ(٣)

والجيوش التي وجّهها الخليفة يوسف إلى الأندلس، إنما وجّهها لنصرة دين اللّه، كما يقول ابن حربون : —

نصرُ اللّهُ دينَه من لدُنكم ... بجيوشٍ جاستْ خِلالَ الدّيارِ(٤)

وقد وصف أبو العبّاس الجرّاوى الخليفة المنصور بأنّه ((معزّ الهدى)) وحامي ذماره، لذلك فإنّ السماء تؤيّده : —

مُعزّ الهدَى معليه حامي ذمارُه ... يجيرُ على أعدائه البَرّ والبَحْرَا
مُعانٌ بإمدادِ الملائك مُنْزلٌ ... من المعقلِ الأسمَى مُناويَهُ قَسْرًا (٥)

وتمتزج الغيرة الدينية بالشجاعة الموجهة نحو خدمة الإسلام في شخصيّة المجاهد أبي حفص، ويظهر ذلك في قول الشاعر : —

ألقى على أهل الضَّلالةِ كلكَلاً ... فلهمْ عويلٌ تحتَهُ وأنينُ (٦)

وقد أبرز أبو العبّاس الجرّاوي جهود أبي حفص الحقّة في نصرة دين اللّه، وإعلاء أمره، حيث قال : —

جاهدتمُ باللّه حقّ جهادِهِ ... ونهضتمُ بحمايةِ الأديانِ(٧)

---

١ — ديوان أبي الرّبيع : ص ٢٨ .
٢ — هو القاضي أبو بكر محمد بن محرز الزهري . من أهل بلنسية . رحل إلى مصر ، كان حافظا للغة والغريب، وله شعر رائق . توفي سنة ٦٥٥هـ . النفح : ج ٢ ص٦٦ .
٣ — تحفة القادم، نشر في مجلة المشرق ، بيروت، مجلد ٤١، سنة ١٩٤٦، ص ٥٧٢ .
٤ — المنّ : ج ٢ ص ٢٨٨ .
٥ — شاعر الخلافة الموحّدية : الملحق : ص ٧ .
٦ — البيان المغرب : ج ٣ ص ١٨١ .
٧ — البيان المغرب : ج ٣ ص ١٠٤ .

والكرم من الفضائل البارزة التي خلعها الشعراء على البطل المسلم . وهم إذ يخلعون هذه الفضيلة عليه ، فإنهم يستوحون قيم المجتمع الموحدي ومثله العليا ، ويعملون على تقريب صورته — أي البطل — منها .

وقد تعددت مظاهر الكرم في شعر الجهاد . ويمكن حصرها في :— حب البذل وسعته ، والكرم وقت الضيق ، والابتهاج بالزوار ، وتقديم المساعدة السريعة الى المحتاجين . فصورة الطيور التي يصيبها العطاء لكثرته ، فترن شكرا ، صورة تقليدية تدل على سعة البذل . وقد اتكأ الشواش الشلبي على هذه الصورة عندما أشاد بكرم عبد المؤمن ، حيث قال :—

تهوي نداه الطير في وكناتها | فترن ترجيعاً بشكر دائر
عرفت عوارفه فتشكر فضله | وتدين إعظاما بحكم الواجب (١)

وابتهاج المضيف بزواره الذين يطرقون ربعه معنى تقليدي . وقد استعان به الأصم المرواني عندما أشاد بكرم نفس الخليفة عبد المؤمن . فهو إذا حل الزوار ربعه يهش ويبش لهم ، ويسعد بعطائهم ، حيث قال :—

جم المواهب للزوار مبتسم | يستغرب الناس وقتاً فيه لم يهب (٢)

والجواد الحق هو من يسخو بماله في اليسر والعسر ، وكذلك كان عبد المؤمن . فهو إذا ما ضنت السماء بمائها ، وأجدبت أرض على أهلها ، أفاض على الناس من خيره وماله رزقا كثيرا :—

إذا أجدبت أرض نحاها بجوده | فما أغزر السقيا ، وما أكثر الخصبا (٣)

وقد صور ابن صاحب الصلاة الخليفة عبد المؤمن إنسانا فياض النفس بالمشاعر الكريمة ، ورجلا وفيا لأصدقائه ، وجوادا يبذل المال لمن يقصده ، ويقدم الحماية والأمن لمن يلوذ به ، يقول :—

جواد إذا ضن الغمام بوبله | وصول إذا صد الصديق المصادق
أزاح الردى عن من * يلوذ بظله | وبث الندى فاسترزقته الخلائق
ففي ظله أمن من الخوف مانع | وفي كفه بحر من الجود رازق (٤)

١— المن : ج ٢ ص ٢١٠ .
٢— المن : ج ٢ ص ١٦٣ .
٣— المن : ج ٢ ص ١٥٣ .
*— هكذا ورد .
٤— المن : ج ٢ ص ١٦٦ .

والكرم الذّي يفوق انبجاس الماء من السّحاب معنى قديم يدلّ على السّخاء. وقد استوحى ابن حربون هذا المعنى عندما أشاد بكرم الخليفة يوسف، هذا الكرم الذى يصدر عن طبع أصيل فيه، يقول : —

لهُ راحةٌ لو أنّ للمزن جودَها ... لما سار يبغي الخصبَ في الأرض رائدُ
وطمع تمنّى الرّافدان لو انّه ... يمدّهما منه مُعينٌ ورافدُ (1)

وقد صوّر الأستاذ ابن سيّد ابتهاج الخليفة يوسف، وسعادته، وتهلّل أساريره ساعة العطاء، حيث قال : —

يُعطي الجزيلَ ووجهُه متهلّلٌ ... وكذا السّحاب إذا تبجّس يُفرِق (2)

وبنو عبد المؤمن إذا أعطوا فإنّهم يعطون عن طيب نفس : —

كرامٌ لهم في الجود أرفعُ همّةٍ ... فما يَهبونَ المال إلاّ كرائمَا (3)

وتفخر العرب إذا أعطت بأنّها تبذل أجود ما عندها. وكذلك بنو عبد المؤمن، فهم إذا جادوا بذلوا أغلى ما يحصلون عليه : —

لا يُطعمون سوى ما أنضجت لهمُ ... نارُ الوغى، وصَفايا الزّاد مبذولُ (4)

وكثيرا ما ربط الشعراء بين الكرم والشّجاعة. ولا غرو في ذلك، فالشجاعة ((والكرم متلازمان، فالشجاع يقدم على الخطر مضحيًّا بقوته بل بنفسه، والكريم يضحّي بماله)) (5). بل إنّ بعضهم جعل الشجاع ضدّ البخيل، ((لأنّ البخيل يضنّ بماله، والشجاع يجود بنفسه)) (6).

فهذا شاعر مجهول يشيد بكرم بني عبد المؤمن وشجاعتهم. فهم يسارعون إلى الحرب، ويضرمون نيرانها، ويجودون بأنفسهم فيها، كما أنّهم يبادرون إلى الكرم، ويشبّون نيران القرى، مضحّين بما لهم. يقول : —

مساعيرُ في الهيجا مساريع للنّدى ... بأيديهم يحمى الهجير ويُبْرِدُ
تشبّ بهم ناران : للحرب والقِرى ... ويجرى بهم سيلان : جيش وعسجدُ (7)

---

١ — المنّ : ج ٢ ص ٣٤٧.
٢ — المنّ : ج ٢ ص ٤٥٦.
٣ — المنّ : ج ٢ ص ٣٨٦.
٤ — المنّ : ج ٢ ص ٤٢٤.
٥ — الفتوّة عند العرب : ص ٨٨.
٦ — الفروسيّة : ص ١٢٨.
٧ — النّفح : ج ١ ص ٦٠٨ — ٦٠٩.

وكذلك فانّ الخليفة عبد المؤمن شغوف بالفتك بالأعداء شغفه بالبذل والعطاء :

له سيمةٌ ترتاحُ للبذل والنّدى وكفٌّ لتفليق الجماجم وامِقُ (١)

أمّا الخليفة يوسف فهو شديد التعلّق بالحرب والكرم معاً :-

صبّ يوكّل بالوغى أو بالنّدى لا تُرتجى من وجده سلواتُه (٢)

ومن الفضائل التي خلعها الشعراء على البطل المسلم : التقوى والعدل .

وهاتان الفضيلتان من القيم التي جاء بها الاسلام ، وحثّ عليها . لذلك فإنّ المتتبّع ((للتّاريخ الاسلامي ، ومنذ أمد غير بعيد ، لا بدّ أن يلحظ أنّ شخصية القائد الصالح في المجتمع الاسلامي لم تنسلخ يوما عن شخصيّة الانسان التقي)) (٣).

لم يخرج الخلفاء الموحّدون الأول عن ذلك . فقد كان عبد المؤمن شديدا صارما في أحكام الدّين ، كثير التلاوة والخشوع ، أمّا يوسف فقد كان متحرّيا للحقّ والعدل ، مطاردا للظّلم والبغي . وأمّا المنصور فقد كان ذا دين وحسن سيرة ، مقيما للحدود في العامّ والخاصّ (٤).

أشاد الشّعراء بتقوى البطل وعدله . فهذا ابن صاحب الصلاة يمزج بين المعاني القرآنية والمعتقدات الشيعية في الامامة (٥) ، وعندما أشاد بتقوى عبد المؤمن ، هذه التقوى التي أضاءت قلبه ، وأنارت سريرته ، فكشفت له الحقائق ، يقول :-

ومن جعل التّقوى سراجا لقلبه أضاء ولم تُحجَبْ لديه الحقائقُ (٦)

وقد استوحى الشوّاش الشّلبي معتقدات الموحّدين في الإمامة ، عندما صوّر الخليفة يوسف نورا يتناقل في الأصلاب (٧) ، ووصف بالبرّ ، والتقوى والطّهارة ، واليمن ، حيث قال :-

بشرى الخلافة إذ تقلّدَ عهدها البرّ التّقيّ الطّاهرُ الميمونُ

---

١ - المنّ : ج ٢ ص ١٦٦ .

٢ - المنّ : ج ٢ ص ٢٦١ .

٣ - صدى الغزو الصليبي : ص ١٥٦ .

٤ - انظر :- زهر الأفنان : ج ٢ ص ١٧٠ ، البداية والنهاية : ج ١٣ ص ١٩ ، العبر في خبر من غبر : ج ٤ ص ١٦٥ ، مخطوط الاغتباط بتراجم أعمال الرباط : ج ١ ورقة ٢١٥ ، عصر المنصور الموحّدي : ص ٤٩-٥١ .

٥ - ضحى الاسلام : ج ٣ ص ٢١٨ .

٦ - المنّ : ج ٢ ص ١٦٧ .

٧ - أعزّ ما يطلب : ص ٢٤٥-٢٤٩ .

*

خِدْنُ التُّقَى وسليل أنوار الهـدى   أدّته عن خير الظّهور بطـونُ (١)

ويقدّم ابن حربون الخليفة يوسف في صورة إنسان تقيّ عابد إذا جنّه الليـل ، وإنسان قوي مهيب إذا أبداه النهار ، حيث قال : ـ

مليكٌ إذا لاحَ النّهارُ معظّـم   وأمّا إذا جنَّ الظّلامُ فعابـدُ (٢)

والصّبر والتّقوى عدّة الخليفة المنصور في جهاد الأعداء : ـ

له عسكرٌ مجر من الصّبر والتّقـى   يرد على أعقابه العسكرَ المجَرا (٣)

وقد صوّر الرّصا في البلنسي الخليفة عبد المؤمن إنسانا ناسكا ، مطبوعا على الورع والتقوى وصفاء النّفـس : ـ

وحيثُ قامت قناةُ الدّينِ تُرفُلُ في   لواء نصر على البرّين منشـورِ

في كلِّ منشمرِ البُرْدَيْنِ ذي ورعٍ   على التّقى وصفاءِ النفس مفطـورِ (٤)

كما استوحى أبو العبّاس الجرّاوي المعنى القرآني (٥) عندما أشاد بتقوى الخليفـة المنصور وورعـه : ـ

رأى السّبل شتّى فاتّقاها تورّعـاً   وسار على المُثلى فيسّرَ لليُسْـرَى (٦)

وعدل الحاكم لا ينفصل عن تقواه . وقد أشار الشّعراء إلى العدالة الاجتماعيّـة التي حقّقها الخلفاء الموحّدون ، وتحدّثوا عن الآثار التّي ترتّبت على ذلك .

فاطمئنان المخلوقات إلى عدل الخليفة عبد المؤمن ، نزع العداوة من قلوبهـا ، وألّف بينها ، كما يقول الشوّاش الشّلبي : ـ

وعدلُك ألّفَ الأشتات حتّـى   توادَّ الذيبُ والرّشأ الربيـبُ (٧)

---

١ ـ المنّ : ج ٢ ، ص ٢٤٠ و ص ٢٤٢ .
٢ ـ المن : ج ٢ ص ٢٤٦ .
٣ ـ شاعر الخلافة الموحّدية : الملحق : ص ٨ .
٤ ـ ديوان الرّصافي البلنسي : ص ١٢٩ .
٥ ـ سورة اللّيـل : آية ٧ .
٦ ـ شاعر الخلافة الموحّدية : الملحق : ص ٧ .
٧ ـ المنّ : ج ٢ ص ٢١١ .

وقد اطمأنّت الأمّة إلى عدل الخليفة يوسف : فأمن الخائف، وجُبر المنهاض، وأصلح الفاسد : —

بعدلِ أبي يعقوب يأمنُ خائفٌ ويُجبرُ منهاضٌ، ويصلحُ فاسدُ (١)

ويلتفت أحد الشّعراء إلى معتقدات الموحّدين في الإمامة، عندما أشاد بعدل الخليفة المنصور، الذى عمّ البسيطة، في الوقت الذى أربد فيه وجه الأرض بالظّلم والطغيان : —

إمام الورى عمّ البسيطةَ عدلُهُ على حين وجهُ الأرضِ بالجور أربَدُ (٢)

فهذا البيت يستند إلى نظرة الموحّدين في الإمامة. فهم يرون أنّ الإمام سيملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا وظلما (٣). ولا يخفى أنهم بذلك متأثرون بالشيعة.

ومن الفضائل التّي خلعها الشعراء على البطل المسلم : الرّحمة والرّقة والعطف. ((فالبطل الصّارم الشجاع ليس أسدا فراسا، وإنّما هو إنسان اتّسع قلبه للشجاعة والبأس، وللرحمة والعطف)) (٤).

والرّحمة من الفضائل العربيّة التّي تغنّى بها الفرسان العرب في الجاهليّة، وحثّ عليها الإسلام، لذلك فإنّ من أسماء ربّ العزّة : ((الرّحمٰن الرّحيم)) .

وقد قدّم الشعراء صورا مختلفة للرّحمة عندما أشادوا ببطولة المجاهدين المسلمين. ويمكن أنّ نجملها في : — الصفح عن المخطئين، والعفو عن الأعداء، وإغاثة الملهوف، والانتصار للمظلوم، والسّهر على مصالح الأمّة والعناية بها .

فعندما انتصر المسلمون على الصليبيين في المهديّة، أعطاهم الخليفة عبد المؤمن الأمان، وعفا عنهم، وأطلق سراحهم، وقدّم السفن لهم حتّى يجلوا عن البلاد (٥) . وقد قدّم الأصمّ المرواني صورة معبّرة لفرح هؤلاء الأعداء الذّين منّ عليهم الخليفة بالعفو،

سارَ العلوجُ وفي أعناقهم مننٌ له من عفو مقتدِرٍ للغزو منتدِبِ

مدّوا الأكفَّ للمسِ النجم من فرحٍ وشمّروا لوثوبِ البحر من طَربِ (٦)

---

١ — المنّ : ج ٢ ص ٢٤٨ .
٢ — النّفح : ج ١ ص ٦٠٩ .
٣ — أعزّ ما يطلب : ص ٢٥١ ، نظم الجمان : ج ٦ ص ٧٥—٧٦ .
٤ — البطولة والأبطال : ص ٣٣ .
٥ — المكتبة العربيّة الصقليّة : ص ٣٣ .
٦ — المنّ : ج ٢ ص ١٦٢ .

وعفو الخليفة عبد المؤمن عن الأعداء السابقين عفو قويّ مقتدر لا عفو ضعيف : —

فعفوتَ عفوَ القادرينَ تكرّمـــــاً عنهمْ، وعفوُ القادرينَ جميـــلُ (١)

وعندما خرج أهل قفصة (٢) على الموحّدين، وجّهوا إليهم جيشا ضخما تغلّب عليهم. إلاّ أن الخليفة عبد المؤمن عفا عنهم، وأمر بردّ أشياءهم إليهم. وفي ذلك قال أبو العبّاس الجراوي : —

لم يُغنِ عنهم إذ أتاهم من عَلٍ أنْ يحرسوا الأسوارَ والأبوابا

*

نالتهمُ رحمى الخليفةِ بعدما نادى الرّدى بنفوسهم وأهابا (٣)

وقد عجب ابن سيّد الاشبيلي من أناة الخليفة عبد المؤمن وحلمه، وحذّره من عاقبة ذلك الحلم الذي قد يبطر العاصين، ويحملهم على الزّلل : —

ما زال يُغضي فيُعطي صافحاً كرماً والصّفحُ قد يحمل العاصي على الزللِ (٤)

وعناية القائد بالرّعية وسهره على مصالحها مظهر آخر من مظاهر الرّحمة والرّفق. فهو إذا كان رؤوفا بأعدائه، فمن الأولى أن يكون رحيما برعيّته.

أبرز الشعراء هذه السّمة في القادة الموحّدين. فالخليفة عبد المؤمن لا يفتأ يهدي الرّعيّة، ويعلمها، ويقدّم المشورة لها، كأنّه أب عطوف يحنو على أبنائه : —

فأوسعتَ الأنامَ هُدًى يُريهم معالمَ دينهم وندى يصوبُ

فأنتمْ للجميع أبٌ عطوفٌ وكلٌّ في كفالتكمْ ربيبُ (٥)

وقد أبرز ابن المنخّل الشّلبي دور الخليفة يوسف في طمأنة الأمّة، والدّفاع عنها، ورعايته إيّاها، وقيامه على شؤونها، بعد أن كاد الأعداء المصف بها. يقول : —

للهِ رعيُك في رعايةِ أمّةٍ ذعرتْ ديّاتُ المشركين سَوامُها

أسكنتَها أرسَى محلٍّ بعدما كادتْ تُقوّضُ للجلاءِ خيامُها (٦)

---

١ — البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٨.

٢ — قفصة : — بلدة صغيرة من ناحية المغرب، من عمل الزّاب الكبير بالجريد، بينها وبين القيروان ثلاثة أيام. معجم البلدان : مادّة قفصة.

٣ — البيان المغرب : ج ٣ ص ١٦٩.

٤ — المنّ : ج ٢ ص ١٥٧.

٥ — المنّ : ج ٢ ص ١٥٧.

٦ — المنّ : ج ٢ ص ٤٥٨.

لذلك فإنّ وجود هذا الخليفة في الأمّة رحمة من الله لها ، كما يقول ابن حربون :ـ

بُعِثْتُمْ لهذا الخلقِ أمناً ورحمـةً   على حين لم يلقوا على الأرض راحِمـا (١)

وقد ربط أبو الحكم بن رضى البلنسي بين أسمى صور الشجاعة ، وأروع مظاهر العناية بالأمّة عندما أشاد بالخليفة يوسف :ـ

ثَبتُ الجنان ربيطُ الجأش ذو رعةٍ   إذا تُعارِضُ تأويلٌ وتأويـلُ
عِلْماً بأنّ الرّعايا في كفالتِـهِم   وأنّه عنهمُ لا بدّ مسئـولُ (٢)

ولغير اهتمام الخليفة يوسف بالأمّة ، وشدّة عنايته بها ، فقد بدا كأنّه أب حان على ابنائه ، أو ابن بار بآبائه ، كما يقول الاستاذ ابن سيّد :ـ

عمّ البريّة رفقُه فكأنّـهُ   لهمُ أبٌ حانٍ أو ابنٌ مُشْفِـقُ (٣)

أشارت المصادر الى عناية الخليفة المنصور بالأمّة ، وقيامه على أمرها ، وسهره على مصالحها (٤). وقد كان لذلك أصداء واضحة في الشّعر. ولعلّ في الأبيات التالية ما يوضح ذلك :ـ

وأضفَى على الدُّنيا ملابسَ رحمـةٍ   نُضارتُها في كلّ حين تجـدّدُ
وأخضل أرجاء الرُّبا فكأنّمـا   عليها من النبتِ النضيرِ زبرْجَـدُ
فمن طربٍ ما أصبح البرقُ باسِمـاً   ومن فرحٍ ما أضحت المُزْنُ تُرعِـدُ
وغنّى على أفنان كلّ أراكـةٍ   غذاها حَيا النُّعمى حمامٌ مغـرّدُ
وكبّر ذو نطقٍ ، وسبّح صامـتٌ   وكاد به المعدومُ يحيا ويوجَـدُ (٥)

فقد قدّمت الأبيات صور معبّرة أوضحت مدى عناية المنصور بالأمّة ، فهو قد أحياها ، وأضفى عليها ملابس الرحمة والعطف ، فازدهت الأيام ، وكثرت الأرزاق ، ونمت الخيرات ؛ لذلك فإنّ مظاهر الوجود عبّرت عن فرحهـا بعهد هذا القائد .

---

١ ــ المنّ : ج ٢ ص ٣٨٧ .
٢ ــ المنّ : ج ٢ ص ٤٢٣ــ٤٢٤ .
٣ ــ المنّ : ج ٢ ص ٤٥٦ .
٤ ــ انظر : المعجب : ص ٤٦٢ و ص ٣٦٥ .
٥ ــ النفح : ج ١ ص ٦٠٩ .

والبطل في شعر الجهاد واسع العلم، غزير المعرفة، معتن بالفكر، قائم عليه، ولا غرابة في ذلك، فالعلم سلاح ماض في المعركة.

فقد أشاد أبو جعفر بن سعيد بعناية عبد المؤمن بالآداب، وقيامه على أمرها، على الرغم من الكبر الذى يظهره الشعراء، يقول : —

يقوم على الآداب حق قيامها ويكبر عما يظهرون من الكبر (١)

وتشير المصادر إلى المجالس العلمية التي كان يقيمها الخلفاء الموحدون في قصورهم، وقد أشار ابن حربون إلى تلك المجالس في قصيدة مدح بها الخليفة يوسف، مذكرا بوقيعة السبيكة. ومما ورد فيها قوله : —

مجالسهم روضات نجد يزينها من النور أجناس توام وفارد

مجالس لو ترقى الكواكب نحوها لقد بات تلميذا لديهم عطارد

لقد عمرت بالعلم حتى كأنها لكثرة ذكر الله فيها مساجد (٢)

ويظهر من الأبيات أن العلوم الدينية كانت من أكثر العلوم التي عمرت بها تلك المجالس، فهي لكثرة ذكر الله فيها تخال مساجد.

ولم يكن اهتمام الخلفاء الموحدين مقصورا على العلوم الدينية، وإنما شمل علوما أخرى. وقد أشار إلى ذلك شاعر مجهول، فأشاد بعناية المنصور بأصول الشريعة وبغيرها من العلوم الجديدة التي لم تعهد من قبل : —

معيد علوم الدين بعد ارتفاعها وصبدي علوما لم تكن قبل تعهد (٣)

ويستشف من البيت اهتمام الموحدين بعلم أصول الدين، وهو اهتمام نابع من من دعوتهم إلى الأخذ بالكتاب والسنة، ونبذ كتب الفروع التي راجت على عهد المرابطين. وقد اعتبر الشاعر الخليفة المنصور معيدا تلك العلوم — أى علوم أصول الدين — بعد ارتفاعها، ولا غرابة في ذلك ؟ فقد أبدى هذا الخليفة تشددا كبيرا في دعوة الناس الى الأخذ بأصول الشريعة، وترك كتب الفروع، لذلك فقد أحرق أعدادا ضخمة من تلك الكتب (٤).

---

١ — المغرب : ج ٢ ص ١٦٥.
٢ — المن : ج ٢ ص ٢٤٧.
٣ — النفح : ج ١ ص ٦٠٩.
٤ — العبر في خبر من غبر : ج ٤ ص ٢٨٩، مخطوط الوافي بالوفيات : ج ٢٦ ورقة ٥٢.

وقد استوحى عبد الواحد المرّاكشي سيرة الخليفة العبّاسي المنصور وعنايته بالفكر عندما أشاد باهتمام إبراهيم بن أبي يوسف — وهو أحد امراء الموحدين — بالعلوم، وقيامه على أمرها، فربط بين الشخصيّتين على النحو التالي : —

أحْيَيْتَ المنصورَ فهو كأنّه لم تَفْتَقِدْهُ معالمٌ وعلومُ (١)

ولم يكن العلم بعيدا عن ميدان المعركة، فهو سلاح فعّال يعتمد عليه في قتال العدوّ. فقد استعمل الخليفة المنصور القلم إلى جانب السيف في جهاد الأعداء كما يقول ابن مجبر : —

رأى العداة، ومنهمْ من دنا ونأى فاستعملَ الماضيين: السّيفَ والقلمَا (٢)

وقد كان من الخلفاء الموحّدين أنفسهم علماء (٣). لذلك أشار الشعراء الى هذه النزعة وأفاضوا فيها .

فالخليفة عبد المؤمن علمه بارٍ للناس جميعا : —

خليفةُ اللّهِ بادي العلمِ مبتسمٌ عَنْ جوهرٍ من بديعِ النظمِ مُنْتَخَبِ (٤)

وهو — أي عبد المؤمن — لا يستأثر العلم لنفسه، وإنّما لا يزال يهدي الأمّة، ويريها معالم دينها، فإذا دخل عليه الجاهل خرج من عنده عليما، رشيدا، لبيبا : —

وعلّمت الجهول فليس إلاّ عليمٌ راشدٌ فطنٌ لبيبُ
وأوسعت الأنامُ هدى يُريهم معالمُ دينهم وندى يصوبُ (٥)

ولقد أشار الشوّاش الشّلبي إلى النشأة العلمية التي نشأها الخليفة يوسف، حيث قال : —

غرّ لبيبٌ، والعلوم لداتُهُ والمعلوات كرائما داياتُهُ (٦)

ولفيض علم هذا الخليفة — أي يوسف — فإنّ الجاهل إذا دخل عليه خرج من عنده عالما : —

فيُرجِعُ عنه جاهلٌ وهو عالِمٌ ويُرجِعُ عنه معدم وهو واجِدُ (٧)

---

١ — المعجب : ص ٣٨٧ .
٢ — زاد المسافر : ص ٥٣ .
٣ — المعجب : ص ٣٠٦، مخطوط الحلل السندسيّة : ورقة ٤٦، مخطوط الوافي بالوفيات : ج ٢٦ ورقة ٥٢ .
٤ — المنّ : ج ٢ ص ١٦٣ .
٥ — المن : ج ٢ ص ٢١٢ .
٦ — المن : ج ٢ ص ٢٦٠، وقارن بما ورد في ص ٢٤١ .
٧ — المن : ج ٢ ص ٢٤٧ .

والبطل في شعر الجهاد أصيل النّسب. والإشادة بنسب الممدوح تقليد شعري نشأ عن اهتمام العرب البالغ بأنسابهم. وقد اختلف المؤرّخون القدامى في نسب الموحّدين : فبعضهم أقرّ لهم النّسب العربي القيسي الذي ادّعوه (١) ، وبعضهم خلع عنهم ذلك النّسب، وجعلهم في البربر (٢). أمّا ابن خلدون فردّ أصلهم إلى البربر، وجعل نشأتهم في العرب (٣).

أنكر الباحثون المحدثون النسب القيسي للموحّدين دون أن يعتمدوا في ذلك على دليل علميّ، وجعلوا تشبّث الموحّدين بذلك النسب من مقتضيات الخلافة المهدويّة، التي من شروطها النسب الذي يرتفع إلى آل البيت (٤). ومهما يكن من أمر، فهم قوم الإسلام دينهم، والعربيّة لغتهم.

والمراجع للأشعار التي تعرّضت لنسب الموحّدين يلاحظ أنّ الشعراء غالبا ما يصدرون في إشادتهم بنسبهم عن بيان لحقهم في الخلافة دون غيرهم. ممّا يعزّز القول أنّ تشبث الموحّدين بالنسب القيسي ضرورة سياسية. ولكنّ ذلك لا يجزم القول في نسبهم.

وقد تكون الإشادة بنسبهم إشادة تقليديّة خالية من الأغراض السياسيّة. وقد يستغل بعض الشعراء ذلك في إثارتهم وحثّهم على جهاد الأعداء.

فقد استوحى ابن سيّد الاشبيلي تعاليم الموحّدين في الإمامة عندما حثّ القبائل العربيّة على الاقتداء بالموحّدين، يقول : ـ

هلاّ اقتدَوا بسُراة قيس إنّها ... جازت بمنصبها كريم المَنصبِ
ترضى إذا رضي الخليفة دائما ... وكذاك إن يغضبْ لحقّ تغضبِ (٥)

فالشاعر لم يشد بنسب الموحّدين القيسيّ إلاّ لكي يحثّ القبائل العربيّة على الاقتداء بهم، والإذعان لهم. وتتضح آثار الفكر الموحّدي في البيت الثاني عندما دعا الشاعر هؤلاء العرب إلى الرّضى المطلق عمّا يريده الخليفة، لأن الخروج على الإمام كفر كما يرون (٦).

---

١ ــ نظم الجمان : ج٦ ص ٣٤، أخبار المهدي : ص ٢١، القرطاس : ص ١٧٢، الحلل الموشّية : ص ٨٤، مخطوط الحلل السندسيّة : ورقة ١٣.
٢ ــ المعجب : ص ٢٤٥.
٣ ــ تاريخ ابن خلدون : ج ٦ ص ٤٦٤ــ٤٦٥.
٤ ــ الدولة الموحّدية : ص ٨٥، عصر المرابطين والموحّدين : ج ١ ص ٢٢٢.
٥ ــ اليمن : ج ٢ ص ١٦٩.
٦ ــ أعز ما يطلب : ص ٢٥٢.

والخليفة يوسف حقيق بالخلافة، وجدير بها، لأنّه من قبيلة قيس العربيّة : ـ

تَسَرْبَلَها من سرّ قيسٍ محبَّبٌ ... إلى الناسِ ميمونُ النقيبة زاهدُ (١)

أمّا الخليفة المنصور فانّه ينحدر من دوحة قرشية شمّاء، أصلها في الأرض، وفرعها في السّماء، لذلك فهو حقيق بميراث الخلافة : ـ

هي الدّوحة الشمّاءُ في الأرضِ أصلُها ... وقد زاحمت منها السّماءَ الذّوائبُ

له نسبة قيسيّةٌ قرشيّةٌ ... تقرّ لها بالمعلواتِ المناسبُ

حقيقٌ بميراث النبوّة والهُدى ... ولا عجب، إنّ المزايا مواهبُ (٢)

وقد راوح أبو الحكم بن رضى البنلسي بين المعاني التقليديّة والأهداف السياسيّة عندما أشاد بنسب الخليفة يوسف، حيث قال : ـ

من قيس عيلانَ حيثُ المُلْكُ متّسقٌ ... وحيثُ كلّ فعال الخير مفعولُ

وحيثُ للأمر قسطاطٌ دعائمُه ... قنا لدان، وأسياف مقاصيلُ*

قوم إذا ما رضوا فالرّوض حوزتهم ... وإن هم غضبوا فالحَوْزة الغيلُ

القائمين بأمر الله لا رُهُنٌ* ... ولا كُسالى ولا عُزْل مَهابيلُ (٣)

فقد جعل الشاعر الاشادة بنسب الموحّدين، وبما يتّصفون به من خصال كريمة، مقدّمة بين يدى غرضه الذّى أراد الوصول اليه، وهو القول : إن هذه الفضائل تؤهّلهم لحكم المسلمين.

ويتّخذ بعض الشعراء نسب الموحّدين وسيلة لاستثارتهم، وحثّهم على جهاد الأعداء. ويبدو هذا في الأبيات التالية لابن المنخّل الشّلبي : ـ

ورأت عداةُ الله أنّ حمامُها ... من قيس عيلان فكنت حمامُها

فعلى رماحك أن تشقّ جيوبَها ... وعلى سيوفك أن تفلّق هامُها

وعلى جيوشك أن تدوّخ أرضَها ... وتدوس في عَرَصاتِها أصنامُها (٤)

---

١ — المنّ : ج ٢ ص ٣٤٦.
٢ — البيان المغرب : ج ٣ ص ١٥٢.
* — أسياف مقاصيل : أسياف قاطعة. لسان العرب : مادّة ((قصل)).
٣ — المنّ : ج ٢ ص ٤٢٤.
٤ — المنّ : ج ٢ ص ٤٥٨.

ويربط ابن حربون بين أسمى صور الشجاعة الموجّهة لخدمة الدّين الحنيف، وبين نسب الموحدين ، حيث قال : —

إذا ما دَعَتْ قيس بدعوة هاشم ... ذرتْ من رماح المعتدين هشائما !
بنو الملك المرهوب في الأرض كلّها ... ومن ملأ الدّنيا لُهَى وملاحِمًا!(١)

وقد ينهج بعض الشّعراء في إشادتهم بنسب الموحّدين نهجا تقليديا خاليا من الأغراض السياسيّة. ويظهر هذا في قول ابن حربون : —

عليه من سراة بني علي ... عليّ لا يُضاف إليه عابُ
كسوبُ الحمد متلافٌ وهوبٌ ... كمثل البحر يُرجى أو يُهابُ(٢)

وغالبا ما تكون الاشارة التقليديّة في القصائد التّي قيلت في غير الموحّدين. فعندما استشهد قائد الأعنّة ببلنسية، قال ابن حزمون موشّحة رثاه فيها . وقد خلع عليه مجموعة من الفضائل، من بينها : أصالة النسب(٣).

وعندما استشهد أبو سليمان الكلاعي في معركة أنيشة، أشاد ابن الأبّار بمناقب الفقيد، ومن ضمنها : أصالة نسبه. حيث قال : —

قضى حاملُ الآداب من آل يعرب ... وحامي هدى المختار من آل هاشم
يمان كلاعيّ نماهُ إلى العُلى ... تمام حواهُ قبلَ عقد التمائم(٤)

تلك هي أبرز الفضائل والمثل العليا التّي خلعها الشعراء على البطل المسلم في عهد الموحّدين. وقد تبدّت فيها البطولة العربيّة الإسلاميّة بجانبها الحربي والخلقي والنفسي. فقد صوّر الشعراء ما كان يملأ حياة أولئك المجاهدين من نشاط فيه الأمل والابتهاج، وفيه الثقة بالنفس، والإيمان بالحقّ، والارتفاع عن صغائر الأمور، والسموّ إلى المثل العليا.

---

١ — المنّ : ج ٢ ص ٣٨٦.
٢ — المنّ : ج ٢ ص ٢٦٤.
٣ — انظر : المغرب : ج ٢ ص ٢١٧.
٤ — الذيل والتكملة : ج ٤ ص ٩٢ و ص ٩٣.

والشّعراء إذ يصوّرون أبطالهم شجعانا كرماء . . . فإنّهم يستوحون قيم المجتمع الموحّدي ومثله العليا ، ذلك المجتمع الذّي عمل قادته جاهدين لإحياء روح البطولة والفروسيّة فيه (١) . وبذلك لم تكن البطولة في شعر الجهاد مجرّد فكرة ، وانّما هي بطولة مارستها الجماعة الاسلاميّة .

ومع ذلك فإنّ الشعراء لم يأتوا بمعان جديدة حين مجّدوا بطولة المجاهدين المسلمين . وإنّما هي معان مستوحاة من القيم والمثل العربيّة الاسلاميّة . فالعرب منذ جاهليتّهم يفخرون بالشجاعة ، والكرم ، والحلم . . .

كما أنّ الإسلام حثّ على التحلّي بالمثل العليا ، وقد تغنّى الشعراء المسلمون بذلك . إلاّ أنّ الشعراء المغاربة والأندلسيين أضفوا على تلك المعاني — في بعض الأحيان — لمسات مستوحاة من الفكر الموحّدى .

ويلاحظ أن الشعراء لم يكونوا يُعنَوْن بتصوير أبطالهم تصويرا خُلْقيّا ، وانّما اهتمّوا بإبراز صفاتهم الخُلُقيّة والنّفسيّة . وجلّ ما يقولونه عن أجسامهم ، أنّها قويّة ، وأنّ وجوههم وضاءة .

ويظهر أنّ الشعراء لم يكونوا يعنون إلاّ بتصوير بطولة الخلفاء الموحّدين الأول . ولا تثريب عليهم ، فقد كان أولئك الخلفاء بحقّ هم أبطال الصراع بين المسلمين والصليبيين . إلاّ أنّ ذلك لا يعني أنّ الشعراء أغفلوا تصوير البطولة الجماعيّة للجيوش الإسلاميّة . فهم لم يصوّروا البطل وحده ، وإنّما صوّروا جماعة المسلمين المجاهدين معه .

ولم يجد الدّارس شعرا يمجّد البطولة والأبطال بعد الخليفة المنصور إلاّ قليلا . ولا غرو في ذلك ، فإنّ الخلفاء التالين لم يحققّوا للأمّة انتصارات كتلك التّي حقّقها الخلفاء الأول . بل أنّ جلّ المعارك التي خاضها المسلمون حينئذ لم يحظوا بسهم وافر فيها . وشعر البطولة لا يعيش إلاّ في جوّ مفعم بالحماسة والانتصارات الحربيّة .

وقد مال الشعراء أحيانا إلى المبالغة في تمجيد البطولة . ولعلّ ذلك يعود إلى طبيعة الموقف ، وهو موقف حماسي ، وما يكتنفه من أجواء انفعاليّة تدعو إلى المبالغة في الوصف والقول . وقد تكون المبالغة من الوسائل التّي تذّرع بها الشعراء للزّيادة في المعاني القديمة ، وللإتيان بالمبتكر من الشعر ، هذا إذا علمنا أنّ الشعراء أسرفوا في محاكاة الشعر القديم . إلاّ أنّه لا يمكن أن نغفل أثر المعتقدات الموحّدية في الإمامة حين

---

١ — الحلل الموشيّة : ص ١٢٥ .

تعليل ذلك. فالموحدون يرون — كما يرى الشيعة — أنّ الامام — وهو البطل غالبا — يعيى البلغاء عن وصفه، ويقرون بالعجز، وأنّ أي وصف للإمام يكون ناقصا (١). لذلــــك فإنّ الشعراء لا بد أنّ يلجأوا الى المبالغة في وصف البطل حتّى يوفّوه حقه، أو يصلـــوا إلى شيء من خصالــــه.

وجملة القول : إنّ الأمّة إذ تخلع على أبطالها معاني البطولة، فإنّها تعترف بفضلهم، وتقدّر جهودهم، وتقرّ بتفوّقهم وتميّزهم. وقد قدّم الشعراء بذلك صورة عن البطولـــة الإسلاميّة في الأندلس والمغرب في القرن السادس الهجرى.

---

١ — ضحى الاسلام: ج ٣ ص ٢١٦.

الفصل الثالث

صورة الصليبيين في شعر الجهاد

أ) عقيدة الصليبيين .
ب) الجيش الصليبي .
حـ) تصوير هزائم الصليبيين .
د) القائد الصليبي .
هـ) الصراع الحضاري .
و) حلفاء الصليبيين .

صورة الصليبيّين في شعر الجهاد

ترك الصراع الذي استمرّ في الأندلس بين الموحّدين والصليبيّين زهاء قرن من الزّمان صورة خاصّة عن العدوّ الصليبيّ في شعر الجهاد .

وغالبا ما كان الاتصال بين المسلمين والصليبيين مقصورا على ميدان القتال ، فأثّر ذلك في طبيعة الصورة التّي قدّمها الشعراء المسلمون للأعداء . فقد صوّروهم تصويرا يثير الحفيظة . ويبين خطرهم ، ويحذّر المسلمين منهم . وهم بذلك يعبّرون عن موقفهم ، وبالتالي موقف الجماعة الإسلاميّة التي ينتمون إليها ، من أولئك المعتدين .

أ) عقيدة الصليبيين : -

كانت المشاعر الإسلاميّة تغمر الشّعراء وهم ينظمون قصائدهم الجهاديّة . يظهر ذلك في تركيزهم على عقيدة الصليبيين ، ونعتها بنعوت مستوحاة من طبيعة الصراع العقائدي . فقد نعت الشّعراء المسلمون الصليبيين بـ((الشرك)) ووصفوهم بـ((المشركين)) .

فهذا أبو المطرّف بن عَميرة يشير إلى أنّ ((الشّرك)) قد استولى على البلاد ، وصدّ المسلمين عنها ، مع حبّهم لها : -

وَيَصُدُّنا في ذاك عن أوطاننا — مع حبّها ، الشّركُ الذّي فيها ثَوَى(١)

ويقرّر موسى بن هارون* أنّ ((يد الشّرك)) قد اجتاحت مدينة إشبيلية ، ودمّرت المعالم الحضاريّة فيها : -

عَفَتْ يدُ الشّركِ ما شادَ الخلائفُ من — قصر ، ومن مصنعٍ ضخمٍ حكى إِرَما (٢)

أمّا سفن الموحّدين فسترزؤ ((الإشراك)) وتدمّره : -

تُطيرها الريّح غِربانا بأجنحةِ الـ — حمائمِ البيضِ للإشراكِ تَرزؤه (٣)

---

١ - النفح : ج ١ ص ٣١٠ .

* - لم نهتد الى ترجمته .

٢ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٨٣ .

٣ - النفح : ج ٤ ص ٥٩ ، مخطوط الوافي بالوفيات : ج ٢٦ ورقة ١٧ .

ويؤكد ابن الأبار أن سقوط المدن الإسلامية في أيدي الصليبيين هو سقـــوط في يد ((الإشراك)) ، يقول :ـ

مدائن حلها الإشراك مبتسماً　　　جذلان ، وارتحل الإيمان مبتئساً (١)

وعندما ذكر ابن حربون أرض الصليبيين ومعاقلهم وصفها بـ ((أرض المشركيـن)) ، يقول :ـ

واستقدمت للرعب كل كتيبـــة　　　شنت بأرض المشركين مغارهـا (٢)

لذلك فإن خيل المنصور ستنسف هذه الأرض نسفا ، كما يقول ابن الأبار :ـ

تهب على الأعداء منها عواصف　　　ستنسف أرض المشركين بها نسفا (٣)

كما نعت الشعراء المسلمون الصليبيين بـ ((الكفر)) ووصفوهم بـ ((الكافريـن)) . فهذا الخليفة عبد المؤمن يحدث نفسه ، ويعد أصحابه بغزوة تسيل فيها ((دماء الكفر)) :ـ

ولا بد من يوم أغر محجـــل　　　يسيل دماء الكفر في كل مذنـب (٤)

ويؤكد موسى بن هرون أن ((الكفر)) هو الذي اجتاح مدينة إشبيلية واستولى عليها ، يقول :ـ

سطا بها الكفر إذ قل النصير بها　　　فمن معز بها الإسلام ما سلمـا

لذلك فلا عذر للمسلمين في ترك هذه المدينة مسلمة له :ـ

لا عذر في تركها للكفر مسلمة　　　إن الزمان وأنتم فيه ماعقمـا (٥)

وعندما عبر الخليفة عبد المؤمن الى الأندلس سنة ٥٥٥هـ مدحه ابن سيد الاشبيلي بقصيدة ذكر فيها حالة الهلع والاضطراب التي انتابت ((أهل الكفر)) منه ، حيـث قال :ـ

أضحى بكرته الإسلام في جـذل　　　والمشركون وأهل الكفر في جـدل (٦)

وقد صور ابن سيد المالقي(٧) الصليبيين تصويرا يثير الحفيظة عندما وصفهـم بـ ((الكفر)) الذي عض المسلمين بأنيابه بعد ما كان عاجزاً عن ذلك فترة من الوقـت ،

---

١ — النفح : ج ٤ ص ٤٥٧ ، تاريخ ابن خلدون : ج ٦ ص ٦٠١ .
٢ — المن : ج ٢ ص ٢٦٥ .
٣ — النفح : ج ٣ ص ٢٣٩ .
٤ — المن : ج ٢ ص ١٢٤ ، البيان المغرب : ج ٣ ص ٤١ .
٥ — البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٨٣ .
٦ — المن : ج ٢ ص ١٥٨ .
٧ — هو أحمد بن حسن بن سيد الجراوي المالقي ، أحد الأدباء الذين عاشوا فـي البلاط الموحدي . درس النحو والأدب ، وكان شاعرا كاتبا بليغا . انظر المن : ج ٢ ص ١٢٧ .

يقـــول : ـــ

فقد عضَّهم ناب من الكفر معضِــل وكانوا بكم دهرا وأنيابه درْدُ (١)

وإذا ما ذكر الشعراء أرض الصليبيين نعتوها بـ((أرض الكفر)) ، لذلك فانّ المسلمين بفتحها يعيدونها إلى الحقّ كما يقول أبو الحسين بن صاحب الصلاة : ـــ

فطائف بأرض الكفر حتّى أعادهـــا إلى الحقّ ، وانقادَ الأبيّ المشاقِـــق (٢)

وكذلك فانّ جيشهم ((جيش الكفر)) كما يقول ابن الأبّار : ـــ

سرعانَ ما عاثَ جيشُ الكفر واحربـــا عيثَ الدّبا في مغانيها الّتي كَبَسـا (٣)

وقد نعت الشعراءُ الصليبيّين بـ((الضلال)) . فهذا ابن سهل الأندلسي يحثّ ابنَ الجدّ (٤) على حسم ((الضلال)) وقطع دابره : ـــ

فانهضْ بجدّك في حسم الضلالِ كما دبّ السّنا في الدّجى ، والبرءُ في سَقمِ (٥)

وقد استوحى أبو المطرّف بن عميره المعنى القرآني (٦) عندما أشار إلى إظـــلام نهار بلنسية عندما احتلّها الصليبيّون الضلاّل، بعدما كان ليلها منيرا بهدى المسلمين ، حيث قال : ـــ

قد كان يُشرقُ بالهداية ليلُـــه والآن أظلم بالضلال نهـــارُه (٧)

وقد نعت أبو العبّاس الجرّاوي الصليبيين بـ((أهل الضلالة)) في قصيدة وصـــف فيها ما حلّ بهم عندما فتح المسلمون مدينة بطليوس ، حيث قال : ـــ

ألقى على أهل الضلالةِ كلكَـــلاً فلهم عويلٌ تحته وأنيـــــنُ (٨)

وقد صوّر الأمير الشاعر أبو الربيع الموحّد الصراع صراعا عقائديا بين ((جيـــش الضلال)) و ((جيش الحق)) في قصيدة مدح فيها الخليفة المنصور : ـــ

---

١ ـــ المنّ : ج ٢ ص ١٢٨ .

٢ ـــ المنّ : ج ٢ ص ١٦٧ .

٣ ـــ النفح : ج ٤ ص ٤٥٧ .

٤ ـــ هو حفيد الحافظ الشهير أبي بكر بن الجدّ ، وقد اضطلع بدور محمود في حماية إشبيلية والدفاع عنها في أواخر العهد الموحّدي . انظر : البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٥٧ و ص ٣٨١ ، عصر المرابطين والموحّدين : ج ٢ ص ٤٧٠ـــ٤٧٣ .

٥ ـــ ديوان ابن سهل : ص ٨٣ .

٦ ـــ سورة النّور : آية ٣٥ .

٧ ـــ صفة جزيرة الأندلس : ص ٥١ .

٨ ـــ البيان المغرب : ج ٣ ص ٨١ .

جيش الضلال بجيش الحقّ مهــزوم فنقّد العزم ان الفتح محتــوم (١)

ومن النعوت التي وصف الشعراء بها عقيدة الصليبيين ((الالحاد)) يظهر هذا في قول ابن سيد المالقي الذي هدّد ((أولى الألحاد)) بقوة المسلمين حيث قال :-

ستلقى بلاد الروم من حتوفهــا ويخشى أولى الالحاد من ذكر جهــد (٢)

وعندما هدّد ابن حربون الصليبيين استعار نعت ((ذوى الالحاد)) ووصفهم به ، حيث قال :-

فالآن قل لذوى الالحاد شأنكــم نما لكم دون هذا الأمر ملتحــد (٣)

وقد استعان ابن حربون بالمعنى القرآني عندما وصف الصليبيين بـ ((النفــاق)) وأشار الى تيقظ المسلمين لهم ، وفتكهم بهم ، يقول :-

فليس يصعد شيطان النفاق بهــا الا تلقاه من خرصانهــا رصــد (٤)

ولما كان الصليبيّون ملحدين - كما يرى الشعراء - فقد وصف ابن حربون أرضهم ((أرض الملحدين)) وأشار الى ما نالها من بأس المسلمين ، حيث قال :-

فأن أرض الملحدين لبأسكــم ثكلى تمزّق صدرها وعـ اربـا (٥)

وقد نعت أبو موسى بن هرون عقيدة الصليبيين بأنها عقيدة ((تثليث)) . وهو نعت مستوحى من الأقانيم الثلاثة التي تقول بها الديانة النصرانيــة .

ثارت حفائظ للتثليث فابتــدروا وأيقظوا من سنات الفتنة الهممــا (٦)

كما نعت القرشي العامري (٧) الصليبيين بـ ((أهـل الوثـن)) ، حيث قال :-

---

١ - ديوان أبي الربيع : ص ٣٢ .

٢ - المنّ : ج ٢ ص ١٣٢ .

٣ - المن : ج ٢ ص ٢٥٥ .

٤ - المن : ج ٢ ص ٢٥٦ .

٥ - المن : ج ٢ ص ٢٦٦ .

٦ - البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٨٤ .

٧ - هو ابراهيم بن خلف بن محمد بن فرقد القرشيّ العامرّي ، كان متفنّنا في معارفه ، محدّثا حافظا شاعرا ، توفي سنة ٥٧٢ هـ . انظر الاحاطة : ج ٣ ص ٢٦٤ - ٢٦٧ .

وكانت رباطا لأهل التُّقَى ... فعادت منالا لأهل الوثنْ (١)

وأخال أنّ الشاعر قصد بـ((الوثن)) تمثال السيّدة العذراء.

وقد ردّد الشّعراء ذكر ((الصليب)) في قصائدهم. ولا غرو في ذلك، فهو شعار الحرب التي خاضها العدوّ ضدّ المسلمين ليستثير الحماسة الدينية للنصارى. ولفرط تشبّث الأعداء بـ((الصليب)) ، وفرط تعلّقهم به، فقد نعتهم ابن سيد الاشبيلي بـ((آل الصليب وحزبه))، وتوعّدهم، وهدّدهم بالقتل ، حيث قال : —

لا أين يا آلَ الصليب وحزبَه ... حتّى يعمَّ القَتلُ كلَّ مُصَلِّبِ (٢)

كما نعتهم ابن حزمون بـ((ذوي الصّلبان)) ، وصوّر ملاحقة خيول المسلمين لهم في معركة الأرك، حيث قال : —

أذوي الصلبان وَراءكم ... خيلُ الملك الخبر النَّسورِ (٣)

فقد نظر ابن حزمون وابن سيد الإشبيلي إلى ((الصليب)) باعتباره رمزا للديانة النصرانية، وسمة تميّز الصليبيين دون غيرهم، لذلك فإنّ أحد أهداف جهاد المسلمين ضدّ أعدائهم تكسير صلبانهم كما يقول أبو بكر بن المنخّل الشلبي : —

ضمانٌ عليكمْ أن تُبيحوا حَريمَه ... وأنْ تكسِروا فيها التماثيلَ والصُّلبا (٤)

وغالبا ما كان هذا ((الصليب)) عزيزا ، صُلبا، متينا ، إلاّ أنّ ضربات المسلمين أهانته وكسّرته . فقد أشار عبد المؤمن الى الصلبان الكثيرة التي كسّرها المسلمون في مدينة المهديّة عندما فتحوها سنة ٥٥٥ هـ، حيث قال : —

وكُسِّرتِ الصلبانُ في كلّ بيعةٍ ... ونادى منادي الحقّ في كلّ مرقبِ (٥)

ويذكر عبد الواحد المرّاكشي أنّ ابراهيم بن أبي يوسف(٦) قد سلّط بأسه على الصليبيين فكسر صلبانهم : صغيرها وكبيرها ، وفتك بعلوجهم، وقضى عليهم، حيث قال : —

---

١ — الاحاطة : ج ١ ص ٣٦٦ .
٢ — المنّ : ج ٢ ص ١٧٠ .
٣ — المعجب : ص ٣٧١ .
٤ — المنّ : ج ٢ ص ١٥٢ .
٥ — المنّ : ج ٢ ص ١٢٤ ؛ البيان المغرب : ج ٣ ص ٤١ .
٦ — سبقت الترجمة له : انظر : ص ٤٨ .

يَذرُ الصليبَ صغيرَهُ وكبيـــرَهُ   فيها جُذاذاً، والعُلوج جثـــومُ(١)

وكما كان ((الصليب)) رمزا للديانة النصرانيّة، فقد كان له عند بعض الشعراء معنى حضاري، ويظهر ذلك جليّا في البيت التالي من قصيدة لشاعر مجهول قالهـــا عند سقوط بلنسية :—

بأبي مدارس كالطلول دوارسٌ   نَسَخَتْ نواقيسُ الصليب نداءهَـــا (٢)

فقد نظر الشّاعر إلى ((الصليب)) باعتباره رمزا لديانة الصليبيين وحضارتهـــم، لذلك فإنّه اعتبر علوّه وانتصار أهله ثلمة للحضارة الإسلاميّة، وتمكينا للحضارة الصليبيّـــة.

---

١ — المعجب : ص ٣٨٧ .

٢ — النفّح : ج ٤ ص ٤٨٠ .

ب) الجيش الصليبي :ـ

قدم الشعراء أثناء حديثهم عن بعض جوانب الصراع العسكري بين المسلمين والصليبيين صورا مقتضبة للجيش الصليبي ، تظهر أنه جيش ضخم كثير العدد . فقد أشار ابن حزمون إلى كثافة الجيش الصليبي الذي اشترك في معركة الأرك ، وصور الهيئة التي خرج عليها . حيث بدا جنده متباهين بكثرتهم ، ومغرورين بقوتهم ، وواثقين من ضخامة جيشهم الذي ضاقت به الأرض . إلا أن المسلمين شدوا عليهم ، وفتكوا بهم . يقول :ـ

جاءوكَ تضيقُ الأرضُ بهم ... عددا لم يُحصَ ولم يُقَس

خرجوا بطرا ورئاءَ النّاس ... ليختلسوا مع مُختلِس

*

فأناخ الموتُ كلاكله ... بطباكَ على بشر رجس(١)

وقد صور موسى بن هارون ضخامة الجيوش الصليبية التي تقدمت نحو مدينة إشبيلية لاحتلالها ، وأشار إلى العنف الذي أخذ به المعتدون تلك المدينة ، حيث قال :ـ

ويمّموا حمصَ في جمعٍ يضيق به ... ذرعُ الفضاء فسوّى الوهدَ والأكَما

فالبحرُ بالمنشآت ارتجّ من ذعر ... والبرّ بالمرجفات الماع فاكتتما

واستوطنوا النهر في الوادي وقاطعهم ... جسرٌ من الفلكِ لا تشكو به السأَما

*

وقد أحاطت بنا الأعداء فاغرةً ... أفواهها تبتغي أرواحنا طعما

عادت سوارا على سور المدينة قد ... اقتاد عصا *وكم من معصمٍ عصما (٢)

ويصور التعبير الشعري ضخامة الجيوش الصليبية التي اشتركت في احتلال مدينة إشبيلية . فهناك الجموع البرية الضخمة التي ضاق بها ذرع الفضاء ، والحشود البحرية الكثيفة التي ارتج لها البحر ذعرا .

وقد صور الشاعر بتعبير موج الإمدادات المتتالية التي كانت تصل إلى العدو عن طريق البحر . فقد كان الأعداء دائبين على دعم قوتهم ، وشحن الأسلحة ، ونقل

---

١ ـ المعجب : ص ٣٧١ .

* ـ الوزن مكسور .

٢ ـ البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٨٢ ـ ٣٨٣ .

الجند ، لا يمسّهم في ذلك سأم أو تعب .

وندرك من الأبيات القسوة التي أخذ بها الأعداء مدينة إشبيلية ، وعنف الحصار الذي ضربوه حولها . هذا وقد كان الحصار من الوسائل القاسية التي لجأ إليها الصليبيّون لأرغام المدن الإسلاميّة على الاستسلام ، مثلما فعلوا في مدينة إشبيلية (١).

وقد صوّر الشعراء قوّة الجند الصليبيين وشجاعتهم ، وخاصة في المواقع التي ينتصر فيها المسلمون عليهم . وهم بذلك يستوحون تقليدا عربيّا أصيلا في وصف قوّة الخصم ، وذلك من أجل إبراز شجاعة الجند المسلمين ، وتصوير ضخامة الانتصار الذى حقّقوه . ويظهر هذا في الأبيات التالية للقائد أبي بكر بن عبد الله بن وزير الشّلبي (٢). يقول : —

ولمّا تلاقينا جرى الطعنُ بيننا — فمنّا ومنهم طائحون عديدُ

وجالَ غرارُ الهندِ فينا وفيهمُ — فمنّا ومنهم قائمٌ وحصيدُ

صَبرنا ولا كهفٌ سوى البيضِ والقَنا — كلانا على حرّ الجلاد جليدُ *

ولكن شَدَدْنا شدّةً فتبلّدوا — ومن يتبلّد لا يزالُ يحيدُ

فولّوا وللبيضِ الرّقاق بهامِهم — صليلٌ وللسّمر الطوال وُرودُ (٣)

وقد قال الشاعر هذه الأبيات في حرب ظهر فيها على الرّوم سنة ٥٨٧ هـ (٤) . وقد صوّر الأعداء جليدين ، صبورين على منازلة الأقران ، يبذلون وسعهم في سبيل النصر . إلاّ أنّه وجنده شدوا عليهم شدّة قويّة ، تخاذل الأعداء أمامها ، فولوا هاربين ، وقد أثخنتهم سيوف المسلمين ورماحهم .

وقد جرت عادة الشعراء على وصف الجند الصليبيين بالجبن ، والخوف ، والذعر والفرار . ولا تثريب عليهم في ذلك ، ((فالانتقاص من شجاعة الخصوم من الأمور التي درجت عليها الشعوب في حروبها)) (٥) ، لما لذلك من آثار نفسيّة تدعو الى الثقة .

---

١ — البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٨١ .

٢ — من أمراء كتائب اشبيلية المشهورين . توفي بعد حضوره معركة العقاب سنة ٦٠٩ هـ . انظر : النفح : ج ٤ ص ٣٨١ ، المغرب : ج ١ ص ٣٨٢ ، الحلّة السّيراء : ج ٢ ص ٢٧١ — ٢٧٥ .

٣ — النفح : ج ٤ ص ٣٨١ . وقارن برواية المغرب : ج ١ ص ٣٨٢ ، الحلّة السّيراء : ج ٢ ص ٢٧٣ .

٤ — الحلّة السّيراء : ج ٢ ص ٢٧٣ .

٥ — شعر الصّراع مع الرّوم : ص ٢٢٤ .

فصورة النعام الجافل صورة قديمة تدل على الجبن و الخوف. و قد اتكأ أبــو العباس الجراوى على هذه الصورة عندما وصف فرار الجند الصليبيين في احدى المعارك، حيث قال : —

جاءوا أسوداً لا تُنهنه فانثنــوا يَحكون في الحرب النّعام المُجْفِــلا

خاموا وراءَ النهر حتى أنهــم* ظنوه مسلولا عليهم مُنْصُــلا

فقد وصف الشاعر إقدام الأعداء وثقتهم بقوتهم، إلا أنهم ولوا مذعورين عندما أصلاهم المسلمون بنيران حربهم. وبتعبير تهكمي ساخر، صور الشاعر الرعب الذى دب في قلوب الأعداء. فهم لشدة خوفهم تمثل لهم النهر الذى جبنوا وراءه سيفا مسلــولا عليهم.

وإذا كانت ظروف الحرب، بما تولده من مشاعر جامحة، تدعوالى الاندفاع والمبالغــة في الوصف والقول، فان نظر أبي العباس الجراوى في شعر أبي الطيب المتنبي أوحى إليــه بذلك حين وصف رعب الأعداء. يقول : —

ألقتْ بمَنْ فيها المعاقلُ طاعــةً وإنابةً، عجَباً لها أن تَعْقِــلا (١)

فهذا القول يذكر بقول المتنبي التالي : —

ألقَتْ إليك دماءُ الروم طاعتَهــا فلو دعوتَ بلا ضربٍ أجــابَ دمُ (٢)

وقد أشار أبو العباس الجراوي كذلك إلى محاولات الصليبيين المتكررة للفرار من معركة فحص بلقون، حيث قال : —

وكمْ راموا الفِرارَ من الرزايــا ولكن أينَ من أجل فِــرار (٣)

كما أشار ابن مجبر إلى التجاء الصليبيين إلى الكهوف، واختبائهم فيها مــن المسلمين ، حيث قال : —

أو فارقَ المغرور منهم كهفَــه يوماً فكان له إليه إيــابُ (٤)

---

١ — شاعر الخلافة الموحدية : الملحق : ص ٨.
٢ — ديوان المتنبي : ج ٢ ص ٢٦٧.
٣ — البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٧.
٤ — زاد المسافر : ص ٥٣.

وقد تحدث الشعراء عن أسلحة العدو حديثا مقتضبا . من ذلك حديث موسى بن هرون عن ضخامة الأسطول الصليبي . وقد وصف ابن حزمون الخيول المدججة بالسلاح التي استخدمها العدو في المعركة التي استشهد فيها أبو الحملات ، قائد الأعنة في بلنسية ، حيث قال : —

إذا رأى الاعــلاجْ وكثــرا ثم انبرى بماصــعْ
رأيتهم كالدجــاجْ منفــرا وسط العراء الواســعْ

جالتْ بتلك الفجــوجْ تحت العجاج الأخضــر
خيولهم في سُــروجْ من الحديد الأخضــر

...............................(١)

ويقدم التعبير الشعري صورة ساخرة لجند الأعداء ، وقد كرّ عليهم أبو الحملات ، فتناثرت صفوفهم في الخلا الواسع ، وتبدت خيولهم مكتسبة لباسا سابغا من الحديد .

وقد وصف أبو العباس الجراوي حصون العدو وقلاعه التي استولى عليها المسلمون من الصليبيين في معركة الأرك . ويظهر أنها قلاع قديمة ، منيعة ، شاهقة الارتفاع ، موروثة عن الآباء والاجداد : —

وأسلم مما أثلته جـــدودُه نجوم قلاع تزحم الأنجمَ الزهـــرا
من النيرات الزهر ضوءاً ورفعـــةً وإن لم يسموها سماكا ولا نســـرا(٢)

وقد استعان أبو بكر بن مجبر بالمعنى القرآني عندما أشار إلى مسلك العدو في بث الجواسيس والعيون في صفوف المسلمين لاستراق السمع منهم ، إلا أن تيقظ الجند المسلمين يحول بينهم وبين ذلك ، حيث قال : —

هل دبّ منهم في حماكـــم دارجٌ إلا وصبّ عليه منك عقـــابُ
أو جاء مسترقا إليكـــم مـــاردٌ إلا وأحرقه هناك شهـــابُ(٣)

ومن الوسائل الفعالة التي طالما لجأ اليها العدو للفت من عضد المسلميـــن واضعاف قوتهم في الأندلس العمل على دب الفرقة بينهم ، فهم عندما رأوا تنازع المسلمين ،

---

١ — المغرب : ج ٢ ص ٢١٧ .
٢ — شاعر الخلافة الموحدية : الملحق : ص ٧ .
٣ — زاد المسافر : ص ٥٣ .

وتفرّق أهوائهم، عملوا جاهدين بما أوتوا من قوّة على توسيع الشقّة، وإحياء الأحقاد في نفوسهم، وذهبوا في ذلك إلى حدّ لو استطاعوا أن يحييوا الأحقاد بين الأموات لفعلوا. وقد أشار الى ذلك موسى بن هرون، حيث قال: —

لمّا تفرّقت الأهواءُ واضطرمَتْ	نار البغاة فقامت للرّدى عَلمَا
ونوزع الأمر أهلوه وقام بهِمْ	من لم يجدْ قِدَماً فيه ولا قَدَمَا
ثارتْ حفائظ للتثليث فابتدَرُوا	وأيقظوا من سناتِ الغفلةِ الهِمَمَا
وأنشروا ميت الأحقادِ بينهم	ولو أطاقوا لَعمري أنشروا الرِّمَمَا (١)

---

١ — البيان المغرب: ج ٣ ص ٢٨٢.

حـ) تصوير هزائم الصليبيين : ـ

رسم الشعراء صورة دموية لهزائم الصليبيين . وهي صورة يرى فيها منظر الفرار ، والقتل ، والأسر ، والسبي ، والتخريب ، والتدمير . ولا غرابة في ذلك ؛ فالصراع بالغ العنف . وأي عنف يفوق تعليق رؤوس القتلى بأبواب المدن(١) .

انعكس عنف الصراع على معاني القصائد ، بحيث أضحى التغني بقوة المسلمين ، والفتك بالأعداء ، وإلحاق الهزائم بهم ، سمة مميزة لهذا الشعر .

والصورة العامة لهزائم الصليبيين ، هي صورة جيش يجبن في المعركة ؛ فيولي الأدبار ؛ فتلاحقه جيوش المسلمين ، وتفتك به ، وتأسر من نجا من القتل منه .

فالقتلى الذين يكاثرون الحصى صورة قديمة استوحاها أبو العباس الجراوي عندما أشار إلى كثرة قتلى الصليبيين في إحدى المعارك . يقول : ـ

عددُ المصرَّع منهم عدد الحصى	هيهاتَ أنْ يُحصى وأن يُتحصَّلا
كم أجدلٍ منهم أدلَّ ببأسهِ	ما همَّ أنْ ينقضَّ حتّى جُدِّلا (٢)

وصورة القتلى الذين تناثرت أشلاؤهم فوق الهضاب ، فأكلت منها سباع الأرض حتى شبعت صورة قديمة أيضا . وقد اتكأ ابن حربون على هذه الصورة عندما تحدث عن كثرة قتلى الأعداء : ـ

قريتم سباعَ الأرض منها فأصبحت	كأنّ رُباها للعوافي موائدُ
كتائبُ كالخاماتِ خاموا فأصبحوا	* وهُمْ للسيوف المرهفاتِ حصائدُ (٣)

وكما ارتبطت صورة القتلى قديما بالسبع ، فقد ارتبطت بالطيور القشاعم التي تطير بالأشلاء . وقد استحوذت هذه الصورة على أبي العباس الجراوي عندما وصف قتلى الصليبيين في معركة الأرك : ـ

ألوفٌ غدت مأهولةً بهم الفَلا	وأمسَتْ خلاءً منهمُ دورُهُم قَفْرا
ودارت رحَى الهَيْجا عليهم فأصبحُوا	هَشيما طَحِينا في مهبِّ الصَّبا يُذرَى
يطير بأشلائهم كلّ قشعمٍ	فما شِئْتَ من نَسْرٍ غدا بَطْنُه قبرا (٤)

١ ـ انظر : المن : ج ٢ ص ١٩٨ .
٢ ـ شاعر الخلافة الموحدية : الملحق : ص ٨ .
٣ ـ المن : ج ٢ ص ٢٤٩ .
٤ ـ البيان المغرب : ج ٣ ص ١٩٧ ، شاعر الخلافة الموحدية : الملحق : ص ٧ .

وقد قدّم أبو الحكم بن رضى البلنسي صورة دموية لقتلى الأعداء في معركة السّبيكة . فمن أشلاء ممزّقة ، وهامات مفلّقة ، إلى جسد مفؤود ، وجسم مشكول : —

سائل بغرناطة عنهم ومرسية فعنهم خبرٌ في النّاس منقول
يجبك هامٌ وأشلاءٌ ممزّقة في كلّ قاع ومفؤودٌ ومشكول (١)

ويرتبط حديث الشعراء عن هزائم الروم بوصف التدمير والتخريب الذى يلحق ديارهم بعد الطارك . فقد صوّر أبو الربيع الموحّد ديار الصليبيين خاوية على عروشها ، بعد أن دمّرها المسلمون ، وهجرها أهلها خوفا منهم : —

هذى ديار العدا يباب تعوي بأرجائها الذّئاب
أجلى من الخوف ساكنوها فعمّها النهب والخراب (٢)

وقد ظلّت خيول المسلمين في معركة الأرك تلاحق فلول المنهزمين : فجاست خلال ديارهم ، وعاثت فيها ، ولم تترك مكانا إلاّ داسته ، ممّا جعل الأعداء يلجأون إلى الجبال الشاهقة ، يحتمون بها : —

جاست جنبات الكفر فلم تترك لهم مالم تجس
لم يبق بها مثوى رجل إلاّ وعليه شذى فرس
لحقوا بقرون الشمّ فلا سُقيا لطلولهم الدّرس (٣)

وقد أشار الشعراء إلى أسرى الصليبيين ، وجلّ ما قالوه عنهم : أنهم سلّموا أنفسهم إلى المسلمين ، وأنّهم من فضلات القتل ، ولم يكن من السهل التغلّب عليهم من قبل : —

أتتك أسارى الرّوم وهي أقلّها فمن فضلات القتل ينتجع الأسر
وما كان قبل اليوم سهلٌ مرامها ولكن علا الإسلام ما تضع الكفر (٤)

---

١ — المنّ : ج ٢ ص ٤٢٧ .
٢ — ديوان أبي الرّبيع : ص ٣٥ .
٣ — المعجب : ص ٣٧٠ .
٤ — البيان المغرب : ج ٣ ص ١٧٧ .

ومن الصوّر التي يعزّ منالها في شعر الجهاد ، صورة السبايا الصليبيّات . وقد أشار ابن حزمون إلى وقوع بعضهنّ في أيدي المسلمين في معركة الأرك، حيث قال :—

سهرَ الموتورُ وأرّقه	تَذكارُ المنصلِ والمترسِ
وبكاءُ عقائلَ هاتفةٍ	كالوُرْقِ ينُحْنَ مع الغَلَسِ
برزت وكأنّ ذوائبَها	أذنابُ روامحةٍ شُمُسِ
ترنو كظباء الرّمل على	وجَلٍ لضراغمة شُوسِ
قد كُنّ مها أُنسٍ ففدت	تحتَ الرّايات بلا أُنسِ(١)

فالشاعر يصوّر وجد القائد الصليبي على السبايا الصليبيّات اللواتي أسرهنّ المسلمون في معركة الأرك. ويظهر أنّهن قد استهوين الشاعر، لذلك فقد جنح إلى ألفاظ الغزل عندما وصفهنّ .

---

١ — المعجب : ص ٣٧١ .

د) القائد الصليبي :-

وقد تحدّث الشعراء عن القادة الصليبيين ، ونعتوهم بنعوت متفرّقة، والقادة الذّين ورد ذكرهم فيما وصل إلينا من شعراء الجهاد هم :-

((العلج الذّميم الأقرع حفيد البرهانس))(١). وقد وردت الإشارة إليه في قصيدة أبي الحكم بن رضى البلنسي ، حيث قال :-

حالتْ على ابن عبيد* بعد أقرعهِ بها فأردتْهما رجراجةٌ جول(٢)

وبهذا اللّقب ((الأقرع)) عرفته الرّواية الاسلاميّة (٣). و ((الأقرع)) هذا من قوّاد الفونسو السّابع. وقد كانت له مواقف مشهورة قتل فيها كثيرا من الخلق. لذلك فإنّ اسمه قد رسخ ولا يعرف أبناؤه وحفدته إلاّ به (٤).

الفونس ابن الرّنك(٥): وقد قام هذا القائد بسلسلة من الاعتداءات على أراضي الأندلس، استطاع فيها الاستيلاء غدرا على بعض المدن في الغرب(٦). وهو من القادة

---

١ - المنّ : ج ٢ ص ١٩١ .

* - ابن عبيد : هو صهر ابن مردنيش وأحد معاونيه . المنّ : ج ٢ ص ١١٩ .

٢ - المنّ : ج ٢ ص ٤٤٧ .

٣ - القرطاس : ص ١٩٦ .

٤ - المنّ : ج ٢ ص ١٩١ تعليق رقم (()).

٥ - هو الفونسو إنريكيث ملك البرتغال . وتصفه الرّواية الإسلاميّة بصاحب ((قُلُمُوريَة)) ، أو ((قُلُمْرِيَة)) ، أو ((قُلُنْبْرِيَة)) ، أو ((قلنبيرة)) . وتسمّيه كذلك ((ابن الرّيق)) أو ((ابن الرّنق)) أو ((ابن الرّنك)) . وقلمرية : هي عاصمة البرتغال . انظر : أعمال الأعلام ق ٣ ص ١٥٣، الاحاطة : ج ١ ص ٥٣٠ ، المعجب : ص ٣٠٠ و ص ٣٣٣ و ص ٤٠٠ ، الذّيل والتّكملة : ج ٥ ص ١٩١ ، صفة جزيرة الاندلس: ص ١٠٦ و ص ١١٤ و ص ١٦١ ، الرّوض المعطار : مادّة قلمرية ص ٤٧١ ، مخطوط الحلل السندسية : ورقة ٤٥ ، البيان المغرب : ج ٣ ص ٧٨ ، التاريخ الأندلسي : ص ٤٦١ ، الحلّة السّيراء : ج ٢ ص ٢٠٠ ، المنّ : ج ٢ ص ٥٢ ، ص ٢١٦ وص ٣٧٢ و ص ٥٢٦ .

٦ - الحلّة السيراء : ج ٢ ص ٢١٧ .

الصليبيين الذين اشتركوا في معركة الأرك (١).

وقد وردت الاشارة الى هذا القائد بكنية ((ابن الرّيق)) في قصيد لابـــن المنخّل الشّلبي ، قالها سنة ٥٥٥ هـ : —

أقيموا الى ابن الرّيق بعد صدورها   وليس عليكم أن ترى ضُمّرا قُبّـــا (٢)

كما أشار اليه ابن حربون في قصيدة قالها سنة ٥٦٤ هـ بكنية ((ابـــن الرّنك)) : —

وكيف رأى ابنُ الرّنك مركبُ بغية   إذا اعتاقُ من دُهْمِ الجياد الأداهما (٣)

ومن القادة الصليبيين الذّين ورد ذكرهم فيما وصل إلينا من شعر الجهـــاد ابن رَيمند . فقد ذكره ابن المنخّل الشّلبي في قصيدة قالها سنة ٥٥٥ هـ : —

فقلْ لابن ريمندَ تأهّبْ لغـــزوة   يسدُّ عليكم جيشُها الأفقَ الشّهبا (٤)

ولم يستطع الدّارس أن يتبيّن المقصود بهذه الكنية . فقد يكون المقصـــود فرّانْدُهْ الثاني بن الفونسو ريموند يس، المعروف بـ ((البَبوج)) (٥). وقد يكون المقصـــود حاكم أرغون ، رَمُنْد بن بَلَنْقِير الرّابع ((ريموند برنجير)) (٦).

والذي أوقع الدّارس في هذا الالتباس أنّ كلا هذين القائدين كان حيّا عندما قيلت القصيدة ، وأنّ كليهما كان يوجّه الضربات إلى البلاد الإسلاميّة (٧).

---

١ — مخطوط الحلل السندسيّة : ورقة ٤٥ .
٢ — المنّ : ج ٢ ص ١٥٢ .
٣ — المنّ : ج ٢ ص ٣٨٥ .
٤ — المنّ : ج ٢ ص ١٥٤ .
٥ — حكم ليون . والبَبُوج لقبه . ومعناه كثير اللعاب، أو الأحمق . وقد هاجمتـــه جيوش المسلمين في قاعدة السّبطاط . توفي سنة ٥٨٤ هـ . انظر : — المعجب : ص ٤٠٠ و ص ٤٥٣ ، المنّ : ج ٢ ص ٢١٩ — ٢٢٠ ، عصر المرابطين والموحّدين : ج ٢ ص ٤٦١ .
٦ — وجّه ضربات عنيفة إلى الثغر الأعلى في الأندلس . توفي سنة ٥٥٨ هـ ، انظـر : عصر المرابطين والموحّدين : ج ١ ص ٤١٩ — ٥٠٢ .
٧ — عصر المرابطين والموحّدين : ج ١ ص ٤١٩ — ٥٠٢ و ج ٢ ص ٤٦١ .

وقد ذكر هذه الكنية كذلك، أبو العبّاس الجرّاوي في قصيدة قالها في غـزوة للمنصور (١) :ـ

جمعَ ابنُ ريمندَ فردّ جماحَـهُ   عزمٌ لو اعتمدَ الرّواسي زُلـزِلا (٢)

ومن غير الممكن أن يكون المقصود بهذه الكنية هو فرّاندُه المهوج ، لأنّـه مات سنة ٥٨٤ هـ ، والخليفة المنصور لم يبدأ جهاده في الأندلس إلاّ بعد سنـة ٥٨٦هـ (٣).

وهنا يبقى احتمالان حول المقصود بابن ريموند . الأوّل : أن يكون المقصـود الفونسو الثاني من رُمُند بن بلنقير الرابع حاكم أرغون (٤). والثاني : الفونسو الثامـن ملك قشتالة (٥). إلاّ أنّ مجريات الأحداث آنذاك ترجّح أن يكون الفونش الثامـن هو المقصود بابن ريمند ، وقد كنّاه الشّاعر بذلك نسبة إلى جدّه الفونسو ريموند يـس. فقد كان الصراع محتدما بين الموحّدين وبين الصليبيين بقيادة هذا الفنش ، ووصـل ذروته في معركة الأرك (٦). ولا يستبعد الدّارس أن تكون القصيدة التّي ورد فيهـا ذكر ابن ريمند قيلت في معركة الأرك ، فمعانيهـا توحي بذلك (٧).

وقد كان الفونسو الثامن من أشدّ ملوك الصليبيين وطأة على المسلمين : فهـو الذي قاد معركة الأرك ، وهو الذي قاد معركة العقاب (٨) . وقد تردّد اسم هـذا القائد في شعر الجهاد كثيرا بلقب ((الفنش)) (٩).

---

١ ـ شاعر الخلافة الموحّدية : الملحق : ص ٨ .

٢ ـ المرجع السّابق : ص ٩ .

٣ ـ البيان المغرب : ج ٣ ص ١٧٧ .

٤ ـ توفي سنة ٥٩٣ هـ . عصر المرابطين والموحّدين : ج ٢ ص ٦٠١ .

٥ ـ مات والده وهو طفل ، فحكم البلاد تحت الوصاية ، لذلك فإنّه يعرف بـ((أذفونش الصغير)) . كما يعرف باسم ((الفونش الهُنْشُه بن شَانْجُه بن الهُنْشُه ، إنبرذور)) توفي سنة ٦١١هـ . انظر : الإحاطة : ج ١ ص ٣٨٣ ، المنّ : ج ٢ ص ٣٧١ و ص ٣٩٧ ، عصر المرابطين والموحّدين : ج ٢ ص ٥٨٣ .

٦ ـ البيان المغرب : ج ٣ ص ١٩١ـ١٩٢ .

٧ ـ انظر القصيدة في : ـ شاعر الخلافة الموحّدية : الملحق : ص ٩ .

٨ ـ المعجب : ص ٣٩٩ ، الإحاطة : ج ١ ص ٣٨٣ .

٩ ـ انظر : المعجب : ـ ص ٣٧٢ ، البيان المغرب : ج ٣ ص ١٩٧ .

ومن القادة الصليبيين الذين ذكرهم الشعراء في قصائدهم ((هِرَّانْدُهْ بـــن الهِنْشُه)) (١) . وقد أنفق هذا القائد شطر كبيرا من حياته في محاربة المسلميـــن ، واستطاع أن يحتل عددا كبيرا من المدن الكبرى ، مثل : قرطبة وإشبيلية (٢). وورد ذكـــر هذا القائد في قصيدة لموسى بن هرون في رثاء اشبيلية : —

تزعم أذ فنش بأن الحصر يُهلكهـــا   والله يكذب ما روى وما زعما* (٣)

والصورة العامّة للقائد الصليبي في شعر الجهاد ، هي صورة قائد غوى ، يجهـــل أساليب القتال وخططه ، فيقود جنده الى المهالك . وإذا ماجدّ الجدّ ترى هذا القائد قد ولّى هاربا ، غير مكترث بشيء إلاّ النجاة بنفسه . وغالبا ما ينجو من الموت فيعيـــش باقي حياته ذليلا ، مهانا ، تتقطّع نفسه حسرات .

وقد ظهرت هذه المعاني واضحة في الأبيات التالية التّي تصف هزيمة الفنـــش ملك قشتالة في معركة الأرك : —

لقدْ أوردَ الأذفنشُ شيعتَه الـرّدَى   وسَاقهم جهلاً إلى المطشةِ الكبرى

حكى فعلَ ابليسٍ بأصحابه الأولى**   تبرّأ منهمْ حينَ أوردهم بــدْرا

أطارتْه شدّاتٌ تولّى أمامَهـــا   شريداً ، وأنستْهُ التعاظمَ والكفـرا

*

تعوّذَ بالرّكضِ الحثيثِ مــن الرّدى   فلو سابقَ الأرواحَ*** غادرها حسرًا

وقد أوردَته الموتَ طعنةُ ثائـــر   وإن لم يُفارقْ من شقاوته العُمرا

وما صبرُ من أفنى الزّمانُ حماتـهُ   وجرّعه مِنْ فقدِ أنصارِهِ صَبْـــرًا

فقد قدّم الشاعر في هذه الأبيات صورة حيّة للقائد الصليبي في معركة الأرك . وهي صورة فيها من البلاء قدر ما فيها من الشماته والاستهزاء ، الهدف منها الإزراء بهـــذا القائد ، والانتقاص من قدره ، وخلق حالة من عدم الثقة به . ولم يغفل الشاعر تصويـــر الآلام النفسية التّي يعاني منها هذا القائد ، فهو يتجرّع كؤوس الألم والحزن علـــى

---

١ — هو فرّانده الثالث ملك قشتالة وليون . توفي سنة ٦٥٠هـ . الإحاطة : ج ١ ص ٣٨٣ وص ٥٥١ ، أعمال الأعلام : ق ٣ ص ٣٣٢ .

٢ — التكملة : ج ٢ ص ٩٠٣ ، الإحاطة . ج ١ ص ٥٥١ .

* — الوزن مكســور .

٣ — البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٨٤ .

** — هكذا ورد . والصواب ((الأُلى)) .

*** — الأرواح : جمع الرّيــح .

فقد أنصـــاره.

ويمعن الشاعر في تهكمه وسخريته من هذا القائد، حين يصفه بالغرور والغـــدر والغيّ، وينصحه باعتزال الحكم، لأنّ ذلك هو السبيل الوحيد إلى نجاته، والحفـــاظ على حياته :ـ

فكيفَ رأى المغترُّ عقبى اغتــراره   *   وكيف رأى الغدّارُ في غيّه الغَــدْرا

إذا نزعته الرّومُ كانت نجاتُـــه   *   وقد أحرقت جمر المنايا به غَــدرا (١)

وإذا كان الشاعر في الأبيات السابقة قد أزرى بالقائد الصليبي وحطّ من قدره، فإنّه في الأبيات التالية يصوّر خطورته على بلاد الاسلام قبل هذه المعركة :ـ

تَضَحْضَحَ في وقتٍ من الدهرِ بحـرُه   *   وقد ضاقت الآفاق من فيضِه دهْــرا

وكان يرى أقطارُ أندلسٍ لـــه   *   متى يرم لم يخطئ بأسْهمِه قُطْــرا (٢)

والقائد الصليبي ـ غالبا ـ قائد غير مجّرب، كثير الأخطاء. فقد أزرى أبو العبّاس الجرّاوي بابن ريمند بعد أن هزمته جيوش المسلمين بقيادة الخليفة المنصور، ووصفـــه بكثرة الهفوات التي كانت سببا في هزيمة وتدمير بلاده :ـ

جمح ابنُ ريمند فكفّ جماحَـــه   *   عزم لو اعتمد الرّواسي زلـــزلا

طاحتْ به هفواتُه والمـــاء لا   *   بدّ له من أن يفيض إذا غَـــلا

ردّت معالمُه الخطوبُ مُجاهِـــلاً   *   وصفاءَه كَدراً وجِدّته بِـــلا (٣)

واستثارة لمشاعر المسلمين، فقد وصف الشعراء القادة الصليبيين بالظلم والطغيان، وصوّروا إصرارهم على احتلال الأندلس :ـ

محا محاسنَها طاغٍ أُتيح لهـــا   *   ما نام عنْ هَضْمِها حينا ولا نعسَـا (٤)

---

١ ـ هكذا ورد الشطر الثاني، وبذا لا يستقيم المعنى، ويظهر أنّ فيه تصحيـــف ويبدو أنّ الصواب هو ((وقد أحرقت حُمْرُ المنايا به غُدْرا)) و ((غُدُرا)) جمع غديـــر.

٢ ـ البيان المغرب : ج ٣ ص ١٩٧ ـ ١٩٨، شاعر الخلافة الموحّدية : الملحـــق : ص ٧ ـ ٨.

٣ ـ شاعر الخلافة الموحّدية : الملحق : ص ٨.

٤ ـ النفح : ج ٤ ص ٤٥٨، تاريخ ابن خلدون : ج ٦ ص ٦٠٣.

هكذا

هـ) الصراع الحضاري : —

جاء المقاتل الصليبي إلى بلاد الاسلام، وهو يحمل عداوة أصيلة لكلّ ما أنتجته الحضارة الاسلاميّة في الأندلس. فعندما دخل الصليبيون بلنسية عاثوا فيها فسادا، وحوّلوا مساجدها كنائس، ونالها أنواع كثيرة من الاضطهاد، تعدّى الأحياء إلى الأموات في قبورهم، فَنُبِشَتْ (١).

وبعد استسلام مرسية صلحا لجايمش بن بطره ملك أرغون سنة ٦٦٤ هـ (٢) إذ دخلها بجيشه، فتركها أهلها، وخرجوا بأمان إلى الرّشاقة (٣)، فسكنوا بها مدّة من عشرة أعوام، إلى أن كان من أمرهم ما كان حين أخرجوهم في سنة ثلاث وسبعين، وغدروهم في الطريق أجمعين ... فسبوا النساء والأطفال، وقتلوا جميع الرّجال. وقد كانوا أخرجوهم بالأمان دون سلاح (٤).

وبعد وقيعة العقاب، ((فصل الأذفنش — لعنة اللّه — عن هذا الموضع بعد أن امتلأت يداه وأيدي أصحابه أموالا وأمتعة من متاع المسلمين، فقصد مدينتي بَيّاسَة وأبّذة (٥)، فأمّا بَيّاسَة فوجدوها أو أكثرها خالية، فحرّق أدورها، وخرّب مسجدها الأعظم. ونزل على أبّذة، وقد اجتمع فيها من المسلمين عدد كثير من المنهزمة، وأهل بياسة، وأهل البلد نفسه، فأقام فيها ثلاثة عشر يوما، ثمّ دخلها عنوة، وسبى وغنم، وفصل هو وأصحابه من السبي من النساء والصبيان)) (٦) بأعداد كبيرة، فكانت هذه أشدّ من الهزيمة على المسلمين.

أمّا أهل إشبيلية، فقد نالهم من أذى الصليبيين شيء كثير. فقد جرّعوهم ((كأس الحمام، من كثرة المجاعة وعدم الطعام، فكلّ منهم في بحر المنايا غائص وعام، ممّن حلّ بهم من الأوجال والآلام... فسلّموا لهم المدينة، وخرج منها الخاصّ من أهلها والعام)) (٧).

---

١ — التكملة : ج ٢ ص ٤٧٩.
٢ — الحلّة السّيراء : ج ١ ص ٦٣، ج ٢ ص ٣١٦. وقارن بما ورد في البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٣٨، التكملة : ج ٢ ص ٦٥٢.
٣ — الرشاقة : من متفرجات مرسية المشهورة. المغرب : ج ٢ ص ٢٤٦.
٤ — البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٣٨.
٥ — أبّذة : مدينة صغيرة في الأندلس على مقربة من الوادي الكبير. بَيّاسَة : — بينها وبين جيّان عشرون ميلا. وهي على كدية من التراب مطلّة على النهر الكبير. الروض المعطار : مادّة أبّذة، ص ٦، ومادّة بياسة، ص (١٢١—١٢٢).
٦ — المعجب : ص ٤٠٢ — ٤٠٣. وانظر : الروض المعطار : مادّة أبّذة، ص ٦.
٧ — البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٨٥.

هذه بعض أعمال الصليبيين في المدن الإسلاميّة التي كانوا يحتلّونها ، وهي أعمال تصوّر مدى الحقد الذي ملأ قلوبهم على الإسلام وأهله .

صوّر الشعراء التدمير والتخريب الذي ألحقه الأعداء بالحواضر الاسلاميّة في الأندلس. وغالبا ما كان ذلك في مواقف الاستنجاد والرّثاء ، لعلّهم بذلك يثيرون الهمم ، ويحرّكون العزائم ، ويلهبون المشاعر .

فقد أغار الصليبيّون على بلدة سُهَيل (١) وخرّبوها ، ودمّروا معالمها ، وعاثوا فيها فسادا ، وشرّدوا وقتلوا كثيرا من أهلها (٢). وقد صوّر ذلك العالم المتفنّن أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السّهيلي الأعمى في مقطوعة قالها : —

يا دارُ أينَ البيضُ والآرامُ	أمْ أينَ جيرانٌ عليّ كرامُ
رابَ* المحبّ من المنازل أنّه	حيّا فلم يرجع إليه سلامُ
دمعي شهيدى أنّي لم أنسَهم	إنّ السلوّ على المحبّ حرامُ**
لمّا أجابني الصّدى عنهم ولم	يلج المسامعَ للحبيب كلامُ
طارحتُ وُرْقَ حمامها مترنّما	بمقالِ صبّ والدموع سجامُ
((يا دارُ ما فعلتْ بك الايّامُ	ضامتك والأيّام لست تُضامُ)) (٣)

والمقطوعة تنضح بالمشاعر الحارّة الأصيلة ، وتعبّر عن لحظة عاطفية عميقة ، وتصوّر حرقة الشاعر ووجده على بلدته التي هاجمها الصليبيون ، ودمّروا معالمها ، حتّى أنّها بدت خُواءً قُواءً لا حياة فيها .

وعندما سقطت بلنسية في أيدي الصليبيين جعلوها دكّاء ، فقد دمّروا معالم الحضارة الإسلاميّة فيها ، وهجّروا أهلها ، وقتلوا كثيرا منهم (٤). ألهب ذلك عواطف الشعراء فطفقوا يرثون هذه المدينة ، ويبكون ما حلّ بها . ومن هؤلاء أبو المطرّف بن عَميرة الذّى قال : —

---

١ — سُهَيل : من أعمال مالَقَة . مخطوط الحلل السندسيّة : ورقة ٨٢ .
٢ — مخطوط الوافي بالوفيات : ج ١٦ ورقة ٩٠ .
* — ورد في الوافي ((دار)) .
** — لم يرد البيت في المغرب .
٣ — مخطوط الوافي بالوفيات : ج ١٦ ورقة ٩٠ ، المغرب : ج ٢ ص ٤٤٨ ، النفّح : ج ٣ ص ٤٠٠ .
٤ — انظر : التكملة : ج ٢ ص ٤٧٨ ، عصر المرابطين والموحّدين : ج ٢ ص ٤٥٠ .

قلْ كيفَ تثبتُ بعدَ تمزيقِ العِدا ... آثارُه، أم كيف يدرك شـارهُ؟!
ما كان ذاك المصرُ الّا جنّـة ... للحسنِ تجرى تحته أنهـارُه
*
قد كان يشرق بالهداية ليلـه ... والآن أظلمَ بالضلال نهـارهُ
ودَجا به ليلُ الخطوبِ فصبحـة * ... أبدا على أبصارنا إسفـارُه (١)

ويستشفّ من هذه الأبيات التي بدا فيها الشّاعر يائسا من إصلاح حال المسلمين في الأندلس، مدى التخريب الذى ألحقه الصليبيّون بمدينة بلنسية الإسلاميّة : فقد مزّقوا آثارها ، وبدّلوا معالمها ، وعفّوا ربوعها ، بعدما كانت جنّة آمنة وادعة ، ومرتعا للحسـن والجمال .

وقد بعث شاعر مجهول إلى أمير افريقية أبي زكريا الحفصي(٢) قصيدة يحثّه علـى القدوم إلى الأندلس لإنقاذها من خطر الصليبيين . وقد قدّم الشاعر في قصيدته صورا لبعض مظاهر الصراع الحضارى بين المسلمين والصليبيين ، حيث قال : —

بأبي مدارس كالطلول دوارسٌ ... نسخت نواقيسُ الصليبِ نداءَهـا
ومصانع كسفَ الضلالُ صباحَهـا ... فيخاله الرّائي إليه مساءَهـا
راحت به الورقاءُ تسجع شدوَهـا ... وغدت ترجّع نوحَها وبكاءَهـا (٣)

فقد رأى الشاعر في احتلال الصليبيين لمدينة بلنسية ثلمة للحضارة الإسلاميّة فـي الأندلس، وصوّر جزعه وتضايقه من إعلان شعائر الفرنجة في تلك المدينة، وتحدّث عـن سعيهم الدائب إلى تغيير معالم الحضارة الإسلاميّة فيها : فقد دمّروا المصانع، وخرّبوا المدارس، وأخفوا معالمها .

وقد كان ابن الأبّار من أكثر الشعراء المسلمين بلاغة في التعبير عمّا عانتـه مدينة بلنسية من كيد الصليبيين ، حيث قال : —

---

* — ورد في تحفة القادم، وأعمال الأعلام، وصفة جزيرة الأندلس ((بصبحة)) .
١ — صفة جزيرة الأندلس : ص ٥١ ، الرّوض المعطار : مادّة بلنسية، ص ٩٩ — ١٠٠ ، أعمال الأعلام : ق ٣ ص ٢٣٧ — ٢٧٤ ، رسائل أبي المطرّف : ورقة ١٤٠ ، تحفة القادم ، نشر في مجلّة المشرق ، بيروت، مجلّد ٤١ ، سنة ١٩٤٩ ، ص ٥٧٦ — ٥٧٧ .
٢ — هو أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص. أوّل أمراء الحفصيين . انظر : — البيان المغرب : ج ٣ ص ٢٧٥ ، الفارسيّة في مبادئ الدولة الحفصية : ص ١٠٧ — ١٠٩ .
٣ — النفح : ج ٤ ص ٤٨٠ .

وصيّرتْها العوادي العائثاتُ بها — يستوحشُ الطرفُ منها ضعفَ ما أنسَا

فمن دساكرَ كانتْ دونها حرساً — ومن كنائسَ كانت قبلها كنُسَا

يا للمساجدِ عادت للعدا بِيَعاً — وللنداءِ غدا أثناءها جَرسَا

لهفي عليها إلى استرجاع فائتها — مدارساً للمثاني أصبحتْ دُرُسَا

وأربُعاً نَمنَمتْ أيدي الربيع لها — ما شئت من حلل موشية وكُسَا

كانت حدائقَ للأحداق مونقةً — فصوّحَ النضرَ مِنْ أدواحها وعسَا

وحالَ حولها من منظر عَجَبٍ — يستجلس الركب أو يستركبُ الجُلُسَا

سرعان ما عاثَ جيشُ الكفر وا حربا — عيثَ الدّبا في مغانيها التي كبسَا

وابتزَّ بزّتها لما تحيّفها — تحيُّفَ الأسد الضاري لما افترسَا

*

ورجّ أرجاءها لمّا أحاطَ بها — فغادرَ الشمّ من أعلامها خُنُسَا(١)

فالشاعر يقارن بين حالي بلنسية قبل الاحتلال وبعده . وندرك من هذه المقارنة مدى التخريب الذي ألحقه الصليبيون بتلك المدينة . فقد كانت تعجّ بالناس ، عامرة الأسواق ، دائبة الحركة ، جميلة المنظر ، وعندما دخلها الأعداء أضحت خلاء موحشة : فقد رجّوا نواحيها ، وسلبوا حسنها ، وعاثوا فيها فسادا ، ودمروا معالمها الإسلامية ، فحولوا مساجدها بيعا ، وخرّبوا مدارسها التي كانت تعج بطلاب العلم . وحتى الجبال لم تسلم منهم ، فقد دكّوها . وهذه التصرّفات تصوّر مدى الحقد الذي كان يملأ قلوب الصليبيين على الإسلام وحضارته .

وكانت محنة إشبيلية بعد أن احتلّها الصليبيون عظيمة . فقد قتلوا الشيوخ والأطفال ، وسبوا النساء ودمّروا المساجد ، وأذاقوا أهلها من ضروب العذاب ألوانا شتّى . وقد صور ذلك أبو موسى هرون في قصيدة قالها يرثي تلك المدينة ، حيث قال :—

عَفتْ يدَ الشِّرك ما شادَ الخلائفُ من — قصرٍ ومن مصنع ضخم حكى إرَمَا

من يبصر المنزلَ الأعلى يقلْ ولَها — ما خطّ قطُّ لذا أسّ ولا رُسِمَا

أينَ القبابُ التي كانت محجّبةً — فيها الملوكُ تفيضُ الجودَ والكرَمَا

تمضي العزائمُ والأقدارُ تسعدُها — فلا تردُّ لها الأقدارُ مُقتَزَمَا

١— النفح : ج ٤ ص ٤٥٧ — ٤٥٨ ، وقارن براوية ابن خلدون : ج ٦ ص ٦٠٢—٦٠٣ .

فكم أسارى غدت في القيد موثقة ... تشكو من الذلّ أقداما لها حُطِمَا

وكم صريع رضيع ظلّ مختطفا ... عن أمّه يشكو، فهو بالأمواج قد فُطِما

يدعو الوليدُ أباه وهو في شُغُل ... عن الجواب بدمع سال وانسجما

فكم ترى والها فيهم ووالهة ... لايرجع الطرف إن حاورته الكلما

في كلّ حين ترى صرعى مجدّلة ... وآخرين أسارى خطبهم عَظُمَا (١)

ويصوّر الشاعر في هذه الأبيات فظائع الصليبيين وأعمالهم التخريبية التي اقترفوها عند دخولهم اشبيلية، فقد أحالوا المدينة مردّمة القصور، مهدومة البنيان، خاربة المصانع ملأى بالجثث والأشلاء. أمّا أهلها فقد أهانهم الصليبيون وأذلّوهم، وأذاقوهم من ألوان العذاب وصروفه ضروبا شتّى، فأنّى رجّعت الطرف وجدت صرعى مجدّلين، وأسارى مقيّدين عظم خطبهم، واشتدت محنتهم. وحتّى الأطفال لم يسلموا من قسوة المعتدين، فقد قتلوهم. ولا شك أنّ هذه المعاني والمشاهد يرتعش لها الوجدان الانساني، ولا ينتهي الخيال من استعراضها وتملّيها، ويقف العقل مشدوها تحت وقعها، كما تكشفت تلك المشاهد مدى العنف الذى كان يأخذ الصليبيون به المدن الاسلاميّة، وهو عنف مصدره حقد متأصل في نفوسهم على الاسلام وأهله.

---

١ — البيان المغرب: ج ٣ ص ٣٨٣.

و) حلفاء الصليبيين : —

ومما يكمّل صورة الصليبيين في شعر الجهاد حديث الشعراء عن حلفائهم ، والمتعاونين معهم. والحليف الوحيد الذى أشير اليه في شعر الجهاد هو محمد بن مردنيش(١).

استطاع محمد هذا أن يبسط نفوذه على سائر قواعد الأندلس الشرقية ، من بلنسية حتى قرطاجنّة (٢) * وحفاظا على هذه الممالك من نفوذ الموحدين ، مال ابن مردنيش إلى التعاون مع الصليبيين ، ومحالفتهم ، وعقد المعاهدات بينه وبينهم (٣).

وقد دعا ابن مردنيش إلى جيشه كثيرا من المرتزقة الصليبيين ، وابتنى لهم الأحياء والمعسكرات ، وزوّدها بأسباب الرفاهية والحانات ، وأغدق عليهم الصلات الوفيرة من المال والاقطاعات ، وذهب في ذلك إلى حدّ أنْ أقطع مدينة شنتمرية الشرق(٤) إلى أحد أكابر الفرسان الصليبيين ، وقد أنشأ بها هذا الفارس مركزا لأسقفية (٥).

---

١ — والاسم الكامل له : — أبو عبد الله محمد بن سعد بن محمد بن سعد بن مردنيش (مرذنيش) الجذامي ، وقيل التجيبي . إلاّ أنّ بعض الباحثين المحدثين شكّوا في نسبته العربية ، وقالوا أنّه من المولّدين ، وأنّ مردنيش تحريف للاسم الأسباني Martinez أو Martinizi أو Mardonias

وكان الصليبيون يطلقون عليه الملك ((لوبي)) أو ((لُب)) Reylope أو Lobo ، أي : الذئب ، لما أثر عنه من شجاعة وإقدام. وقد منحه البابا لقب ((صاحب الذكر الحميد)) .

وكان ابن مردنيش شغوفا بالتشبه بالقشتاليين ، مؤثرا زيّهم ، كلفا بلسانهم ، مجيدا له ، وقد أشارت الرواية الإسلامية الى مجون ابن مردنيش وكرمه وشجاعته . انظر : وفيات الأعيان : ج ٧ ص ١٣١ ، الإحاطة ج ٢ ص ١٢١—١٢٧ ، الحلّة السيراء: ج ٢ ص ٢٣٢ ، المنّ : ج ٢ ص ١١٥ ، عصر المرابطين والموحدين : ج ١ ص ٣٦٦ .

٢ — عصر المرابطين والموحدين : ج ١ ص ٣٦٦ .

* — قرطاجنّة : — من كورة تدمير في الأندلس. معجم البلدان : مادّة قرطاجنّة .

٣ — الإحاطة : ج ٢ ص ١٢٤ ، عصر المرابطين و الموحدين : ج ١ ص ٣٦٧ .

٤ — هي سهلة بني رزين ، وتوصف بأنّها من أكبر معاقل كورة شنتبرية تقع على نهر تاجُه، من فروع نهر تاجُه . الحلّة السيراء: ج ٢ ص ١٠٩ .

٥ — الإحاطة : ج ٢ ص ١٢٣—١٢٥ ، أعمال الأعلام : ق ٣ ص ٢٦٠ .

لم يكتف ابن مردنيش بذلك وانما تعدّاه إلى القتال جنبا إلى جنب مع الصليبيين ضدّ المسلمين. فعلى سبيل المثال: فقد وقف إلى جانبهم عندما حاول المسلمون استرداد ثغر المرية (١)، وحاول غير مرّة اقتحام الحصار الإسلامي لإنجاد الصليبيين المحصورين في هذه المدينة (٢). وفي سنة ٥٥٤ هـ تحرّك ابن مردنيش بجملة ذميمة من أتباعه وحلفائه نحو مدينة جيّان (٣) واستطاع احتلالها ... ثمّ اتّجه نحو قرطبة فنازلها، ودمّر زروعها، وعفّى ربوعها ... إلاّ أنّ واليها قاتله أشدّ قتال، وصدّه عنها (٤). وفي العام نفسه اتّجه نحو اشبيلية، وأقام على حصارها ثلاثة أيام، ولقيت منه هذه المدينة عظيم الخطب (٥).

تركت تصرّفات ابن مردنيش هذه أصداء واضحة في شعر الجهاد ضدّ الصليبيين، حيث كان للشعراء موقف حاسم منه، فقد حملوا عليه، وهدّدوه، وأزروا به، وهاجموا تصرّفاته، وبصّروه بالعاقبة، ونعتوه بصفات مختلفة تثير الحفيظة.

فقد هاجم ابن حربون موقف ابن مردنيش الخارج عن الجماعة الإسلاميّة، وشمت بما آل اليه أمره بعد معركة السبيكة، وأشار إلى كثرة القتلى من أتباعه حيث قال: —

ألستَ ترى في النّاكثين وقائعاً   يمينُ الرّدى فيها كمثلِ يَسارِهِ
حصائدُ سيفِ الحقّ صرعى بشاهقٍ   به أمِنَ المغترُّ وقعَ حَذارِهِ
لقد عَميتْ منها البصائرُ شقوةً   أحلّتهم للهلكِ دارُ بَوارِهِ
ولو قرعوا للصّفحِ أبوابَ توبةٍ   لمْ لم يخوضوا للرّدى في غمَارِهِ (٦)

والأبيات فيها تقريع شديد لابن مردنيش. فقد صوّره الشاعر إنسانا شقيّا، عميت بصائره، وأغرته أطماعه بالخروج عن الجماعة الإسلاميّة ومحالفة الصليبيين. وتؤكد الأبيات أنّ مصائر أولئك الخارجين هو الهلاك بسيف الحقّ، مثلما حدث بأتباع ابن مردنيش، الذين أحلّتهم أطماعهم دار البوار، ولو أنّهم راجعوا بصائرهم، وعدلوا عن الخيانة، وتابوا لصفح المسلمون عنهم.

---

١ — المرية: — تقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط جنوب شرقي غرناطة. المنّ: ج ٢ ص ١٣٠.
٢ — البيان المغرب: ج ٣ ص ٣٣.
٣ — جيّان: — تقع شرقي قرطبة، وهي كثيرة البساتين. الروض المعطار: مادة (جيّان) ص ١٨٣.
٤ — المنّ: ج ٢ ص ١١٦.
٥ — المنّ: ج ٢ ص ١١٦.
٦ — المنّ: ج ٢ ص ٢٦٨.

وقد أزرى الاستاذ ابن سيّد بموقف ابن مردنيش المتواطئ مع العدوّ، حيث قال :—

جنّ ابنُ سعدٍ بالنفاقِ جنونَــه ... وطغى إلى أنْ باتَ فيهِ الأَوْلَــقُ *

نُظِمَتْ لهُ جردُ العتاقِ تمائمــاً ... ليستْ على أهْلِ الجنونِ تُعلَّــقُ

فقضى حَصيراً إذْ تَيقّنَ أنّــهُ ... إمّا قتيلٌ أو أسيرٌ موثَــــقُ

غرّ الشقيّ بنأيِكمْ عن أرضِــهِ ... جهلاً، وظنّ بأنه لا يُلْحَــقُ

أوَما رأى شمسَ الضحى في جَوّها ... والمغربُ الأقصى لها والمَشْــرقُ

والى ** الذّنوبَ فأوبقته كثــرة ... إنّ الذنوبَ إذا توالت تُوبِــقُ (١)

وتصوّر الأبيات مدى انجراف ابن مردنيش في خيانة الأمّة، وموالاة الأعداء. لذلك فقد حمل عليه الشاعر، وأزرى به، وصوّره إنسانا منافقا، طاغيا، شقيّا، مفترّا، جاهلا، كثير الذنوب، في عقله مسّ من جنون.

وقد أوضح الشّاعر موقف الأمّة من هذا الخائن الطامع. فقد أعدّت له الخيول الجرداء القويّة، لتفتك به، وتقضي عليه. وعندما رآها دبّ الرّعب في قلبه، وتيقّن أنّه لا مفرّ منها، فإمّا القتل أو الأسر.

وقد كان الشعراء المسلمون مدركين مدى خطورة تحالف ابن مردنيش مع النصارى، فهو يعضد عقيدتهم، ويخدم دينهم، ويثبّت وجودهم في البلاد الإسلاميّة. لذلك فقد توعّدوه، وهدّدوه، وتنبأوا له بالموت، إن لم يعدل عن موازرة الأعداء وصوّروه رجلا ضالا، خدعه الصليبيّون، وزينوا له محالفتهم، فجلب بذلك النحس والشقاء لنفسه.

وفي هذه المعاني قال ابن المنخّل الشّلبي :—

وأرى الشقّي بنَ الشقيّ تغــرّهُ ... فئةٌ أضلّ ضلالها اسلامُهــا

ليس ابنُ سعدٍ حلفَ سعدٍ إذ غدا ... حلفَ النصارى عاضدا أحكامُهــا

فلسوفَ يصبحُ بالغضاءِ مُجــدّلا ... إنْ لم تطهرْ نفسُه آثامَهــا

ويمدّ للتوحيدِ كفّ ضراعــةٍ ... بمتابِ نفسٍ راحضا أجرامُهــا (٢)

---

* — الأولق : الجنون. وقيل : الخفّة من النشاط كالجنون. لسان العرب : — مادّة ((ولق)).

** — ورد في المن ((والى)).

١ — المنّ : ج ٢ ص ٤٥٤ — ٤٥٥.

٢ — المنّ : ج ٢ ص ٤٦٠.

واستثارة لمشاعر المسلمين ، فقد ربط أبو العبّاس الجرّاوي مسلك ابن مردنيش وتصرفاته الخيانيّة بعقيدة الصليبيين ، ووصفه بالسفه والطيش : ـ

لقد ولّى عن الخير اختيارا ووالى اللّات والعزّى سفاها

وآثر معشرا ضلّوا سبيلا فما *عرفوا النبيّ ولا الإلاها (١)

وقد رأى أبو القاسم الرّندي (٢) في شخصيّة ابن مردنيش، شخصية إنسان مارق على الإسلام، خارج عليه ، لذلك تمنّى أن يعدل عن موقفه هذا : ـ

أمّا ابنُ سعدٍ فهو أوّلُ مارقٍ يا ليتَهُ بأبيهِ سَعْدٍ يكْتني (٣)

وقد صوّر أبو المطرّف محمّد (٤) تأصّل روح الإجرام في نفس ابن مردنيش، وشغفه بسفك الدّماء ، وإزهاق الأرواح ، وقتل الأنفس، ليحقّق أهدافه وأطماعه : ـ

فهذا الذي يبني المساجدَ أمرُه وأمرُ ابن سعدٍ أنْ تشادَ المَماصِرُ (٥)

وتحدّث الشعراء عن هزائم ابن مردنيش، وقدّموها في إطار يبعث على السخرية منه ، وعدم الثقة به ، من ذلك الأبيات التالية لشاعر مجهول : ـ

فإن يَنجُ اللّعينُ لغيرِ منجى لقد كَفَرتْ شُعوبٌ** عليهِ فاها

تكتّمَ في غمارٍ أو غُبارٍ وعينُ الحربِ لم تطرَحْ قذاها

وولّى يقطع البطحاءَ شرّا على شوهاءَ ما ونيتْ شَواها

ولو فاتتْ وميضَ البرقِ عَدْواً لخطّاها ولمْ يحمدْ خُطاها

وباتَ يصارعُ الظلماءَ وهْناً ويحسدُ من كواكبِها سُهاها (٦)

---

* ـ ورد في البيان المغرب ((غما)) .

١ ـ المنّ : ج ٢ ص ٢٨٣ ، البيان المغرب : ج ٣ ص ٩٤ .

٢ ـ هو أبو القاسم أخيل بن ادريس الرّندي . أحد الكتّاب البلغاء والشعراء المجيدين . توفي سنة ٥٦٠ هـ أو ٥٦١ هـ . انظر : الحلّة السيراء : ج ٢ ص ٢٤١ ، المنّ : ج ٢ ص ٢٤٤ .

٣ ـ النفح : ج ٢ ص ٢٠٢ .

٤ ـ لم نعثر له على ترجمة . و قد ترجم ابن الأبّار لوالده . انظر : الحلّة السّيراء : ج ٢ ص ٢٦٧ ـ ٢٦٩ .

٥ ـ الحلّة السّيراء : ج ٢ ص ٢٦٦ .

** ـ ورد في المنّ ((شُعوب)) جمع شعب ، وبهذا ينكسر الوزن ، ولا يستقيم المعنى . ويظهر أنّ الصواب ((شَعُوب)) أي المنيّة .

٦ ـ المنّ : ج ٢ ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤ .

وتصوّر الأبيات هزيمة ابن مردنيش في معركة فحص الجلاّب سنة ٥٦٠ هـ (١). فقد أضمر في نفسه الهرب، وكتم أمره، وانسحب متستّرا، والمعركة لم تزل في شدّتها، وجدّ في الفرار مذعورا.

وبصورة تهكميّة ساخرة صوّر الشاعر الخطرات النفسيّة لهذا الخائن وقد ولّى هاربا، فهو لشدّة خوفه غير راضٍ عن سرعة فرسه التي تحمله، بل انّه يتمنّى أن يختفي نجم السّها — على ضعف نوره — لئلاّ يكشف أمره في ظلمة الليل الحالك الذى تستّر به.

وقد أزرى ابن حربون بهذا الخائن بعد هزيمته في معركة السّبيكة، وصوّر افتضاح أمره في الناس، وشماتتهم به، وسخريتهم منه، حيث قال :—

تجلّل منها المردنيشيّ خزيـــة   تناغى بها بين البيوت الولائـــد (٢)

وهكذا كان ابن مردنيش يمثّل فئة الخونة والطامعين، الذين قادتهم أطماعهم إلى الخروج عن الجماعة الإسلاميّة ومحالفة الأعداء.

وقد أزرى الشّعراء بهذا الطامع، وكشفوا حقيقته للأمّة، ونعتوه بنعوت مختلفة تثير الحفيظة عليه. كما هدّدوه، وتوعّدوه، وتنبأوا بمصيره السيّء، وصوّروا موقف الأمّة منه.

وتحدّث الشعراء عن الآثار الناجمة عن تحالف ابن مردنيش مع الأعداء، وبصّروه بالعاقبة، وأوضحوا له أنّ المسلمين فتحوا باب التوبة أمامه، إلاّ أنّه ظلّ سادرا في غيّه وضلاله.

وقد صوّر الشعراء ابن مردنيش في ميدان القتال رجلا خائر العزيمة، لا يجرؤ على الثبات، وإنّما يولّي الأدبار.

---

١ — الحلّة السيراء : ج ٢ ص ٢٦٠ .

٢ — المنّ : ج ٢ ص ٢٤٩ .

مواكبة الشعر لأحداث الصراع

استأثرت أحداث الصراع بين المسلمين والصليبيين ،على عهد الموحّدين اهتماما بالغا من المؤرخين القدماء. ومبلغ الجهد في هذا الفصل إقامة علاقة بين النصوص الشعريّة والأحداث التاريخيّة المتعلّقة بالصراع لنرى مدى مواكبة الشعراء لأحداث الصراع بين المسلمين والصليبيين في الأندلس، ومدى نجاحهم في تصوير تلك الأحداث، واحتواء أبعادها.

وهنا لا بدّ من الإشارة إلى طبيعة الاختلاف بين الشّعر والتاريخ في تصوير الحدث، فوظيفة الشاعر تختلف عن مهمّة المؤرّخ : فالشاعر لا يسجّل الأحداث بموضوعيّة، ولا يتحرّى الدّقة فيها ،في حين أنّ المؤرّخ ملزم بطبيعة مهنته بالموضوعيّة، لذلك فإنّ أي خروج عن ذلك يعتبر مأخذا عليه (١).

والحادثة الأولى التي سجّلها ما وصل إلينا من شعر الجهاد هي فتح مدينة المهديّة في محرّم سنة ٥٥٥ هـ (٢). فقد روى صاحب البيان المغرب قصيدة لأبي العباس الجراوي، قالها في هذه المناسبة، وقد استهلّها بقوله : —

لِمن الخيولُ كأنّهن سيول	غُصّت بهنّ سباسبٌ وهجول
طُويت لها الدّنيا فأبعد ما انتحت	دانٍ، وأبطأ سيرَها تعجيل
يغزو أديمَ الأرض من صهلانها	مثلُ اسمها حتّى تكادُ تزول

والأبيات توحي بمظاهر القوّة العسكرية للدولة الموحّدية، ويستشفّ منها ضخامة الجيوش الإسلاميّة التي اشتركت في فتح مدينة المهديّة. والشاعر بذلك يتّفق مع ما ذكره المؤرّخون عن كثافة الجيوش التي تقدّمت نحو تلك المدينة (٣).

وندرك نتيجة المعركة من هذا الاستهزاء بالصليبيين والسخرية منهم ، ونعتهم بالجهل لأنّهم وقفوا أمام قوّة المسلمين : —

---

١ — انظر : صدى الغزو الصليبي : ص ١٣٨، Martial Poetry, P. 129

٢ — انظر أخبار هذه الغزوة في : — تاريخ الكامل : ج ١١ ص ٢٤٢—٢٤٤، الحلل الموشية : ص ١٢٨، البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٨—٣٩، رحلة التجّاني : ص ٣٤٦، الاستقصا : ج ٢ ص ١٣٩.

٣ — الحلل الموشّية : ص ١٢٧.

جهلَ النصارى أنّه الملكُ الـذي يرثُ البلادَ وعذرُهم مقبـــول

أهلُ الجهالةِ هم فكيفَ ألومُهم وعلمتُ أنّ الطبعَ ليس يحـــول

ويستوعب الشاعر ما ذكرته الرواية التاريخية (١) حين يشير إلى استسلام الصليبيين، وقدومهم الى عبد المؤمن، وطلبهم الأمان منه، واستجابته لهم : —

ودَرَتْ نفوسُهم بأنّك ظافـــرٌ فأتت تقدم اليه وتـــؤول*

فعفوتَ عفوَ القادرينَ تكرّمـــا عنهم، وعفوُ القادرين جميـــل

ودخول المسلمين مدينة المهدية يمكن أن نلمحه من مقارنة الشاعر بين حالها قبل الفتح وحالها بعده، حيث يلتفت إلى مستلزمات الطقوس المتعلّقة بعقيدة الصليبيين ويربطها بشعائر العبادة عند المسلمين : —

بالأمسِ يملأُ سمعَها ناقوسُهـــم واليوم يملأُ سمعَها التهليـــل (٢)

وهكذا سجّل أبو العباس الجراوي هذه الحادثة بشعره، وقد وفّق في ذلـــك إلى حدّ بعيد، فما ورد في القصيدة يتفق مع الرواية التاريخية عن فتح هذه المدينـــة بصورة كبيرة مع اختلاف في طريقة التعبير.

وقد نسب الرواة إلى الخليفة عبد المؤمن قصيدة قالها في هذا الفتح، وممـــا ورد فيها قوله : —

وأشرقتِ الشمسُ المنيرةُ فوقَنـــا وأصبحَ وجهُ الحقّ غيرَ محجّـــبِ

وطُهّر هذا الصّقع من كلّ كافـــرٍ وعادَ به الإسلام بعد تقلّـــبِ

وكُسّرت الصلبانُ في كلّ بيعَـــةٍ ونادى منادي الحقّ في كلّ مرقبِ

وندرك من الأبيات السابقة انتصار المسلمين وتفوّقهم. وحديث الشاعر عن هذا الانتصار يوحي بإدراكه أهميّته ووعيه خطورة نتائجه. وهو حديث يتفق مع مـــا أورده المؤرخون المعاصرون لأحداث الصراع عن هذا الفتح. فقد ورد في كتـــاب ((المعجب)) أنّ الله محا بهذا الفتح ((الكفر من إفريقية، وقطع عنها طمع العـــدّو،

---

١ — انظر : البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٩ ، شذرات الذهب : ج ٤ ص ١٦٩.

* — الشطر الثاني من هذا البيت مكسور الوزن.

٢ — البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٨.

فانتبه بها الدّين بعد خموله، وأضاء كوكب الايمان بعد انطماسه وأفوله ...))(١).

وأثناء اقامة الخليفة عبد المؤمن في إفريقية التحق به كثير من أبناء القبائل العربيّة جنودا في جيشه (٢)، وقد أشار الشاعر إلى ذلك في معرض تهديده الأعداء بهؤلاء العرب :-

ويغزو بلادَ الرّوم جيشٌ عَرَمرمٌ ... تُخيِّرُ من قيسٍ وأبناءِ يَعْرُبِ(٣)

والقصيدة بعد ذلك تخلو من اللمسات الوصفيّة لأحداث الفتح وكيفيّته، ولعلّ هذا يعود إلى أنّها جاءت ضمن رسالة نثريّة يبشّر فيها الخليفة السيد أبا حفص بهذا النّصر، كما أنّ قائلها ليس شاعرا متمّرسا في قرض الشعر. ومع ذلك فإنّ القصيدة أبرزت أهميّة هذا الفتح الذي طهّرت به افريقية من الكفر بعد أن كاد يضمحل الوجود الإسلاميّ هناك.

وقد ذكر صاحب المنّ أن ابن حبوس الفاسي قال قصيدة في هذا الفتح لم يورد منها إلاّ قوله :-

مُدّت إليكَ على الرّياحِ سُروجُ ... أينَ الفرارُ بأهلكم يا جوجُ (٤)

وقد أورد صاحب زاد المسافر بيتين آخرين من القصيدة، هما :-

عَصَفَتْ بدعوتِك الرّياحُ الهوجُ ... وسطا بأمرك ذابلٌ ووشيجُ

وتقدّمتك إلى العدو مهابةٌ ... يُشْقَى بها في سدّه ماجوجُ(٥)

ومن المؤسف أنّ الدارس لم يعثر في المصادر التي استقصاها على هذه القصيدة كاملة. ولا يخفى على القارىء أنّ الأبيات السابقة حافلة بإيحاءات الضخامة والفخامة التي لجأ الشاعر من أجل إبرازها إلى التلميح لتاريخ الإسكندر الأكبر، ويأجوج ومأجوج (٦).

وقد أشار الأصمّ المرواني الى فتح المسلمين مدينة المهديّة في معرض قصيدة قالها عندما عبر الخليفة عبد المؤمن إلى الأندلس سنة ٥٥٥ هـ(٧). وقد تحدّث الشاعر في هذه القصيدة عن حصانة هذه المدينة وقوّتها، حيث قال :-

---

١ - المعجب : ص ٣٠٠.
٢ - رحلة التجاني : ص ٣٤٤، الحلل السندسيّة في الاخبار التونسية : ج ١ ق ٢ ص ٤٧٩.
٣ - المنّ : ج ٢ ص ١٢٤ - ١٢٥، البيان المغرب : ج ٣ ص ٤١.
٤ - المن : ج ٢ ص ١٢٢
٥ - زاد المسافر : ص ٤٣ - ٤٤.
٦ - انظر الحديث عن قصة الاسكندر الاكبر ويأجوج ومأجوج في آخر سورة الكهف، وكتاب التسهيل : مجلد (١) ج ٢ ص ١٦٤-١٦٥.
٧ - النفح : ج ٣ ص ٥١٢ - ٥١٣.

منيعةٌ من ذُرى سُورٍ تكنّفها ... وزاخرٌ مُزبدُ الأمواجِ من غَضَبِ
تَعلّقتْ في خِناقِ الجوِّ صاعدةً ... حتّى حسبنَا مدارَ النّجمِ في صَبَبِ

والوصف الذى قدّمه الشاعر لمنعة مدينة المهديّة يتفق مع ما أورده المؤرخون . فهي من معاقل المغرب المنيعة ، ذات أسوار عالية تحيط بها ، بالإضافة إلى البحر الذي يكتنفها من ثلاث جهات، فأكسبها حصانة طبيعيّة(١).

ويتحدّث الشاعر عن محاصرة المهديّة ، ويشير إلى طول هذا الحصار الذى أرهق الأعداء ، وأرغمهم على الاستسلام :-

وهبنَ غادرها طولُ الحصار لها ... كأنّها مركبٌ أشفى على العَطَبِ
ألقتْ إليك بأيدي الذلّ طائعةً ... ومكّنتك من المسْلوب والسّلَبِ

ويرسم الشاعر صورة معبّرة للأعداء الذين منّ الخليفة عبد المؤمن بالعفو عليهم ، وأعطاهم الأمان على أنفسهم بعد أن سلّموا المدينة للمسلمين :-

سارَ العلوجُ وفي أعناقهم مننٌ ... من عفو مُقتدرٍ للغزو منتدبِ
مدّوا الأكفّ للمس النّجم من فرحٍ ... وشمّروا لوثوبِ البحر من طَرَبِ(٢)

وفي شهر ذى القعدة من عام ٥٥٥هـ عبر عبد المؤمن البحر من سَبتة* إلى الأندلس، ونزل في مرفأ جبل طارق ليجتمع بطلبة الموحّدين الذين فيها ، وينظر كيف يدّون غزو الصليبيين العابثين في نواحيها .

وقد عبرت مع عبد المؤمن جموع ضخمة من العرب، وكان يوم العبور ((يوما مذكورا مشهورا ، ظهر فيه من فخامة الملك والأمر ما لم يتقدّم في سالف الأزمان)) (٣).

لبث عبد المؤمن في جبل طارق الذى أطلق عليه - للتوّ - ((جبل الفتح)) زهاء شهرين (٤) . وكان خلال ذلك يدرس شؤون الأندلس، ويبذل لمختلف الوفود وعوده بحمايتها ، ومجاهدة أعدائها ، وفعلا فقد كوّن في مكان اقامته جيشا مشتركا من الأندلسيين والموحّدين (٥).

كان عبور عبد المؤمن هذا يوما مشهورا من أيّام الشعر، حيث استدعى الخليفة عددا كبيرا من الشعراء وكان من بينهم جماعة من أقطاب الشعر في المغرب والأندلس.

١ - انظر :- المعجب : ص ٢٤٤ ، الحلل الموشيّة : ص ١٢٨-١٢٩ .
٢ - المن : ج ٢ ص ١٦٢ .
* - سبتة : من العدوة المغربيّة ، تقع على شاطىء المتوسّط . معجم البلدان : مادّة سبتة .
٣ - المن : ج ٢ ص ١٤٧ .
٤ - عصر المرابطين والموحدين : ج ١ ص ٣٨٥ .
٥ - انظر حركة عبد المؤمن هذه : البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٦ ، الحلل الموشية : ص ١٢٩-١٣٠ ، المن : ج ٢ ص ١٤٧-١٥٠ ،
Dominion of the Arabs in Spain, PP. 1-7.

وقد ذكر صاحب المعجب أنّ ابن حبوس الفاسي قال في هذه المناسبة قصيدة لم يورد منها الا قوله :-

بلغَ الزّمانُ بهديكمْ ما أمّــلا ... وتعلّمتْ أيّامهُ أنْ تَعْـــدِلا
وبحسبه أنْ كان شيئا قابــلا ... وجدَ الهداية صورة فَتَشَكّلا (١)

ومن المؤسف أنّ الدارس لم يصل إلى القصيدة كاملة . ولا يُرى في البيتيـــن السّابقين أيّة إشارة تاريخيّة إلى حركة عبد المؤمن، وهما في مجموعهما اشادة بهـــذا الخليفة ، وهي إشادة مستوحاة من تعاليم الموحّدين في الإمامة .

وقد روى صاحب المّن قصيدة قالها أبو بكر بن المنخل الشلبي في هــــذه المناسبة، ومما ورد فيها قوله :-

فتحتمْ بلادَ الشّرقِ فاعتمدُوا الغَرْبا ... فإنّ نسيمَ النصر* بالفتحِ قدْ هَبّــا
أثرتُمْ إليه الخيلَ وهي أجــادلٌ ... فسالتْ بكم بحراً وطارتْ بكم رَكْبــا **
ودُستمْ بها هاماتِ كلّ مضــــلّلِ ... ولم تتركوا عجما هناك ولا عربــــا
رَميتُمْ بها مثلَ السّهامِ فأصبحتْ ... كماتهم تُرْعى وأموالُهم تُنْهَبَــــا

وتتضمّن الأبيات حديثا مجملا عن حروب الموحّدين في إفريقيّة، وضخامة جيوشهم التي اعتمدوا عليها . وهي توحي بشعور التفوّق في تلك الحروب، وبالعنف الـــذي أخذ به الموحّدون الأعداء، كما تحمل احساس الشاعر بقوّة الدولة الموحّدية وعنفوانها وهي في أوّل عهدها بعد . ولعلّه من المفيد الإشارة إلى أنّ المصادر الإسلاميّـــة قد تحدثت عن العديد من معارك الموحّدين في إفريقية (٢).

وقد كان ابن الرّنك من أكثر القادة الصليبيين وطأة على المسلمين في الفتــرة التي عبر فيها الخليفة عبد المؤمن الى الأندلس(٣). ويبدو أنّ الشّاعر كان مدركـــا هذا الأمر، لذلك فقد حثّ الخليفة عبد المؤمن على التوجّه لمحاربة هذا العـــدوّ، وردّ كيده :-

---

١ - المعجب : ص ٢٨٣ .
* ورد في البيان المغرب((الفتح)) .
** - ورد في البيان المغرب((وطالت بكم شعبا)) . هذا ولم يورد ابن عذارى إلا البيتين الأوّلين . انظر : البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٥ .
٢ - انظر :- الكامل : ج ١١ ص ٢٤١-٢٤٧، اخبار المهدي : ص ١١٥، الحلل السندسية في الاخبار التونسية : ج ١ ق ٢ ص ٣٥٦ و ص ٤٧٧-٤٧١، رحلة التجاني : ص ٣٤٤ .
٣ - انظر : الحلّة السيراء : ج ١ ص ٢٧٢، مخطوط الحلل السندسيّة : ورقة ٤٥ .

أقيموا إلى ابنِ الرّيق بعدُ صدورَها وليس عليكم أن تُرى ضُمّرًا قُبّـــا

ضمانٌ عليكم أنْ تبيحوا حريمَــهُ وأنْ تكسروا فيها التماثيلَ والصُّلُبا (١)

والقصيدة بعد هذا قصيدة حماسيّة لا يستشفّ منها ملامح حدث معيّن ، بـل أنّها خلت من الإشارة إلى عبور الخليفة عبد المؤمن إلى الأندلس.

وقد أنشد أبو العبّاس بن سيّد الإشبيلي ، المعروف بـ ((اللص)) قصيدة طويلة ، مطلعها :ـ

غضَّ عن الشّمسِ واستقصرْ مدى زُحلٍ وانظرْ إلى الجبلِ الرّاسي على جَبلِ* (٢)

ويلمح من البيت نزول الخليفة عبد المؤمن في جبل طارق وإقامته فيه . هـــذا ولم يستسغ الخليفة عبد المؤمن هذا المطلع ، فقد قال للشاعر عند ما سمعه : ((ثقلتنا يا رجل)) (٣) وأمره بالجلوس .

والإشارة الصريحة الى عبور الخليفة عبد المؤمن إلى الأندلس كانت في البيت التالي :ـ

لتهنِ أندلسًا أنْ زارها ملكٌ أحيى وأنشرَ فيها ميّتَ الأمَـــلِ

وتتضمّن القصيدة إشارات إلى فتوح الموحّدين في إفريقية :ـ

سَمَا إلى الشرقِ يجتابُ اليبابَ به عتقُ المهارةِ والمهريّةِ الذّلـــلِ

وفي القصيدة استعراض للجيوش التي احتشدت في جبل طارق غداة عبـــور الخليفة عبد المؤمن :ـ

وجحفلٍ لجبٍ سُدَّ الفجاجُ بـه وأعثرُ الطّيرُ منهُ في ذُرى الأسَـلِ

تمدّ وعليه ذكاءٌ وهي قد نهبَتْ فتستجدُّ أناةً مِنْ سُنَى المُقَـــلِ

مصاحبًا مثله في اليمّ متّصـــلاً منهُ بحزمٍ وعزمٍ غير منفصـــلِ

من كلّ عائمةٍ في شكلِ طائـــرةٍ تشاكلُ الأمرُ فيها كلّ مشتكـــلِ

ونستشفّ من الأبيات ضخامة تلك الجيوش وكثرة عددها . فهناك الجموع البريّة الكثيفة وترافقها قطاعات بحرية تماثلها في الكثرة .

---

١ ــ المنّ : ج ٢ ص ١٥١-١٥٥ .

* ــ ورد في رايات المبرّزين ((الجبل)) .

٢ ــ لم يرد في الرّايات إلاّ البيت الأوّل ، وفي المعجب البيتان الأوّلان ، وورد في زاد المسافر ثلاثة أبيات على غير ترتيب . انظر : الرايات : ص٤٨ ، المعجب : ص٢٨٦ ، زاد المسافر : ص١٤ .

٣ ــ المعجب : ص ٢٨٦ ، انظر المن : ج ٢ ص ١٥٦ .

وندرك من القصيدة تمكّن سلطان الموحّدين في إفريقية وتوطّن أركان دولتهم :—

حتّى إذا استوسقَ الأمرُ العليّ لهُ بالشّرق كرّ لنصر الغرب في عَجَلِ (١)

وقد روى صاحب المنّ قصيدة طويلة قالها الأصمّ المرواني عندما عبر الخليفة عبد المؤمن إلى الاندلس، استهلّها بقوله :—

ما للعدا جنّة أوقى من الهرب * أينَ المفرّ وخيل الله في الطّلب (٢)؟

ويذكر المؤرّخون أنّ ابناء القبائل العربيّة كانوا يشكّلون فئة كبيرة من الحشود التي جازت مع الخليفة عبد المؤمن إلى الأندلس(٣). وقد أشار الشاعر الى ضخامة تلك الحشود قائلا :—

حدّث عن الرّوم في أقطار أندلس والبحرُ قد ملأ العبرين بالعرب

من كلّ من يترك الهيجاءَ في حلك جمرٍ إذا اخضرّت الغبراءُ بالعُشُب

ويتحدّث الشاعر عن نزول الخليفة عبد المؤمن في جبل طارق، ويقرن ذلك بنزول سيدنا موسى عليه السلام في جبل الطّور :—

وطودِ طارقَ قد حَلَّ الإمام بـه كالطّور كان لموسى أيمنَ الرّتبِ

لو يعرفُ الطودُ ماغشّاه من كرمٍ لم يبسط الغورُ فيه الكفَّ للسحُب

ولو تيقّنَ بأسا حلّ ذروتَـهُ لماد كالمهن من خوفٍ ومن رَهَب

وحين يتحدّث الشاعر عن فتوح الموحّدين في إفريقية يشير إلى فتك الموحّدين بقبيلة رياح، وقتلهم زعيمها محرز بن زياد الفارغي(٤) الذي رفض الإذعان لهم :—

---

١ — المنّ : ج ٢ ص ١٥٦ — ١٥٩.

* — لم يستحسن عبد المؤمن أن يهرب الأعداء منه. فقال إلى أين، إلى أين ؟ فأكمل الشاعر بيته. انظر المعجب : ص ٢٨٥.

٢ — اكتفى عبد الواحد المرّاكشي بالأبيات الثلاثة الأولى من القصيدة، واكتفى ابن عذارى بالبيتين الأوّلين. وأورد صاحب النفح عدّة أبيات منها على غير ترتيب. انظر :— المعجب : ص ٢٨٥، البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٥، النفح : ج ٣ ص ٥١٢ — ٥١٣.

٣ — انظر :— المنّ : ج ٢ ص ١٤٤، المعجب : ص ٢٩٣ — ٢٩٤.

٤ — انظر : تاريخ ابن خلدون : ج ٦ ص ٤٤.

صَدَرْتَ بالمرب المرباء وانقلبتْ عن الحسام (رياحٌ) شرَّ منقلب
فكان سيفُك نقّادا له بَصَرُهُ نَفَى الزيوفَ وأبقى خالصَ الذهب
وردَّ رأس زيادٍ ماله جَسَدُهُ من مارنٍ بالدّم المّوار مُخْتضب

ويظهر أنّ الأصمّ المرواني كان يستشعر الخطر الذى يهدد المسلمين في الأندلس، لذلك فإنّ في القصيدة إرهاصات بتردى الأوضاع فيها، فقد ((أصبحت مسودّة الطّنب)) :—

إنّ الجزيرة منّ طول انتظاركم لها بكلّ طريق لحظُ مُرتقِب
صافحْ بتلك اليد البيضاء قبّتها فإنّها أصبحَتْ مسودّةَ الطّنب (١)

ومن الشعراء الذين أنشدوا عبد المؤمن في جبل الفتح الشيخ أبو الحسين عبد الله بن محمد بن صاحب الصلاة الباجي، حيث قال قصيدة مطلعها :—

تلألأ من نور الخلافة بارقُ أضاءت به الآفاقُ والليل غاسقُ*

وقد أشار الشاعر إلى قدوم الخليفة عبد المؤمن إلى الأندلس ونزوله في جبل طارق :—

وهبّ برياه النسيم فخلتُه يُخبّرنا أنّ الخليفةَ لاحِقُ
إلى جبلٍ قد كان للفتح منزلا ولاذَ به بالفتح موسى وطارقُ

ويذكر المؤرخون أنّ وفودا كثيرة قدمت إلى المغرب تدعو عبد المؤمن إلى الأندلس وتستنصره للجهاد فيها (٢)، وقد أشار الشاعر إلى ذلك قائلا :—

وكرّ إلى نصر الجزيرة بعدَ ما أتاه مع الرّكبان ناعٍ وناعِقُ

وندرك من القصيدة أنّ الجيش الذى عبر مع الخليفة عبد المؤمن إلى الأندلس جيش ضخم تضيق عنه الأرض :—

بجيش تضيقُ الأرضُ عنه بطولها وترهبُهُ لوعاينَتْهُ العمالِقُ(٣)

وقد أنشد أبو عبد الله محمد بن غالب المعروف بالرّصافي البلنسي — وهو لم يبلغ العشرين بعد — قصيدة بين يدى عبد المؤمن استهلها بقوله :—

---

١ — المنّ : ج ٢ ص ١٦٠ — ١٦٤ .
* — أورد ابن عذارى أربعة أبيات من القصيدة . البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٦ .
٢ — انظر : المرقبة العليا : ص ١٠٦ ، النفح : ج ٢ ص ٣٠ ، عصر المرابطين والموحدين : ج ١ ص ٢٦٧ ، المعجب : ص ٢٨١ — ٢٨٢ .
٣ — المنّ : ج ٢ ص ١٦٤ — ١٦٨ .

لو جئت نارَ الهدى من جانب الطورِ قبست ما شئت من علمٍ ومن نـــورِ

والفكر العامّة في هذه القصيدة هي الاشادة بالخليفة عبد المؤمن الذى ورث الهداية والنور عن المهدى ابن تومرت. ويتخلّل ذلك إشارة إلى نزوله في جبـــل طارق :—

يا دار ... دار أمير المؤمنين بسفـ ح الطود ، طور الهدى بوركت في الدّورِ

ويصف الشّاعر السّفن التّي أقلّت الخليفة عبد المؤمن وحشوده ، ويحدّد الطـــرق التي سلكتها حتّى وصل جبل الفتح :—

تسنّمَ الفلكَ من شطّ المجاز وقـد نودينَ : يا خيرَ أفلاكٍ لتسييرِ

فسرنَ يحملنَ أمرَ اللّه من ملـــكٍ باللّه مستنصرٍ، في اللّه مَنْصـــورِ

لمّا تسابَقْنَ في بحر الزّقاق بـــه* تركْنَ شطّيه في شكٍّ وتخييـــرِ

ذو المنشآت الجواري في أجرّتهـا* شكل الغدائرِ في سدلٍ وتضفيـــرِ

حتّى رمتْ جبلَ الفتحينْ* مِنْ كثـبٍ بساطع من سناه غير مَبْهُـــورِ(١)

وإذ يشير الشّاعر في هذه الأبيات إلى عبور الخليفة عبد المؤمن إلى الأندلـس ونزوله في جبل الفتح ، كذلك فانّنا ندرك منها قوّة الاسطول الموحّدى وكثرة قطاعاته . فقد أشارت المصادر إلى القوّة البحريّة الهائلة التي كان ينعم بها المغرب والأندلس في عصر الموحّدين . كما أشارت إلى مصانع السفن التي كانت منتشرة في أرجاء الدّولة(٢).

وورد في كتاب المغرب أنّ أبا جعفر بن سعيد أنشد الخليفة عبد المؤمـــن وهو بقصره في جبل الفتح قصيدة استهلّها بقوله :—

تكلّمْ فقد أصغى إلى قولك الدّهرُ وما لسواك الآن نهي ولا أَمـــرُ

والقصيدة لم يصلنا منها إلاّ بضعة أبيات ، وهي لا تزيد على أنّ تكون اشـــادة بعبد المؤمن وثناء عليه بما هو أهله . وتخلّل ذلك إشارة إلى نزوله في جبـــل الفتح :—

---

*— جبل الفتحين : هو جبل الفتح ، ثنّاه الشّاعر وهو مفرد تفاؤلا وتيمّنا .

١ — ديوان الرّصافي البلنسي : ص ٨٧ — ٩٠ .

٢ — المن : ج ٢ ص ٦٤ .

ألا إنّ قدرا قد بدا لي بأفقهم محياك أهلٌ أن يخرّ له البدر
أطلّ على البحر المحيط مرفّعا فخرّ له الشّعرى وتوجّه النّسر (١)

وتذكر المصادر أنّ الخليفة عبد المؤمن شكّل أثناء إقامته في جبل الفتح جيشا مشتركا من الأندلسيين والموحدين(٢) . وقد توجّه هذا الجيش نحو ((فحص بلقون)) ، فوجد النصارى قد استعدّوا للقاء المسلمين ، فاشتبك الفريقان ، وكان بينهما ((حرب شديد نصر الله فيه المسلمين على أعدائهم الكافرين ، وكانت هزيمة لم يعهد مثلها))(٣) .

وقد قال أبو العبّاس الجراوي قصيدة في هذه الموقعة ، مما جاء فيها :—

أعليت دينَ الواحد القهّار بالمشرفيّة والقنا الخطّار
ورأى بك الإسلامُ قرّة عينه وغدت بك الفرّاء دارَ قرار
وسلكتَ من طرق الهداية لاحبا طوبى لمَنْ يمشي على الآثار(١)

والأبيات توحي بتفوّق المسلمين على أعدائهم في هذه المعركة ، وتحمل إحساس النشوة بهذا الظافر الإسلاميّ .

ويسخر الشاعر من الأعداء حين يرسم مشهدا حيّا ، للحالة النفسيّة التي اعترتهم بعد هذه المعركة :—

وحللتمُ جبلَ الهدى فحللتم منه عقودَ عزائم الكفّار
لو بدّلوا أقدامهم بقوادم طاروا عن الأوطان كلّ مطار(٤)

وما عدا هذه الأبيات التي تشير إلى نتيجة المعركة ، فإننّا لا نجد في القصيدة أيّة إشارة تاريخية تعين على إقامة علاقة بينها وبين الحدث الذى قيلت فيه ، حيث كانت القصيدة معرضا للإشارة بعبد المؤمن ، وتمجيد الانتصار .

١— انظر أبيات من القصيدة في :— المغرب : ج ٢ ص ١٦٥ ، الإحاطة : ج ٢ ص ٢١٦ ، الحلل الموشّية : ص ١٦٠ ، مخطوط الحلل السندسيّة : ورقة ٦١ ، وقد ترجم Dr. Conde القصيدة إلى الأسبانيّة ، ونقلتها Mrs Jonthan Foster عن الإسبانية إلى الانجليزية . انظر :
Hist . of the dominion of the Arabs in Spain, Pp . 3-4

٢— الحلل الموشّية : ص ١٢٦ ، البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٦ .

٣— البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٦ .

٤— البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٦ — ٤٧ .

وفي سنة ٥٥٧ هـ عبرت جيوش موحّدية ضخمة إلى الأندلس للانتقام للهزيمة التي ألحقها ابن همشك (١) وحلفاؤه الصليبيون بالمسلمين في معركة مرج الرّقاد بظاهر غرناطة (٢).

وفي مساء يوم الخميس، السابع والعشرين من رجب سنة ٥٥٧ هـ التقى الفريقان في معركة عنيفة في موضع السّبيكة (٣). أبلى المسلمون في هذه المعركة بلاءً حسناً، وقتلوا جموعاً غفيرة من الأعداء، ولمّا بأت الصّباح حتّى انكشفت المعركة عن انهزام ابن همشك وحلفائه، وقتل معظم قادتهم وفي مقدمتهم ((العلج الذميم الأقرع)) الذي احتزّت رأسه، ورفعت على باب القنطرة في قرطبة (٤).

وقد قال الشوّاش الشّلبي في هذه المعركة قصيدة مطلعها : —

عزماتُ منصورِ العزائم غالبِ ... ضمنتْ فتوحَ مشارقٍ ومَغاربِ

وهذا المطلع حافل بمعاني القوّة التي توحي بشعور التفوّق.

والإشارة الصريحة إلى انتصار المسلمين في هذه المعركة كانت فيما يلي : —

يا سعد دين الله أفلحَ حزبُه ... وهوت عداهُ في عذابٍ واصِبِ

ويقدّم الشاعر صورة للقتال في هذه المعركة في الأبيات التالية : —

واستنجدَتْ بنجاحهِ وبهمّهِ ... فقطَعْنَ عرضَ البيد غيرَ لواغبِ

بسوابقٍ كبوارقٍ، ومواكبٍ ... ككواكبٍ، وجنائبٍ كخبائبِ *

كاثرْنَ أعداد الحصى وتثاءبتْ ... منها غساحُ أجارعٍ وأخاشبِ **

طلعتْ على الأعداء سُحباً للرّدى ... سالتْ دماً بأباطحٍ ومذانبِ

---

١ — هو إبراهيم بن محمد بن مفرّج بن همشك، روميّ الأصل، كان في جملة الطامعين في إقصاء الموحّدين عن الأندلس. انظر : الإحاطة : ج ١ ص ٢٦٦ — ٣٠٣، المعجب : ص ٢٠٨.

٢ — وقعت سنة ٥٥٧ هـ. انظر : البيان المغرب : ج ٣ ص ١٥، الحلّة السّيراء : ج ٢ ص ٢٥٨.

٣ — السّبيكة : — بسيط أخضر شاسع يقع جنوب شرقي الحمراء. الإحاطة : ج ١ ص ١١٦ تعليق رقم (٦).

٤ — انظر تفاصيل المعركة في : المنّ : ج ٢ ص ١٩٨، الحلّة السيراء : ج ٢ ص ٢٥٨ — ٢٥٩، الإحاطة : ج ١ ص ٣٠١، ج ٢ ص ١٢٧.

* — الجنائب : جمع جنيبة، وهي النّاقة التي تحمل الميرة، والخبائب : جمع خبيبة، وهو الخطّ من السحاب أو الرّمل. لسان العرب : مادّتا ((جنب)) و ((خبب)).

** — الأجارع : — الأرض المستوية، والأخاشب : — الجبال الغليظة الخشنة. لسان العرب : مادّتا ((جرع)) و ((خشب)).

ولا نرى في الأبيات وصفا تفصيليا للقتال، وإنّما هي إشارة خاطفة يستشفّ منها ضخامة الجيوش الإسلاميّة التي اشتركت في المعركة، واستخدام المسلمين الخيول والإبل فيها، وفتكهم بالأعداء.

وتذكر المصادر أنّ هذه المعركة وقعت ليلة الجمعة، وقد أشار الشاعر الى ذلك :—

يومُ العَروبة (١) أعربَتْ فتكاتُـــهُ ... في الكفرِ عَنْ فتحٍ مبينٍ راتـــبِ

ويتحدّث الشاعر عن فتوح الموحّدين في إفريقية وتغلّبهم على أعدائهم هناك :—

أمضى إلى الشرق القصيّ عزيمـةً ... نالتْ قيادَ أعاجمٍ وأعـــاربِ

تبدو بها شمسُ النهار سقيمـــةً ... تشكو الضّنى منها بلونٍ شاحـــبِ (٢)

وقد أشار أبو الحكم بن رضى البلنسي إلى هذه المعركة في قصيدة ذكر فيها ما تقدّم من الفتوح، حيث قال :—

حالتْ على ابن عبيدٍ بعد أقرعـهِ ... بها، فأردتهما رجراجةٌ جـــولُ

ولم تدعْ مردنيشاً عند جولتهـــا ... يومَ العَروبة إلاّ وهْوَ مذهـــولُ

سائِلْ بغرناطةٍ عنهُمْ ومرسيــةٍ ... فمنّهمُ خبرٌ في النّاسِ منقـــولُ

يجيبك هامٌ وأشلاءٌ ممزّقـــــةٌ ... في كلّ قاعٍ ومفؤودٌ ومشكـــولُ (٣)

وقد احتوت هذه الأبيات بعض المعلومات الضافية عن معركة السبيكة. فقد ذكرت قادتها، وهم : ابن همشك والأقرع النصراني، وتحدّثت عن تضعضع قوى ابن مردنيش بعد هذه المعركة. وأشارت إلى يوم وقوعها، وهو : يوم الجمعة، كما أشارت إلى كثرة قتلى الأعداء فيها.

وفي أوّل شهر ربيع الأوّل من عام ٥٦٠ هـ تحرّك السيد الأعلى أبو حفص من حضرة مراكش بعسكر مختار من أنجاد الموحّدين متقدما به إلى قرطبة وإشبيلية لحمايتها ودفع النصارى والأشقياء عن معمورها (٤).

---

١ — وهم محقّق كتاب المنّ عندما ضبط ((العُروبة)) بضمّ العين ((العُروبة))، نسبة إلى العرب، والصّواب بفتحها، وهو يوم الجمعة. انظر : لسان العرب : مادّة ((عرب))، المنّ : ج ٢ ص ٤٢٧.

٢ — المنّ : ج ٢ ص ٢٠٨—٢١١.

٣— المنّ : ج ٢ ص ٤٢٧.

٤ — البيان المغرب : ج ٣ ص ٦٣، المنّ : ج ٢ ص ٢٥٠ — ٢٥٣.

رصد الشعراء هذه الحركة، ومن هؤلاء ابن حربون الذى قال قصيدة مطلعها :—

قد حَصْحَصَ الحقُّ لا ريبٌ ولا فنـدُ　　　هذي الفتوحُ التي كانوا بها وُعِدُوا

ويشير الشاعر إلى قدوم أبي حفص إلى الأندلس ونزوله فيها :—

خذوا بحظِّكمُ يا أهل أندلسٍ　　　منها، فما لغاوٍ من بعدها رشدُ

هذا سليلُ إمام الحقّ بينكـمُ *　　　لا المالُ مدّخرٌ عنكم ولا الولـدُ

ويحدّد الشاعر المكان الذى نزل فيه أبو حفص وهو جبل طارق :—

انظر إلى مجمع البحرين كيف حوَى　　　من الفضائل ما لم يحوه بلـدُ

لاقى الكليمُ على الشاطي به خَضِرا　　　وفيه لاقى أخاه السيّدَ السيّدُ

وندرك من البيتين أنّ السيّد أبا حفص قد التقى في جبل الفتح بأحد السّادة الموحّدين، وهو — فيما يروى ابن صاحب الصلاة — أبو سعيد عثمان (١). وقد استوحى الشّاعر القصص القرآني عند ما قرن لقاء أبي حفص بأخيه في مضيق جبل طارق بما ذكره بعض المفسّرين عن التقاء نبيّ الله موسى بالخضر عليه السلام في المكان نفسه (٢).

ويضفي الشّاعر على قصيدته سمة الواقعيّة في الوصف حين يتحدّث عن التشكيلات البحريّة التي أقلّت الجند المسلمين وعبرت بهم البحر إلى الأندلس :—

يا منْ رأى الفُلكَ فوقَ الموج طافيةً　　　كما كفات قباباً وسطها العَمـدُ

ينسابُ منهنّ في أعلى غواربـه　　　أساودٌ سكنت أجوافَها أُسُـدُ

وفي القصيدة ذكر صريح لاسم أبي حفص الذى قاد هذه الجيوش :—

بحرٌ كأنّ أبا حفص بصهوتـه　　　لقمان والمركب الجاري به لبـد

ويذكر صاحب المنّ أنّ ابن حربون كان شاهد عيان لحركة أبي حفص (٣)، لذلك فإنّنا نظفر بوصف حيّ لتقدم الجيوش الاسلامية التي رافقته :—

ها أنّها كالدَّبا تنساعُ نحوكـمُ　　　فيها الحفاظُ وفيها الصبرُ والجلدُ

ترى الكماةَ التي ما شأنُها خورٌ　　　على الجيادِ التي قدْ زانَها الجَيَدُ

شيبٌ ومُردٌ ينادى البأسُ أنْ ركبوا :　　　أينَ الغواةُ الأولى قد طال ما بَرَدُوا

---

١ — المنّ : ج ٢ ص ٢٥٣، وأبو سعيد هو أحد أبناء الخليفة عبد المؤمن. المنّ : ج ٢ ص ٢٢٢.

٢ — انظر : — كتاب التسهيل : مجلد (١) : ج ٢ ص ١٩١—١٩٣، قصص الانبياء : ص ٣٠٢.

٣ — المنّ : ج ٢ ص ٢٥٣.

ظنّوا بها قد أتتْ تُزجي مَقانبَها	مثل الرّواعدِ فيها البرقُ والبَـرَدُ
وللذّ وابلِ في أرجائها نفـمٌ	كأنّ كلّ سِنان طائرٌ غَـرِدُ
من كلّ أزرقَ آثارُ الدّماء بـه	كأنه مقلة قدْ مسّها رَمَـدُ (١)

والأبيات تقدّم صورة حيّة للجيوش الإسلاميّة المتقدّمة . فهي كثيرة العـدد ، واسعة الانتشار ، سريعة الحركة ، تضمّ فرسانا مجرّبين ، يمتطون صهوات خيول أصيلـة ، ويحملون رماحا سامقة بدت عليها آثار الدّماء . وأخال أن الشاعر لم يكن مبالغـا في وصفه ، فقد أشارت الرواية الإسلاميّة إلى ضخامة الجيوش الإسلاميّة التي عبرت مع أبي حفـص (٢).

وهكذا فالقصيدة ذات محور واحد تنشد إليه خيوطها جميعا ، وهو وصف حركة أبي حفص إلى الأندلس ، وقد أتى الشاعر في هذا الوصف ببعض المعلومات التاريخيّة المفيدة .

ويبدو أن عبور أبي حفص الى الأندلس قد استحقّ من هذا الشاعر أكثر من قصيدة ، فهناك قصيدة أخرى قالها عندما عاد أبو حفص من حركته ، وقد استهلّهـا بقوله : —

بأيمنِ طائرٍ كان الإيـابُ	وأنجحَ مَطلبٍ بلغ الطّـلابُ

وقد اتخذت القصيدة منذ البداية طابع التهنئة بالعودة ، ونظفر خلال ذلك بإشارات إلى عبور أبي حفص إلى الأندلس على رأس جيش ونزوله فيها : —

دلفتّمْ بالأسودِ إلى بـلادٍ	ثوت حِجَجًا تعيثُ بها الذّئـابُ
أشبّتْها غداة حللتُموهـا	بلادَ الجدْبِ حلّ بها السّحـابُ !

ويذكر ابن صاحب الصلاة أن عددا كبيرا من أبناء القبائل العربية عبر مع أبي حفص الى الأندلس في حركته هذه (٣). وقد أشار الشّاعر الى ذلك قائلا : —

جمعتّمْ من بني قيسٍ شُعوبـا	تسيلُ بها المَحاني والشّعـابُ
تجانسَ جيشُهم لفظاً ومَعْنـىً	فهم عَربٌ وخيلُهمُ عِـرابُ

وندرك كثرة الجيوش التي عبرت مع أبي حفص من البيت التالي : —

١ — المنّ : ج ٢ ص ٢٥٣ — ٢٥٧ ، البيان المغرب : ج ٣ ص ٦١ .
٢ — المنّ : ج ٢ ص ٢٥٠ — ٢٥١ .
٣ — المنّ : ج ٢ ص ٢٥١ .

سَرى عنكمْ ببحرٍ مُكفهِــــرٍّ   يُصَبُّ على العصاةِ به العذابُ (١)

وهناك قصيدة أخرى قالها ابن حربون في المناسبة نفسها، مطلعها :ــ

حُثّوا المطيّ فقد قضتْ أوطارَها   واحْدُوا إلى بابِ الأميرِ قطارَهـا

والقصيدة كسابقتها اتخذت طابع المدح، والإشادة بأبي حفص، وتهنئتــه بالعودة، ويتخلل ذلك حديث عن عبوره إلى الأندلس ووصف للجيش الذي دخل معـه، يقول :ــ

جهزّتمُ نحوَ الأعادي فيلقــاً   سحّابَ أذيالِ القنا جرّارَهـــا

جاءوا تقدّمها السعود طلائعا   وترى ملائكةَ العُلا أنصارَهـــا

لبستْ بها شمسُ الظهيرةِ حُلّةً   خلط العجاجُ لجينَها ونُضارَهـا

فتطلّعتْ منهُ تطلّعَ غــادةٍ   تبدو وأحيانا تضمُّ خمارَهـــا (٢)

وهذه الأبيات لا يستشفّ منها إلاّ الإشارة إلى عبور أبي حفص إلى الأندلـس على رأس جيش، وتصوير انفعالات الشاعر إزاء ذلك، دون أن يجد الدّارس فيهـا حديثا تفصيليا عن هذه الحركة، والجيوش التي رافقتها .

وهناك مقطوعة لابن حربون قالها في حركة أبي حفص، وهي في مجملها إشـادة بشجاعة أبي حفص وعلوّ همّته، وصفاء عزيمته، دون أن يوجد فيها ما يستفاد به مـن معلومات تاريخية (٣).

وقد قال الشوّاش الشلّبي قصيدة في هذه الحركة مطلعها :ــ

وضَحتْ بأنوارِ الهدى قسَماتُه   وبانتْ الهَدْيِ القويمِ سِماتُـهُ (٤)

كذلك فقد قال الكاتب أبو عبد الله الشاطبي (٥) قصيدة مطلعها :ــ

سلامٌ كعَرف الرّوض غبّ قِطَـاره   تحيّة مشتاقِ الفؤاد مُطـارِه (٦)

وكلتا القصيدتين تخلو من أيّة لمسات تفصيلية أو إشارات تاريخية عن حركـة أبي حفص، وتحوّلت إلى معرض إشادة به وبالخلافة الموحّديّة .

---

١ ــ المنّ : ج ٢ ص ٢٦٢ ــ ٢٦٤ .
٢ ــ المنّ : ج ٢ ص ٢٦٥ ــ ٢٦٦ .
٣ ــ انظر : ــ البيان المغرب : ج ٣ ص ٦١، المنّ : ج ٢ ص ٢٥٦ ــ ٢٥٧ .
٤ ــ البيان المغرب : ج ٣ ص ٦٢، المنّ : ج ٢ ص ٢٦٠ ــ ٢٦٢ .
٥ ــ لم نعثر له على ترجمة فيما قرأناه .
٦ ــ المنّ : ج ٢ ص ٢٦٦ ــ ٢٦٨ .

وفي عام ٦٠٠هـ خرجت من إشبيلية جيوش موحدية ضخمة بقيادة أبي حفص، واتجهت نحو مرسية بقصد غزو ابن مردنيش وحلفائه.

وفي الوقت نفسه كان ابن مردنيش قد حشد قواته. وفي السابع من ذي الحجة سنة ٦٠٠هـ التقى الفريقان في معركة عنيفة في موضع يعرف بـ((فحص الجلاب)) (١).

استمرت المعركة حتى مغيب الشمس، وقد أبلى المسلمون فيها بلاء حسنـــا، وفتكوا بأعدائهم فتكا ذريعا، وانجلى القتال عن انهزام ابن مردنيش وحلفائه، وتشتت قواهم (٢).

وقد قال شاعر مجهول قصيدة في هذه المعركة يبشر فيها بالانتصار، استهلها بقوله :ـ

لَقَدْ بلغَتْ جيادُكُمُ مَداهَـــا	وَنالتْ ما أرادَتْ مِن عِداهـــا
وَما هيَ فاسألوا الإصباحَ عنها	بحمدِ اللهِ قد حَمدَتْ سُراهَـا
تَمُدُّ رِضا كُمُ عِزّا وَجاهـــاً	فما تشكو على حالٍ وَجاهَـــا
تهيمُ بحبِّ طاعتِكم فتَطْـــوِي	بساطَ القَفْرِ حتّى قدْ طَواهَـــا

ونستدل من الأبيات انتصار المسلمين على أعدائهم في هذه المعركة، إلاّ أنها جاءت خالية من الحماسة التي تتناسب مع روح الانتصار العسكري الذي تشيـــر اليه، فهي أشبه بالاخبار التقريـــري.

ويحدد الشاعر بعض مواقع القتال وهي : أرض الشرق وتدمير (٣)، ويصف مـــا نال العدو فيها :ـ

لقد شنّتْ بأرضِ الشرقِ حـــتّى	أباحَتْ بعد مَنْعَتِها *حِمَاهَـــا
أُتيحَ بها لتُدْمِيرَ دمـــــارٌ	فدُكَّ على ترائبِها رُباهـــا

وينفرد الشاعر بذكر غزو المسلمين مدينة تُدْمِير وفتكهم بها، وهذا ما لم تشر اليه الرّواية التاريخيـــة.

---

١ — فحص الجلاب : يقع على بعد عشرة أميال من مرسية. المنّ : ج ٢ ص ٢٧٣.

٢ — انظر أخبار هذه الموقعة في : المنّ : ج ٢ ص ٢٧٢—٢٨٢، الحلّة السيراء : ج ٢ ص ٢٦٠، الاحاطة : ج ٢ ص ١٢٧.

٣ — تُدْمِير : هو الاسم القديم لكورة مرسية، الحلّة السيراء : ج ١ ص ٦٢.

* — ورد في البيان المغرب : ((محنتها)) ج ٣ ص ٦٥.

وقد أشارت المصادر إلى عنف المعركة وضراوة القتال فيها ، ويمكن أن نتلمس طرفا من ذلك في الأبيات التالية : —

ألا لله أيُّ مقام هَـــول ... تحلّ الرّاسياتُ له حُباهَا

إذا سمعَ القناعسةُ حديثا ... ثنى أعطافه طربا وتاهَا

تراكمت القساطلُ فيه حتّى ... جلتْ أنوارُ سعدكم دُجاهَا

ويشير الشاعر إلى فتك المسلمين بالأعداء وقتل معظمهم : —

ذرتْهُمْ فيه ريحُ النصر طحنا ... غداةَ أدارت الهيجا رحاهَا

ويذكر ابن صاحب الصلاة أنّ ابن مردنيش عندما عاين مصارع أصحابه وأحزابه الكفرة ، ولّى مهزوما واستند إلى جبل قريب من المعركة إلى أن ستره الليل ، فركب فرسه وفرّ إلى مرسية (١). وقد ضمّن الشاعر هذه المعلومات قصيدته : —

فإن ينجُ اللعينُ لغير منجى ... لقدْ فغرت شَعوبُ عليه فَاهَا

تكتّمَ في غمار أو غبار ... وعينُ الحرب لم تطرَف قذاهَا

وولّى يقطع البطحاءَ شزراً ... على شوهاءَ ما ونيتْ شواهَا

ولو فاتَتْ وميضَ البرق عدْوا ... لخطّاها ولم يحمد خُطاهَا

وباتَ يصارع الظلماءَ وَهْنا ... ويحسدُ من كواكبها سُهاهَا(٢)

وهكذا فقد استوعب الشاعر بعض الحقائق التاريخية عن هذه المعركة في قصيدته ، مثل : — الإشارة الى انتصار المسلمين ، والتلميح إلى عنف القتال . وكثرة قتلى الأعداء ، وتحديد بعض مواقع العمليات العسكرية ، ووصف فرار ابن مردنيش بدّقة . ومع ذلك فإنّ القصيدة خلت من الروح الحماسية التي تناسب أجواء الحرب .

وفي الثاني والعشرين من شهر شعبان سنة ٥٦٤هـ دارت حول مدينة بطليوس معركة عنيفة استطاع المسلمون في إثرها تحرير المدينة من الصليبيين الذين كانوا قد احتلّوها في شهر رجب من عام ٥٦٤هـ (٣).

وقد قال ابن حربون قصيدة في هذا الفتح مطلعها : —

---

١ — المنّ : ج ٢ ص ٢٧٤ .
٢ — المنّ : ج ٢ ص ٢٨٣ — ٢٨٥ ، البيان المغرب : ج ٣ ص ٦٥ .
٣ — المنّ : ج ٢ ص ٣٨٠ — ٣٨٢ ، البيان المغرب : ج ٣ ص ٨٠ — ٨١ ، أشباخ : ص ٢٨٠ .

بسعدِكَ أضحَى الدّينُ جذلانَ باسما   وباسمكِ أمسى الشّركُ للشّركِ هادِمًا

ويحمل هذا المطلع مشاعر الابتهاج التي يستشفّ منها انتصار المسلمين على أعدائهم، كما يوحي باشتراك بعض المشركين مع المسلمين في فتح مدينة بطليوس، ولا شك أنّ هؤلاء المشركين هم فرّانده الببوج وجنوده. فقد ذكر المؤرّخون أنّ الببوج هذا قد أمدّ المسلمين بجند من عنده في هذه المعركة (١).

والإشارة الصريحة إلى محالفة البهوج المسلمين في هذه المعركة ومسالمته لهم كانت فيما يلي : —

بحِلْفكُم* الميمونِ أَدركَ ثَـارَهُ   وإن لَمْ يجئكم مُسلِما فَمُسَالِمًا

ويذكر ابن صاحب الصلاة أن القائد الصليبي الذى هزم في المعركة هو ابن الرّنك (٢)، وقد أشار الشاعر الى ذلك : —

وكيف رأى ابنُ الرّنك مركبُ نَفْسِهِ   إذا اعتاض من دُهْمِ الجيادِ الأداهِما

وإنْ يَتَسنّمها محارمُ عِـزّةٍ   فها هو قد لاقَى عَليْها المَحَارِمَا

لقد رام منها شُهدةً ما استساغها   ولا لاكَها حتّى استحالَتْ عَلاقِمًا (٣)

فالشاعر الذى شاهد غارات ابن الرّنك على الأندلس فترة من الوقت لم تفته ملاحظة الوضع الجديد الذى آل اليه بعد هذه المعركة.

والقصيدة — على طولها — لم تخصص للموضوع الرئيسي — وهو فتح مدينة بطليوس — إلاّ أبياتا معدودة. وهذه الأبيات ليس فيها عن الفتح إلاّ الإخبار به. والإشارة إلى محالفة الببوج المسلمين، وذكر القائد الصليبي الذى هزم في هذه المعركة.

ويروى ابن عذارى المرّاكشي قصيدة لأبي العبّاس الجراوى قالها في فتح مدينة بطليوس، مطلعها : —

---

١ — المنّ : ج ٢ ص ٣٨٠ — ٣٨٢.

* — ورد في البيان المغرب ((بخلقكم)).

٢ — المنّ : ج ٢ ص ٣٨٠.

٣ — المنّ : ج ٢ ص ٣٨٤ — ٣٨٧، البيان المغرب : ج ٣ ص ٧٦ و ص ٨٢.

نَصْرٌ*بكلّ سعادةٍ مقرونُ   نالتْ به الدنيا المُنى والدّينُ (١)

ويوحي المطلع بانتصار المسلمين ، وقد قدّم الشاعر هذا النّصر في إطار من التفاؤل والاستبشار. والقصيدة بعد هذا المطلع ما هي إلا أبيات يشيد الشاعر فيها بقائد الفتح ، دون أن يجد الدّارس فيها أيّة اشارة تاريخية لفتح مدينة بطليوس.

وفي السابع والعشرين من شهر رمضان سنة ٥٦٦هـ عبر الخليفة يوسف البحر بجيش ضخم للقيام ببعض الأعمال الجهاديّة في الأندلس. وكان الخليفة قد احتفل بذلك احتفالا عظيما ، فاستدعى العرب من أرض إفريقية والزّاب (٢) ، وجمع الموحّدين من أرض العدوه ، واستنهض صنوف الأجناد والمطوّعة .

مكث الخليفة يوسف في الأندلس خمسة أعوام قام خلالها ببعض الغزوات لم يجن من ورائها ما كان يرتجى من النّصر (٣).

رصد الشعراء هذه الحركة ، وقالوا القصائد فيها ، ومن هؤلاء الأستاذ ابن سيّد الإشبيلي ، الذى قال قصيدة استهلها بوصف الجيش الذى عبر مع الخليفة يوسف : —

السّعْدُ يقدمُ والعزائمُ تصدقُ   والنّصر بينهما يخبُّ ويعْنَقُ
وأمامُها ملكٌ أغرُّ يحفُّهُ   جَيشٌ تغصُّ به البلادُ وتَشْرقُ
ملأَ البسيطةَ منه بحرٌ زاخرٌ   في لُجَّتَيْه كلُّ بحْرٍ يغْرَقُ

وحديث الشاعر عن الجيش المسلم يوحي بكثرته ، ويصوّر تقدّمه بقيادة الخليفة يوسف.

وقد تحدّث ابن سيّد عن موقف ابن مردنيش المتعاون مع العدوّ ، والصق به مجموعة من الصفات التي تحطّ من شأنه ، وتوغر المقلوب عليه (٤).

ويراوح الشاعر بين مدح الخليفة يوسف والحديث عن سبب عبوره إلى الأندلس : —

---

* — ورد في البيان المغرب ((نظر)) .
١ — البيان المغرب : ج ٣ ص ٨١ .
٢ — الزّاب : — كورة عظيمة ، ونهر جرّار على سمت البلاد الجريديّة . عليه بلاد واسعة ، ومدن كثيرة . معجم البلدان : مادّة الزّاب.
٣ — انظر : — البيان المغرب :ج ٣ ص ٩٢ ، المنّ : ج ٢ ص ٤٣٦ — ٤٥٣ ، التاريخ الاندلسي : ص ٤٦٢ .
٤ — انظر : ص ٢١ من هذا البحث.

ملكٌ أفاضَ على الجزيرة رحمةً — أحيا الرجاءَ بها حياةً* المُفرِقُ
وافى ليرتقَ فتقَها لمّا رأى — أنْ لا سواه يَسُدّهُ أو يَرتُقُ

ويشي التعبير الشعري باستشراء الضعف في قوّة المسلمين في الأندلس ، وتنبّه الشاعر لذلك . فالخليفة عبر اليها ((ليرتق فتقها)) .

ويصوّر الشاعر حقيقة تاريخية عن الدولة الموحّدية حين يقول :—

ولقد تيقّن أنْ سَتُفتحُ فارسٌ — بجنوده قسراً وتفتحُ جلّقُ

ولم يكن هذا القول مبالغة من مبالغات الشعراء . فقد كانت الدولة الموحّدية تسعى إلى ((وحدة إسلامية)) تربط بين أجزاء العالم الإسلامي ، لذلك فقد تحدّث الشعراء الموحّدون عن فتح فارس ودمشق ، أو عن المشرق والمغرب(١) .

ويشير ابن سيّد إلى نزول الخليفة يوسف في مدينة إشبيلية :—

أوَ ما ترى الأيامَ تندى نضرةً — مُذْ حلّ حمصا والليالي تُشرِقُ

ويتحدث الشاعر عن الاستقبال الحافل الذي أقيم للخليفة يوسف عند ما دخل مدينة إشبيلية :—

بَرزُوا ليومِ بروزه في عارضٍ — يَعْيَى اللّسان لوصفه والمنطِقُ
من كل نِمرٍ كلّما حضر الوغى — بَسلتْ به رحوماتُها والمأزقُ
وقفوا على سوقٍ لرؤيةِ وجهه — وبودّهم أن الرؤوس الأسؤقُ

وقد قال الشيخ ابن المنخّل الشلّبي قصيدة في المناسبة السابقة مطلعها :—

شرفُ الخلافة أنْ ملكتَ زمامَها — وغدوتَ من عقب الإمام أمامَها

وقد أشار ابن المنخّل الشلّبي إلى قدوم الخليفة يوسف إلى الأندلس ، وقيادته الجيوش لجهاد الأعداء ، والدّفاع عن الإسلام :—

لمّا رأيت الدّين أظلمَ جوُّه — والحربُ قد سَدَلتْ عليه قَتامُها
أقبلتَها شُعثَ النّواصي شُزّبا — جُرداً تُباري في الفلاةِ سَمامُها

---

* — قرئت في النّص ((حياة)) .

١ — مجلّة التربية الوطنيّة ، الرّباط ، شهر مارس ، سنة ١٩٦٢م ، ص ١٦—٢٢ ، وعدد إبريل من السنة نفسها : ص ٢١—٣١ .

٢ — النّص : ج ٢ ص ٤٥٤—٤٥٧ .

٣ — النّص : ج ٢ ص ٤٥٨—٤٦١ .

ويظهر من القصيدة أنّ مدح الخليفة يوسف كان هدف الشاعر، لذلك فإنّ الدارس لم يعثر فيها على أيّة اشارة تاريخية مفيدة عن عبوره إلى الأندلس ما عدا البيتين السّابقين .

وقد أشار أبو العبّاس الجرّاوي إلى القطاعات البحريّة التي رافقت الخليفة يوسف في حركته الى الأندلس، وذلك ضمن قصيدة قالها في هذه الحركة :—

وَصَلْتَ وَصُلْتَ فالأمواهُ تُجْري ... وغلبُ الأُسدِ تُحدَرُ في شَراها (١)

وفي سنة ٥٦٨ هـ بدأ فرّاندة البيوج ((صاحب الشّبطاط)) بمهاجمة بلاد المسلمين ناقضا بذلك المعاهدة التي تربطه بالموحّدين (٢). وعلى الفور أمر الخليفة يوسف بغزوه في عقر داره ((الشّبطاط)) ، فخرج أبو حفص من إشبيلية في الثالث من صفر على رأس جيش إلى تلك القاعدة، فهاجمها بقوّاته، وفتك بها، إلاّ أنه لم يستطع احتلالها (٣).

وقد قال أبو علي الاشيري قصيدة في هذه المعركة استهلها بقوله :—

دارتْ رحا الهلكاتِ بالشّبطاطِ ... وسَطا بها ريبُ الزّمان السّاطي

وأُهينَ فيها الشّركُ أيّ إهانةٍ ... شفعت كريهَ هباطِها بِهياطِ

إنْ لم تَقُم فيها قيامةُ ملكهم ... فلقدْ رأوا جُملاً من الأشْراطِ

وأصارها وطءُ الجيادِ هشيمةً ... سوداءُ مُعتبَراً لعَيْنِ الواطي

وقد تآلفت الصياغة الشعرية في الأبيات السّابقة مع المعنى للايحاء بعنف المعركة، وضراوة القتال، وفداحة التدمير الذي لحق قاعدة الشّبطاط العسكريّة، لذلك جاءت الأبيات حافلة بمعاني القوّة والضخامة .

وندرك من القصيدة عدم تمكن المسلمين من احتلال هذه المدينة :—

---

١ — البيان المغرب : ج ٣ ص ٩٣—٩٤ .

٢ — البيان المغرب : ج ٣ ص ١٠٣ ، المنّ : ج ٢ ص ٥١٨ — ٥١٩ .

٣ — اختلفت المصادر في تاريخ هذه المعركة، فقد جعلها ابن صاحب الصلاة سنة ٥٦٨ هـ، وابن الأبّار سنة ٥٦٩ هـ، وابن عذارى سنة ٥٧٠ هـ . انظر :— المنّ : ج ٢ ص ٥٢١ — ٥٢٢ ، التكملة : ج ١ ص ٢٧٠ ، البيان المغرب : ج ٣ ص ١٠٤ .

لولا خروجُ الفصلِ عن مُعتَادِهِ لم يُمْهلوا مقدارَ سمِّ خِياطِ
ولَمَا ينُوا مِنْ أخذِهِمْ بذنوبِهِمْ ما عاينَ النُّعمانُ في *سَابَاطِ ** (١)

وإن لم ينقل أبو علي الأشيري صورة حيّة للقتال الذى دار في معركة السبطاط، فإنّ أبياته أوحت بالجوّ العامّ لتلك الواقعة. وقد تخلل ذلك بعض الإشارات التاريخية عن المعركة، مثل: تحديد مكانها، وهو: مدينة السّبطاط، وتصوير فداحة التدمير الذى لحق تلك المدينة، والإشارة إلى إخفاق المسلمين في احتلالها. وقد سجّل الشاعر لنا فوق هذا وذاك مشاعر الحقد والكراهية التي كانت تملأ نفسه على أولئك الأعداء.

وقد قال أبو العباس الجراوى قصيدة في معركة السّبطاط، والقصيدة منذ مطلعها أشادة بقائد المعركة أبي حفص: —

عن أمرِكُم يتصرّف الثّقَلانِ وبِنَصْرِكم يتعاقبُ المَلَوانِ ***
وبما يسوءُ عدوّكم ويسرّكم تتحرّكُ الأفلاكُ بالدّورانِ (٢)

وعلى الرّغم من المبالغة التّي تظهر في هذه الأبيات، فإنّ هذه الاشادة مرتبطة بالجوّ العام للمناسبة، إذ يلمح فيها تفوّق أبي حفص على أعدائه، ومشايعة القدر له... ومن هذا ندرك نتيجة المعركة، وانتصار المسلمين.

وفي أواخر محرّم سنة ٥٨٦هـ تحرّك الخليفة المنصور من رباط الفتح (٣)، وتمادى السير الى قصر مصموده (٤). وجدّد من هناك المخاطبات الى أهل الأندلس

---

* — ورد في زاد المسافر ((من)).
** — الاشارة الى قصّة النعمان بن المنذر مع أبرويز ملك الفرس. انظر: معجم البلدان: مادّة: ساباط كسرى.
١ — زاد المسافر: ص ١٠١.
*** — المَلَوان: بفتح الميم واللام الثانية: الليل والنهار. لسان العرب: مادّة ((ملا)).
٢ — البيان المغرب: ج ٣ ص ١٠٤.
٣ — رباط الفتح أو المهدية يقع على شاطىء المحيط الأطلسي، وقد اهتم به الموحّدون. المن: ج ٢ ص ٤٤٦.
٤ — قصر مصمودة: هو قصر المجاز، لا يبعد عن طنجة، وتقابله جزيرة طريف من الأندلس. ومنه غالبا كان يتمّ عبور الجيوش الى الأندلس. انظر: — مقدمة الفتح: ص ٢٢، ووصف المغرب: ص ١٦٦.

يبشرهم بقدومه مع جيوشه إليهم. وفي أثناء ذلك بدر من بواكير الفتوح ما عكّس أجفان الروم، فقتل منهم خلق، وأسر آخرون (١)، ((فهنّى بذلك المنصور وامتدحه الشعراء)) (٢) ومن بينهم أبو بكر بن مجبر، الذى قال قصيدة طويلة لم يبق منها إلاّ جذاذات أبيات، وهي منذ مطلعها : —

دلائل* فتحٍ كان يُذخرها الدّهرُ ... فلمّا أردتَ الغزوَ أبرزها النّصرُ

فها هيَ مُذْ جدّتْ ركابُك تنبري ... سراعاً، فمن أفراجها الشّفع والوَتر

فدُونكها منسوقةً فلشدّ ما ... تسابقَ فيها نحوك البرُّ والبحرُ

هو الفتحُ يا مولايَ ما فيه مِريةٌ ... ولا للّيالي في تمدّدِهِ عُذْرُ

ونستشفّ من هذه الأبيات صغر هذا الانتصار وضآلة نتائجه، لذلك فقد اعتبره الشاعر بشرى بين يدى فتوح أخرى يذخرها الدّهر للخليفة، كما أكّده وأبرزه في البيت الأخير بصورة تعبيريّة خاصّة.

ويستوعب الشاعر ما ذكرته الرواية التاريخيّة حين يشير إلى وقوع بعض القتلى في صفوف الأعداء، وأسر بعض جندهم. ويظهر أن هؤلاء الأسرى كانوا قلّة : —

أتتْكَ أسارى الرّومِ وهْيَ أقلُّها ... فمنْ فضلاتِ القتلِ يُنتجُ الأَسْرُ

وما كانَ قبل اليوم سهلٌ مرامُها ... ولكن علا الإسلامُ ما تضع الكفرُ

وحين يشيد الشاعر بالخليفة المنصور يبصّره بواقع الأندلس، ويحثّه على العناية بها : —

لقد أيْقنَتْ هذي الجزيرةُ أنّها ... سيجبرُها من لا يُهاغرله جَبْرُ

لئِنْ كان ماتَ الأمن في جنباتها ... فقربُ أميرِ المؤمنين له نَشْرُ (٣)

والقيمة التاريخية لهذين البيتين تبدو في دراسة واقع الأندلس الإسلاميّة في هذه الفترة، فإن فيهما ايحاءات بذلك الواقع : فقد ((مات الأمن في جنباتها)).

---

١ — انظر تفاصيل ذلك في : — البيان المغرب : ج ٣ ص ١٧٧، الروض المعطار : مادة شلب، ص ٣٤٢.

٢ — البيان المغرب : ج ٣ ص ١٧٧.

* — ورد في الروض المعطار ((قلائد)). هذا ولم يرد في المصدر السابق إلاّ هذا البيت. الروض المعطار : مادة شلب، ص ٣٤٢.

٣ — البيان المغرب : ج ٣ ص ١٧٧.

وهكذا سجّل ابن مجبر هذه الحادثة في شعره، ومع أنه أشار إلى صفرهــا، وضآلة نتائجها، وأسر بعض الأعداء، فإنّه لم يقدم في قصيدته معالم واقعة معيّنــة تعين على ربط القصيدة بالحدث الذى قيلت فيه.

وقد أثار عبور الجيوش الإسلامية بقيادة المنصور أسباب الجزع بين الصليبيــين؛ فبادر ملوكهم إلى طلب الصلح من الموحّدين، إلا أنهم ردوهم؛ فتكرر الطلب منهــم؛ فاستجاب الخليفة لهم لأنّه رأى مصلحة المسلمين في افتراق كلمة الكفر، وعقد الصلـح مع ملكي قشتالة وليون (١).

وقد نُسِبَ إلى شاعر لم يذكر اسمه قصيدة قالها في هذه المناسبة لم يبق منهــا إلا ثلاثة أبيات هــي : —

أهلٌ بأن يُسعَى إليه ويرتجَــى ... ويُزارُ من أقصى البلادِ على الرَّجَــا

من قد غدا بالمكرماتِ مقلّــدا ... وموشّحا، ومختّما، ومتوّجَــــا

عمرت مقاماتُ الملوكِ بذِكْــرِهِ ... وتعطّرت منهُ الرّياحُ تأرّجَــا (٢)

والأبيات في مجموعها إشادة بالخليفة المنصور، وهي إشادة مستوحاة من طبيعة الموقف. ويستشف منها أن هناك سعيا موجّها لهذا الخليفة، وهو — دون شــك — سعي ملوك الصليبيين ورجاؤهم.

وفي سنة ٥٨٦ هـ قام الخليفة المنصور بتمييز (٣) الجيوش الموحّدية، وفرّق فيها البركة، وأمر بعقد الرّايات، وخرج من قرطبة غازيا متّجها نحو الشمال الغربي إلى وادى التّاجُه (٤) *. وقد قال أبو بكر بن مجبر في هذه الحركة قصيدة لم يبق منهــا إلا ما يلــي : —

---

١ — رسائل موحّدية : ص ٢٢٢—٢٢٣، وفيات الأعيان : ج ٧ ص ٤، البيان المغرب : ج ٣ ص ١٧٦—١٨٠.

٢ — النفح : ج ١ ص ٤٤٤.

٣ — تمييز الجيش أي استعراضه عند كلّ مناسبة هامّة. وهي عادة عرفت منذ عهد ابن تومرت، وكان يقصد منها تنظيم الجيش، والحرص على انسجام الكتائب، وقد كان للتمييز ديوان خاص. انظر : أخبار المهدى : ص ٢٩، ص ٣٢—٣٥.

٤ — البيان المغرب : ج ٣ ص ١٧٩، الرّوض المعطار : مادّة شلب، ص ٣٤٢.

* — نهر التّاجُه : نهر عظيم يشق طليطلة، ويصب عند لشبونه في المحيــط. صفة جزيرة الأندلس : ص ٣٤٢.

بُشرايَ هذا لواءٌ قلَّ ما عُقدا إلاّ ومدّ له الرّوح الأمين يدا

وأقبلَ النصرُ لا يعدُو مَناحيَه فحيثُما قصَدتْ راياتُه (١) قصَدا

واستقبلتهُ تباشيرُ الفتوح وقد (٢) كادَتْ تكون على أكتافِه(٣) لُبَدا *

وقرّب الفلكُ الدّوارُ بُغيتَه فلو تناولَ بعدَ الفلك ما بَعُدا

أمام جيشٍ أرادَ اللّهُ نصرتَه فأرسلَ الملأ الأعلَى لهُ مَدَدا

إنيّ لأحكمُ بالنصرِ العزيزِ له وإنْ سكتُّ فإن الوحيَ قد شَهِدا (٤)

وندرك من الأبيات انعقاد ألوية المسلمين، وتهيّؤهم للغزو. إلاّ أننا لا نعثر فيها على أية اشارة تاريخية عن وجهة هذه القوات وتركيبها وقيادتها . . . أو غير ذلك، مما يعين على استيحاء حدث معيّن منها . فهي مجموعة من الانفعالات المستوحاة من طبيعة الموقف.

وفي غرّة ربيع الآخرة من سنة ٥٨٧ هـ خرج الخليفة المنصور من إشبيلية بجيوش كثيفة ((حسنة الأهبّة والهيئة والنظام))(٥)، واتجه نحو مدينة شِلب(٦) لاستعادتها .

استمرّت هذه الغزوة ثلاثة أشهر استطاع المسلمون فيها استرداد مدينة شلب، وقصر أبي دانس(٧)، وحصن قلمالة (٨) **

---

١ — ورد في البيان المغرب : ((أربابه)) .

٢ — ورد في البيان المغرب : ((فقد)) .

٣ — ورد في البيان المغرب : ((أكنافه)) .

* لم يرد في الروض المعطار إلاّ الأبيات الثلاثة الأولى .

٤ — البيان المغرب : ج ٣ ص ١٧٩ ، الروض المعطار : مادة شلب ، ص ٣٤٢ .

٥ — عصر المرابطين والموحدين : ج ٢ ص ١٨٦ .

٦ — شلب : تقع على مقربة من شاطئ المحيط الأطلسي جنوب باجة . تقويم البلدان : ص ١٦٧ .

٧ — نسبة إلى بانيه أبي دانس، يقع جنوب شرقي أشبونه، ويطلق عليه ((قصر الفتح)) . جمهرة أنساب العرب : ص ٥٠١ ، الحلّة السيراء : ج ٢ ص ٢٧٢ .

٨ — حصن قلمالة : حصن منيع يقع شمال مدينة شلب . البيان المغرب : ج ٣ ص ١٨٥ .

** — انظر أخبار هذه الغزوة في : البيان المغرب : ج ٣ ص ١٨٥—١٨٦ ، المعجب : ص ٣٥٦ ، الروض المعطار : مادة شلب ، ص ٣٤٢ — ٣٤٣ .

ويظهر أن الشاعر أبا بكر بن مجبر كان مرافقا الجيش في هذه الغزوة الطويلة، ويبدو هذا في قصيدة قالها يحنّ الى وطنه بعد الغزو سنة ٥٨٧هـ. ولم يبق من القصيدة إلا مطلعها :—

دعا الشوقُ قلبي والرّكائبَ والرَّكْبا   فلبّوا جميعاً وهو أوّلُ من لبّى

وَظَلْنا نشاوَى لِلّذي بقلوبنا   تخالُ الهوى كأساً ويحسبنا شربا

إذا القضبُ هزّتها الرّياحُ تذكّروا   قدودَ الحسان البيض فاعتنقوا القضْبا (١)

ومن المؤسف أنّ الدارس لم يصل إلى القصيدة كاملة. والأبيات الباقية ما هي إلا أبيات وجدانية لا ندرك منها ملامح حادثة معيّنة.

وتذكر الرواية التاريخية أن عددا من المعارك المتفرّقة حصلت في هذه الغزوة (٢). وقد أنشد القائد أبو بكر بن وزير الشلبي قصيدة يخاطب بها يعقوب المنصور فيما جرى في وقعة مع الفرنج أثناء هذه الغزوة كان الشلبيّ المذكور مقدما فيها، ولم يبق منها الا قوله :—

ولمّا تلاقينا جَرى الطّعنُ بيننا   فمنّا ومنهُمْ طائحونَ عَديدُ (٣)

وجالَ غِرارُ الهندِ فينا وفيهمُ   فمنّا ومنهمْ قائمٌ وحَصيدُ (٤)

فلا صدرَ الا فيه صدرُ مثقّفٍ   وحولَ الوريدِ للحُسامِ وُرودُ (٥)

صَبرْنا ولا كهفٌ سوى البيضِ والقَنا   كلانا على حَرِّ الجلادِ جَليدُ (٦)

ولكنْ شدَدْنا شدّةً فتبلّدوا   ومن يتبلّدْ لا يزال يَحيدُ

فولّوا وللبيضِ الرّقاقِ بها مِهِمْ   صليلٌ وللسُّمرِ الطّوالِ ورودُ (٧) *

---

١ — الروض المعطار : مادة شلب، ص ٣٤٣.
٢ — البيان المغرب : ج ٣ ص ١٨٥—١٨٦.
٣ — ورد في المغرب ((فمنّا ومنهم قائم وحصيد)).
٤ — لم يرد هذا البيت في المغرب.
٥ — ورد في الحلّة السيراء ((كلانا على حرّ الطّعان جليد)).
٦ — لم يرد هذا البيت في الحلّة السّيراء.
٧ — لم يرد البيت في المغرب. وورد في النفح هكذا :—
وولّوا وللسمر الطوال بهامهم   ركوعٌ وللبيض الرّقاق سجودُ
* — انظر المقطوعة في :— النفح : ج ٤ ص ٣٨١، الحلة السيراء : ج ٢ ص ٢٧٣، المغرب : ج ١ ص ٣٨٢.

ولم تحدد الرواية التاريخية الحادثة التي قيلت فيها هذه المقطوعة، وبعد استقراء الأبيات نجد أنها تشير الى قتال عنيف وقع فيه كثير من الجند المتحاربين صرعى، وقد انكشف هذا القتال عن انتصار المسلمين وانهزام أعدائهم. ومع ذلك فالأبيات لا تحدد هوية واقعة معينة من تلك التي حصلت في هذه الغزوة. فهي أبيات حماسية تمجد بطولة المسلمين، وتشيد بشجاعتهم في الحروب، وصبرهم على منازلة الأعداء وتصور انتصارهم على أولئك الأعداء الذين أبلوا في الدفاع عن أنفسهم أحسن البلاء.

ولما انتهت مدة الهدنة بين المنصور وملك قشتالة، ولم يبقى منها إلا قليل بدأ الأعداء بمهاجمة الأندلس والعيث فيها. فأعد المسلمون حملة توجهت إليها بقيادة الخليفة المنصور نفسه. علم الصليبيون بذلك، وجمعوا جموعا كثيفة من أقاصي بلادهم وأدانيها. نزلت الجيوش الصليبية في مكان ((الأرك)) (١). وهناك دارت معركة عنيفة انتصر فيها المسلمون على أعدائهم نصرا موءزرا (٢).

ورد في ((نفح الطيب)) :— ((لما قفل أمير الموءمنين يعقوب المنصور من غزوة الأركة المشهورة ... ورد عليه الشعراء من كل قطر يهنئونه. فلم يكن لكثرتهم أن ينشد كل انسان قصيدة، بل كان يختار منها بالانشاد بالبيتين أو الثلاثة المختارة ... قال: وانتهت رقاع القصائد وغيرها الى أن حالت بينه وبين من كان أمامه لكثرتها))(٣) وهذا يدل على مدى مشاركة الشعراء الأمة في هذا النصر الاسلامي الكبير. ومع ذلك، لم يبقى من هذا الشعراء الا قصائد معدودة. منها قصيدة لعلي بن حزمون، استهل بها بقوله :—

حيتك معطرة النفس	نفحات النصر بأندلس
فذر الكفار ومأتمهم	إن الإسلام لفي عرس

---

١ — الأرك : حصن منيع من قلعة رباح. وتسميه بعض المصادر الاسلامية ((الأركة)) او ((الأراكة)) وتسميه المصادر الاوروبية Alorcos. انظر :— الروض المعطار : مادة الأرك، ص٢٦، النفح : ج ٤ ص١٧٢، بغية الملتمس: ص٤٥، الذيل والتكملة : ج ٦ ص٨٦، Moorish Cult., P. 139

٢ — كان تاريخ المعركة يوم الأربعاء التاسع من شعبان سنة ٥٩١هـ. انظر تفاصيل ذلك في : رقم الحلل : ص٥، البيان المغرب: ج ٣ ص١٩٤—١٩٥، رفع الحجب المستورة : ج ٢ ص٥، المعجب : ص٣٥٨—٣٥٩، التكملة : ج ١ ص٥٥٠—٥٥١، الروض المعطار : مادة الأرك ص٢٦، مخطوط الحلل السندسية : ورقة ٤٥.

٣ — النفح : ج ٤ ص١٧٢.

ويحمل هذا المطلع البارع في مبناه ومعناه بشرى انتصار المسلمين في معركة الأرك، ومشاعر الفرحة والابتهاج بهذا الظفر العظيم الذى اعتبره الشاعر ((عرسا)) للاسلام، و ((مأتما)) للكفـر.

وتشير الرواية التاريخية إلى ضخامة الحشور الصليبيّة التي خرجت لملاقات المسلمين في معركة الارك، ومشاعر الثقة التي غمرت الأعداء بسبب كثرة جيوشهم، إلى حد أنّهم جلبوا معهم بعض تجّار اليهود لاشتراء أسرى المسلمين (١)، وقد تحدّث الشاعر عن ذلك قائلا: —

جاءوكَ تضيقُ الأرضُ بهـم　　عَدَدًا لم يُحصَرْ ولم يُقَس
خرجُوا بطرًا ورئاءَ النّا　　سِ ليختلِسوا مَعْ مختلِس

أمّا حديث الشّاعر عن قتلى الأعداء فإنّنا ندرك منه كثرتهم(٢): —

وتساوى القاعُ بهامهم　　المرفتّر مع الحدب الضَرس
سُقِيَتْ بنجيعهم أكمٌ　　وطئوا منهنّ على دهس

إنّ تصوّر الموقع الجغرافي لهذه المعركة يكشف ما في هذين البيتين من دقّة في الوصف. فقد ذكر المؤرخون أنّ حصن الارك يقع فوق ربوة عالية، في بسيط واسع تتخلّله بعض الهضاب الضرسة (٣). ويظهر من قول الشّاعر أنّ قتلى الأعداء كانوا كثيرين إلى حدّ ساووا بين تلك الهضاب. ولم يكن الشّاعر مبالغا في ذلك، فقد قدّرت بعض الروايات قتلى الأعداء في هذه المعركة بمائة وستة وأربعين ألفا (٤).

ويتفق الشاعر مع الرواية التي تشير الى ملاحقة الخيول الاسلاميّة فلول المنهزمين وعيثها في ديارهم (٥)، حيث قال: —

أذوي الصلبان وراءكُم　　خيلُ الملكِ الخبرِ النّدُس
جاسَتْ جَنبات الكفرِ فلم　　* تتركْ لهمُ ما لم تَجُس

---

١ — بغية الملتمس: ص ١٧٢.
٢ — هذا وصف محمد عبد الله عنان، وقد زار موقع المعركة: عصر المرابطين والموحّدين: ج ٢ ص ٣٠٣.
٣ — الكامل: ج ١٢ ص ١١٥.
٤ — البيان المغرب: ج ٣ ص ١٩٥، القرطاس: ٢٢٨.

ويضفي الشاعر ظلالاً واقعية على القصيدة، حين يتحدث عن لجوء الأعداء إلى الجبال فراراً من المسلمين، ووقوع بعض نسائهم سبايا في أيدى المجاهدين (١).

ويذكر المؤرخون أن القائد الصليبي قد ولّى هارباً من المعركة، ناجياً بنفسه (٢). وقد صوّر الشاعر ذعر هذا القائد وفراره :—

إنْ كانَ نجَا أذ فنشُهم فإلى عيشٍ نَكِدٍ تَعِسِ

فمضى لمْ يلوِ على أحدٍ * ورمى بالدِّرع وبالتُّرُسِ (٣)

هذه هي قصيدة ابن حزمون، وهي دافقة بالنشوة والفرح ومشاعر الابتهاج بهذا النصر الكبير. وقد أتى الشاعر فيها بما قاله المؤرخون عن هذه المعركة حين تحدث عن ضخامة الظفر الذى أحرزه المسلمون فيها، وكثافة جيش العدو، والهيئة التي خرج عليها، وكثرة قتلاه، وهرب قائده. بل أنه زاد عليهم، فما من أحد أخبرنا بأن الصليبيين احتموا بالجبال أو وقوع بعض السبايا الصليبيات في أيدى المسلمين.

وقد قال أبو العبّاس الجراوى قصيدة في هذه المعركة استهلها بتمجيد النصر، والاشادة به :—

هو الفتحُ أعيا وصفُه النّظمَ والنثرا وعمّت جميعَ المسلمين به البشرى

وأنجَدَ في الدنيا وغار حديثُه فراقتْ به حُسْناً، وطابت به نَشْرَا

تميّزَ بالأحجالِ والغرر التي أقلّ سناها يبهرُ الشمسَ والبدْرَا

وندرك نتيجة المعركة من خلال هذا التفاؤل الكبير، ومشاعر الاستبشار الدّافقة التي غمرت الأبيات.

ويتفق الشاعر مع ابن حزمون حين يشير الى هرب القائد الصليبي من المعركة عندما رأى مصارع أصحابه، إلاّ أن أبا العبّاس الجراوى ينفرد بالاشارة الى إصابة هذا القائد بطعنة قوية. وهذا ما لم تشر إليه المصادر كذلك :—

رأى الموتَ للأبطالِ حوليه ينتقي فطارَ إلى أقصى مصارعه ذُعْرَا

وقد أوردَتْهُ الموتَ طعنةُ ثائرٍ وإن لم يغادِرْ من شقاوته العُمُرا

وتجمع المصادر على كثرة قتلى الأعداء في هذه المعركة (٤). وقد أشار الشاعر إلى ذلك، فهم يعدّون بالألوف :—

---

١ — انظر ص ١٠٨ من هذه الدراسة.
٢ — البيان المغرب: ج ٣ ص ١٩٥.
٣ — المعجب: ص ٣٧٠ — ٣٧٣.
٤ — انظر: عصر المرابطين والموحدين: ج ٢ ص ٢١٠.

أُلوفٌ غدت مأهولةً بهم الفـــلا   وأمستْ خلاءً منهمُ دورهمْ قفـــرا
ودارتْ رحا الهيجا عليهمْ فأصبحوا   هشيماً طحينا في مهبّ الصَّبا يُذْرَا

ونعلم من القصيدة أنّ المعركة وقعت يوم الأربعاء، وفعلا كان كذلك (١): —

فسلاه يومُ الأربعاء عن المنـى   فما يُرتجى ممّا تملّكهُ شِبـــرا (٢)

والقصيدة بعد هذا تكاد تتفق مع ما أورده ابن حزمون في قصيدته السابقة. فقد أشار الجراوي إلى ضخامة الانتصار، وكثرة قتلى الأعداء، وفرار القائد الصليبي، ونجاته من الموت، كما ذكر يوم المعركة. . . وهذه المعلومات أتي بها المؤرّخـــون. بل أنّه زاد عليهم عندما أشار إلى إصابته في المعركة بطعنة قوية.

وقد قال القاضي الأديب أبو حفص الأغماتي (٣) قصيدة في انتصار الأرك لم يبق منها الاّ تسعة أبيات تبدأ بقوله: —

أطاعتك الذّوابلُ والشّفـــارُ   ولبّى أمرَك الفلكُ المـُــدارُ

ويستشفّ من هذا البيت تفوّق الخليفة المنصور، وانتصاره على أعدائه بالقوّة.

وقد كان هذا النّصر عظيما، ومن آثاره كبت ملك قشتالة وإيقاف عطيّاته العدوانيّة عن الأندلس إلى حين. لذلك فإنّ الشّاعر يرى أنّه من الجدير تهنئة الأندلس بهذا العهد الجديد الذى فتحه لها هذا النّصر: —

ليهنئ أرضَ أندلس بـُـــدورٌ   من السّراءِ ليس لها ســـرارُ

ويتحدّث صاحب البيان المغرب عن محاولات الصليبيين الدّائبة للفرار من معركة الأرك، فيقول: ((وخلع الكفار عن مراكزهم، ونسخ الله ما أراهم من اغترارهم، فولـــوا الأدبار)) (٤) إلاّ أن سيوف المسلمين ركبتهم، وأعملت مضاربها فيهم، وقد أشار الشاعر الى ذلك حين قال: —

وكَمْ راموا الفرارُ من الرزايـــا   ولكنْ أين من أجلٍ فـــرارُ
تُدارُ عليهمُ حمر المنايــــا   بكأسٍ فيه عُقْرٌ لا عُقـــارُ* (٥)

---

١ — البيان المغرب: ج ٣ ص ١٩٥.
٢ — البيان المغرب: ج ٣ ص ١٩٧ — ١٩٨، شاعر الخلافة الموحّدية: — الملحق: ص ٧ — ٨.
٣ — هو عمر بن أبي محمد عبد الله بن عمر السلمي، من أهل أغمات، كان فقيها، أديبا، شاعرا، ورعا، فاضلا. توفي سنة ٦٠٤ هـ. انظر: صلة الصلة: ص ٧٢، الفصون اليانعة: ص ٩١ — ٩٢.
٤ — البيان المغرب: ج ٣ ص ١٩٥، ذكريات المشاهير، عدد ٣، ص ٧ ومابعدها.
* — العُقر: بفتح العين: النحر، العقار: بضم العين: الخمر، لسان العرب: مادّة ((عقر)).
٥ — الفصون اليانعة: ص ٩٦ — ٩٧.

ومع أنّ الشاعر استوعب بعض ما قاله المؤرخون عن ضخامة هذا النصر، ومحاولات الأعداء للهرب من المعركة. فإنّ الأبيات لم تقدّم ملامح حدث معيّن، وإنّما تصوّر مشاعر الإكبار والإعجاب بهذا النّصر.

وقد قال أبو بكر يحيى بن مجبر قصيدة في هذه المعركة لم يبق منها إلا عشرة أبيات تبدأ بقوله: —

قضَى حقوقَ اللّه في أَعدائِه ثم انثَنى والنّصرُ تحتَ لوائِهِ

وهذا المطلع يوحي بتفوق المسلمين، وانتصارهم على أعدائهم.

وتشير الرواية التاريخية إلى ضخامة جيش المسلمين الّذي اشترك في معركة الأرك (١). وقد استوحى الشّاعر أروع الألفاظ التي تشعر المسلمين بالبأس والقوّة حين تحدّث عن كثافة ذلك الجيش: —

أغزَى بهمْ جيشاً تضيقُ الأرضُ عنْ أمواجِهِ والوهمُ عن إحصائِهِ

كالعارضِ الثّجاجُ ملءُ هوائِهِ لكنْ دمُ الأبطالِ مِنْ أنوائِهِ

وتمتزج أسمى مظاهر الشجاعة بالعقيدة الإسلاميّة حين صوّر الشاعر دأب الخليفة المنصور في قتال الأعداء، وإصراره على استئصالهم، والقضاء عليهم: —

لمّا رأى للشّرك رسماً ماثِلاً أوهى قواهُ وجدّ في إقوائِهِ
أنحَى عليه بالصّوارم والقنَا حتّى إذا لم يبقَ غيرُ ذمائِهِ
أبقاهُ والذّعرُ المخيفُ يبيدُهُ فكأنّهُ سبحٌ على أشلائِهِ(٢)

وإذا كان الشاعر لم يوفّق في الأبيات السابقة في تقديم ملامح خاصّة لمعركة الأرك فإنّه وفق في تصوير مشاعر الإعجاب بقائد تلك المعركة. فقد كان التركيز على شخصيّة هذا القائد والإشادة بها محور تلك الأبيات. وهي إشادة مستوحاة من روح هذا الانتصار العسكري.

ولأبي الوليد الشقندي (٣) قصيدة في هذه المعركة لم يبق منها إلاّ بيتان هما: —

---

١ — البيان المغرب: ج ٣ ص ١٩٢، القرطاس: ٢٢٢.
٢ — رفع الحجب المستورة: ج ٢ ص ١٥٥.
٣ — هو أبو الوليد اسماعيل بن محمد الشُقُنْدِي، نسبة إلى شُقُنْدَه. صاحب الرسالة الشهيرة في فضل الأندلس. توفي سنة ٦٢٩ هـ. النفح: ج ٣ ص ٢٢٢—٢٢٣، المغرب: ج ١ ص ٢١٨ — ٢١٩.

إذا نهضتَ فانّ السعدَ* منتهضٌ ترمي السعودَ سهاماً والمدا غرضُ
لكَ البسيطةُ تطويها وتنشرُها فليس في كلّ ما قد رمتَ** معترضُ (١)

ولا يرى في هذين البيتين إلاّ الإشادة بقائد المعركة. وقد جنح الشاعر فيها إلى المبالغة، ويفسر ذلك طبيعة الموقف الحماسي .

وفي منتصف رجب الفرد سنة ٥٩٢ هـ تحرّك المنصور من إشبيلية لغزو الأذفونش ملك قشتالة في عقر داره طليطلة. وعندما وصل المسلمون المدينة أقاموا عليها أسبوعا يشنّون الغارات على أرجائها . . . ثمّ أمر المنصور بعد أن أشعر العدوّ بقوّة المسلمين، وعظمة حشودهم بالانسحاب دون أن يستغلّ ضعف الصليبيين بعد معركة الأرك في احتلال قاعدة الكفر طليطلة ***(٢).

ولشاعر الخلافة الموحّدية أبي العبّاس الجرّاوي قصيدة في هذه الغزوة جاء فيها :—

قدْ أُصليت نارُها العداةُ وأُنجزتْ بهم العِداتُ
وعمّهمُ بالدّمارِ يومٌ تقصُرُ عن وصفِهِ الرّواةُ
مشهدٌ لا تزالُ تتلى آياتُه وهي بيّناتُ
فتحٌ مفاتحُه المواضي والعزماتُ المؤيّداتُ
*
ذلّوا لأمر اللّه قسْرا وهُمْ أولو نجدةٍ أُباةُ

والأبيات توحي بشعور التفوّق، وحافلة بايحاءات القوّة، والإيمان بها سبيلا لقهر العدوان، وفتح البلدان. ويتخلّل ذلك حديث عن الدّمار الذى لحق بلاد الأعداء، واستباحة المسلمين أرضهم.

وضخامة الجيوش الإسلاميّة التي اشتركت في هذه الغزوة نلمسها في قول الشّاعر :—

---

* — ورد في النّفح ((السيف)) .

** — ورد في النّفح ((تنويه)) .

١ — النّفح : ج ٣ ص ٢٢٣، المغرب : ج ١ ص ٢١٦ .

*** — ورد في النفح أن المنصور فكّ الحصار عن طليطلة رأفة بوالدة الأذفنش ونسائه وبناته اللواتي خرجن إليه مستصرخات . انظر النفح : ج ١ ص ٢٢٤ .

٢ — انظر اخبار هذه الغزوة في : البيان المغرب : ج ٣ ص ١٦٨ — ١٦٩، رسائل موحّدية : ص ٣٣٦ — ٣٣٧، النفح : ج ١ ص ٢٢٤ .

وغرّقتْ جمعَهم بحـــارٌ أمواجُها الخيلُ والكمـــاةُ

ويصوّر الشّاعر معاناة الصليبيين من المسلمين في هذه الغزوة، ومحاولاتهم الدّائبة للفرار منهم : —

رأوا لحزبِ الإلهِ صبــراً والموتُ حفّت به الجهـــاتُ

فحاولوا منهمُ انفلاتـــاً وليس للخائنِ انفـــلاتُ (١)

ومع أنّ الشاعر أشار في الأبيات السّابقة إلى ضخامة جيش المسلمين الذي اشترك في هذه الغزوة، العنف الذي أخذ به المسلمون الأعداء، ومحاولاتهم للفرار. إلاّ أنّنا لا نعثر فيها على تفصيلات تحدّد هويّة واقعة معيّنة، أو تعين على إقامة علاقة بينها وبين الحدث الذي قيلت فيه.

وفي يوم الاثنين الخامس ((أو الرابع عشر)) من صفر سنة ٦٠٩ هـ (٢)، التقى المسلمون بقيادة الخليفة النّاصر بالفونشو ملك قشتاله عند ((حصن العقاب)) (٣) وقد كان مع هذا الفنش حشود هائلة من الصليبيين الوافدين من أنحاء دول أوروبا، التي تولّى البابا أنوسنت الثالث تشجيعها على المشاركة في حرب المسلمين في الأندلس(٤).

انتهى هذا اللقاء بهزيمة المسلمين هزيمة نكراء، وتشتّت قواهم. وقد أشارت الرواية الإسلاميّة إلى الخسارة البشرية الهائلة التي مني المسلمون بها، فوصفت الموقعة بالهزيمة العظمى ((التّي فني فيها أهل المغرب والأندلس)) (٥)، أو التّي خلا بسببها أكثر المغرب(٦)، أو حسبما تقول رواية أوضح وأشمل : ((أنّ المغرب

---

١ — البيان المغرب : ج ٣ ص ٢٠٠.

٢ — انظر أخبار هذه المعركة في : — **المعجب** : ص ٣٩٩ — ٤٠٢، الحلّة السّيراء : ج ٢ ص ٢٧٣، التكملة : ج ١ ص ١٠٢ و ص ١٦٤ و ص ٢٠٢، المغرب : ج ٢ ص ٧٣، الإحاطة : ج ١ ص ٣٨٣، البيان المغرب : ج ٣ ص ٢٤٠ — ٢٤١، النفّح : ج ٤ ص ٣٨٣، الرّوض المعطار : مادّة العقاب، ص ٤١٦.

٣ — العقاب : — بكسر العين، حصن بين جيان وقلعة رباح. الرّوض المعطار : مادة العقاب، ص ٤١٦.

٤ — المعجب : ص ٣٩٩، Moors in Spain, P. 168; Moorish Cult., P. 140

٥ — الحلل الموشّية : ص ١٣٤.

٦ — النفّح : ج ١ ص ٤٤٦.

قد باد أهله ورجاله، وفني خيله وحماته وأبطاله، وقتلت قبائله وأقياله، قد استشهد الجميع في غزوة العقاب)) (١).

أثارت هذه الهزيمة أسباب الجزع والفزع في الأندلس يومئذ (٢). وقد تردد هذا واضحا في قول ابن الدباغ الاشبيلي (٣): —

وقائلةٍ أراكَ تطيلُ فكراً ‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌ كأنّك قد وقفتَ لدى الحسابِ

فقلتُ لها: أفكّرُ في عِقابٍ ‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌ غدا سببا لمعركة العِقابِ

فما في أرضِ أندلسٍ مقامٌ ‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌‌ وقدْ دخل البلا منْ كلّ بابِ (٤)

والأبيات ليست وصفا لواقعة معيّنة، وإنّما هي وقفة من هذا الشّاعر عند نتائج معركة العقاب، التي استحوذت على تفكيره، وأسرت عقله، ويستشفّ منها تنبّه الشاعر لمعنى تلك النكبة وأبعادها. فقد وجد أنّ هذه المعركة فتحت باب البلاء على الأندلس، وأدخلت الوهن إليها، لذلك حذر المسلمين من الإقامة فيها، مبيّنا لهم أنّ ذلك عقاب على تقصيرهم واهمالهم.

ويلاحظ أنّ ابن الدباغ قد آثر موقفا سلبيا من هذه المحنة، ولكن هذا اللون السلبي من التعبير عن الواقع كان حينئذ مبالغة في التنبيه والتذكير.

---

١ — الذخيرة السنية: ص ٢٦.

٢ — أشارت الرواية الاسلاميّة الى نتائج هذه المعركة وأبعادها. فقد وصفها الحميري بأنّها كانت ((أول وهن دخل على الموحدين))، ووصفها ابن عذارى بأنها ((كانت السبب في هلاك الأندلس))، وذكر ابن الأبار انها ((التي أفضت إلى خراب الأندلس ...)).
وقد قال ابن أبي زرع: انّ الأندلس لم تستقل بعدها العثرة. انظر: —
صفة جزيرة الأندلس: ص ١٣٨، البيان المغرب: ج ٣ ص ٢٤٠، التكملة: ج ١ ص ١٠١ — ١٠٢، القرطاس: ص ٢٨٢.

٣ — لم نعثر على ترجمته.

٤ — النفح: ج ٤ ص ٤٦٤، مخطوط الحلل السندسيّة: ورقة ٨.

وفي سنة ٦٢٢ هـ(1) هزم المسلمون هزيمة نكراء على مقربة من ((طَلْيَاطَة)) (2) ، ولم يمض على ذلك شهران حتى حلّت بهم هزيمة مماثلة في شرقي الأندلس على مقربة من ((عَفْص)) (3). وفي الوقت نفسه دخل الصليبيّون مدينتي ((لَوْشَة)) (4) و((قِيجَاطَة)) (5) *.

وقد سجّل أحد المرسيين هذه الحوادث المتتالية في مقطوعة قالها ، جاء فيها : ـ

بوقعة عَفْص وطلياطــــــةٍ	تكامل إقبال أيّامنـــــــا
فبالغرب تلك وبالشـــــرق ذي	أناخا علم شمّ أعلامنـــــا
وفي وسط الأرض قيجاطــــةٌ	ولوشة خفّا بأحلامنـــــا
وليس الصليب يرى مانعــــا	لغير تواتر إعدامنـــــا
وسيدُنا ناظرٌ في الجـــوازِ	يرومُ النجاةَ بإسلامنـــــا (6)

وهذه الأبيات تشير إلى مجموعة من الوقعات التي أخفق فيها المسلمون . ويظهر فيها استشعار الخطر المحدق ، وإلحاح ذلك على وعي الشّاعر الذي تردّى في هـوّة اليأس، وأدركه القنوط. وتخلّل ذلك حسرة مريرة على موقف الخليفة الموحدي ـ وهو العادل (7) ـ الذي آثر النجاة بنفسه على نصرة المسلمين .

---

١ ـ ينفرد صاحب الروض المعطار بما يقدّمه عن معركتي ((عفص)) و ((طلياطة)) ولكنه لم يحدّد تاريخهما بدّقة ، فأحيانا ـ يجعلهما سنة ٦٢١ هـ ، وأحيانا سنة ٦٢٢ هـ . انظر : الروض المعطار : مادّة طلياطة ، ص ٣٦٥ ، ومادة عفص، ص ٤١٥ .

٢ ـ طَلْيَاطَة : ـ بينها وبين اشبيلية ما يقارب عشرين ميلا . الروض المعطار : مادة طلياطة، ص ٣٦٥ .

٣ ـ عفص : بالقرب من مرسية. الروض المعطار : مادّة عفص ، ص ٤١٥ .

٤ ـ لَوْشَة : ـ من أقاليم البيرة . الروض المعطار : مادّة لوشة ، ص ٥١٣ .

٥ ـ قيجاطة : أو قيشاطة ، مدينة بالأندلس من عمل جيّان . الرّوض المعطار : مادة قيجاطة ، ص ٤٨٨ .

* ـ البيان المغرب : ج ٣ ص ٢٤٦ ، القرطاس : ص ٢٤٦ .

٦ ـ الرّوض المعطار : مادّة عفص، ص ٤١٦ .

٧ ـ هو عبد الله بن يعقوب المنصور بويع سنة ٦٢١ هـ، وتوفي سنة ٦٢٤ هـ . انظر : القرطاس : ص ٢٤٥ ـ ٢٤٧ .

وقد اعتمدت المقطوعة المزاوجة بين إظهار الحزن وتصوير الواقع المؤلم بصورة بسيطة خالية من التكلّف، لذلك جاءت كأنها ((رواية تاريخية)) لا قطعة شعرية .

وفي أوائل سنة ٦٢٧ هـ احتل الصليبيّون مدينة بطليوس بعد معركة عنيفة (١) وقد بعث أبو المطرّف بن عميرة رسالة إلى أهل بطلّيوس معزّيا لم يبق منها إلا قوله : -

ولَمْ أرَ مثلَ الحقِّ، أمّا طريقُــه ، فأمنٌ، وأمّا جاره فعزيــــزُ

إذا ما امرؤٌ آوى إليه فحصنُــه حصينٌ، ومأواه المباحُ حريـــزُ

فكنْ معه تظفرْ بما شئتَ من منى مصارفُها بالصالحاتِ يفـــوزُ

ومن خيرِ ما حازَ الفتى الصّبر أنّه أداةٌ لموفورِ الثوابِ تحـــوزُ

رأينا التّقى كنزاً يدوم الغنى بـــهِ إذا فنيت للموسرين كنـــوزُ

وكأيِّنْ رأينا من حوادث أقبلـــت فللْخُلقِ تصريحٌ بها ورُمـــوزُ

تقابلُ بالتسليم للّه وحـــــدَه فتمضي ولم يشعرْ بها وتجـوزُ (٢)

ويظهر من الأبيات أنّ ابن عميرة بحكم ثقافته الفقهيّة آثر النّصح والارشاد على تصوير محنة المسلمين في بطليوس. فقد حثّ في أبياته على اتّباع الحقّ والالتزام بـــه لأنّه الحصن الذى يقي الانسان، ويحقق له الأمن . ودعا كذلك إلى الصبر علــــى المصائب، والأخذ بأسباب التقوى ، والتسليم لأمر اللّه وقضائه . وأخال أنّ ابن عميــرة في موقفه التأمّلي هذا يستوحي حال المسلمين في الأندلس. فهم لم يفضوا إلى مثل هذه الحالة إلا لأنّهم حادوا عن الحقّ ، وأنهجوا السّبل، فتفرّقت بهم عن طريق اللّــه القويم .

وفي يوم الخميس الموفي عشرين من ذى الحجّة عام ٦٣٤ هـ وقعت بين المسلمين والصليبيين معركة أنيشة ((أنيجة)) (٣) على مقربة من بلنسية . وقد اشترك في هـــذه المعركة جملة من علماء بلنسية من بينهم كبير علماء الأندلس ومحدّثيها أبو الربّيع سليمان ابن سالم الكلاعــي .

قاتل الفريقان ببسالة، وانتهت المعركة بأن أصيب المسلمون بهزيمة فادحـــة قتل فيها جملة كبيرة منهم . وكان من بين القتلى جملة كبيرة من علماء بلنسيـــــة

---

١ - انظر : البيان المغرب: ج ٣ ص ٢٧٠ .

٢ - تحفة القادم، نشر في مجلة المشرق، بيروت، مجلّد ٤١، سنة ١٩٤٩، ص ٥٧٧ .

٣ - أنيشة أو أنيجة : - موضع على مقربة من بلنسية . الروض المعطار : مادّة أنيشة ، ص ٤١ .

ووجوهها وصلحائها ، وفي مقدمتهم أبو الربيع(1).

وقد قال ابن الأبار قصيدة في هذه المعركة يرثي أبا الربيع ومن استشهد معه بدأها بقوله :ـ

ألمّا بأشلاء العُلى والمكارم ... تُقُدّ بأطراف القنا والصوارم

وعوجا عليها مأربا وحفاوة ... مصارع غصت بالطُلى والجماجم

نحيّ وجوهاً في الجنان وجيهةً ... بما لقيتْ حمراً وجوه الملاحم

وندرك من هذه الأبيات كثرة قتلى المسلمين في هذه المعركة ، واستشعار ابن الأبار فداحة المصيبة. فقد غصت الأرض بالأجساد الممزّقة ، والجماجم المفلّقة ، والوجوه المخضبّة بالدماء .

ويشيد الشاعر بمناقب هؤلاء الشهداء مركزًا إشادته على شجاعتهم في هذه المعركة وحسن بلائهم فيها :ـ

تساقوا كؤوسَ الموت في حومة الوغى ... فمالتْ بهمْ ميلَ الغصون النّواعم

مضوا في سبيلِ الله قدما كأنّما ... يطيرونَ من إقدامهم بقوادم

يَرَوْنَ جوارَ الله أكبرَ مَغْنم ... كذاكَ جوارُ الله أسنى المغانم

وفي القصيدة ذكر ليوم المعركة،وهو يوم الخميس، وإشارة إلى المكان الذى وقعت فيه،وهو ((أنيشة)) :ـ

أضاعهم يوم الخميس حفاظهم ... وكرّهم في المأزق المُتلاحم

أُصيبوا وكانوا في العبادة أسوةً ... شبابا وشيبا بالغواشي الغواشم

ويتخلص الشاعر تخلّصا حسنا من رثاء الشهداء عامّة إلى رثاء أبي الربيع الكلاعي فيصوّر عظم مصيبة الأمّة به ، وفداحة خسارتها بهذا الشهيد الذى يشقّ على الإسلام موته :ـ

وبينَ الثنايا والمخارم رمّة ... سرى في الثنايا طيبُها والمخارم

يشقّ على الإسلام إسلامُ مثلها ... * إلى خامعات بالفلا وقشاعم

فوا أسفي للدّين أعضلُ داؤه ... * وأيأس من حاسٍ لمسراه حاسم

---

1 ـ انظر : الذيل والتكملة : ج ٤ ص ٨٩ ـ ٩٠ ، الروض المعطار : مادّة أنيشة ، ص ٤١ .

ويشير الشاعر صراحة إلى استشهاد أبي الربيع الكلاعي عندما يذكر اسمه في القصيدة :-

سلام على الدنيا إذا لم يلُح بها محيّا سليمان بن موسى بن سالم

وتمضي القصيدة على هذا النحو من البكاء والتفجع وتصوير المحنة . والإيحاء بفداحة المصيبة ، دون أن يجد القارىء فيها وصفا لوقائع معركة ، أو تصويرا لحدث معين . ولولا ذكر المكان الذى وقعت فيه المعركة ، وذكر اسم الشهيد الكلاعيّ لما استطاع الدّارس أن يحدد الحدث الذى تبلت فيه .

ومع ذلك فانّ بعض المعلومات التاريخية المفيدة وردت في القصيدة . مثل : كثرة القتلى من المسلمين ، وشجاعتهم وبسالتهم ، واشتراك الكلاعي في المعركة ، واستشهاده . كذلك فان في القصيدة ايحاءات بالجوّ العام الذى خيّم على الأندلس بعد هذه المعركة التي أظهرت صعوبة في الموقف ، لذلك فقد بدا الشاعر قلقا على المستقبل متوجّسا منه ، حيث قال :- منوجّسا

فها أنا ذا في خوف دهر محارب وكنت به في أمن دهر مسالم(١)

وقد قال أبو المطرّف بن عميره قصيدة رثى فيها الكلاعي بدأها بقوله :-

ألا مُسعدٌ أو الأصاحب لذي نصب همّه ناصب(٢)

والقصيدة في مجموعها رثاء يظهر فيها الشاعر حزنه ولوعته على أبي الربيع ، ولم نجد فيها ما يشير إلى موقعة معينة .

وقد نحا أبو الحسن بن شلبون (٣) نحو ابن عميرة في قصيدة قالها تبدأ بما يلي :-

خطبٌ الخطوب دعى العلاء مصابه فابدأ بدمعك أنّ يقلّ مصابه(٤)

وفي سنة ٦٣٥ هـ هاجم ملك أرغون مدينة بلنسية ، وكان معه كثير من الجند الوافدين ، منهم حشود المتطوّعة الفرنسيين ، وآخرون من جنوة (٥).

---

١ - الذيل والتكملة : ج ٤ ص ٩٠-٩٥ ، المرقبة العليا : ص ١٢٠-١٢٢ .

٢ - رسائل أبي المطرّف : ورقة ١٩٦ وما بعدها ، صفة جزيرة الأندلس : ص ٣٤ .

٣ - هو أبو الحسن علي بن لب بن شلبون المعافري . من أهل بلنسية ، مات سنة ٦٣٩ هـ ، الذيل والتكملة : ج ٥ ص ٢٧٤ .

٤ - تحفة القادم نشر في مجلّة المشرق ، بيروت ، مجلّد ٤١ ، سنة ١٩٤٩ ، ص ٥٧٨ .

٥ - تاريخ ابن خلدون : ج ٦ ص ٦٠١ .

ضربت القوّات الغازية حصارا عنيفا حول تلك المدينة، وما زال المسلمون تحت ذلك الحصار ((تنقص أعدادهم . . . إلى أن نفدت الأقوات، واستولى الجوع، وضعفت القوى، وأكلت الجلود . . . وبلغ الكتاب أجله)) [(١)]؛ فكانت المراوضة على تسليم المدينة يوم الثلاثاء سابع عشر صفر سنة ٦٣٦ هـ [(٢)].

كان لسقوط هذه المدينة أصداء واضحة في الشعر الأندلسي، فقد انطلق الشعراء يرثون هذه المدينة ويحثّون على إنقاذها . من ذلك قصيدة لشاعر مجهول قالها مخاطبا صاحب افريقية أبا زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص. وقد استهلها الشاعر بحثّه على التوجه لإنقاذ عموم الأندلس :-

نادتك أندلسٌ فلبِّ نداءهـــا	واجعل طواغيتَ الصليب فداءهـا
صرخت بدعوتك العلية فاحبُها	من عاطفاتك ما يقي حوباءهـــا
واشدد بجلبك جردَ خيلك أزْرَها	تردُدْ على أعقابها أرزاءهـــا
هي دارُكَ القصوى أوتْ لإيالـــة	ضمنت لها مع نصرها ايواءهـــا

وتتفتّح القصيدة منذ البداية على تصوير محنة الأندلس عامّة، فالبلاد في حالة هلع، وقد أحاطت بها الأرزاء من كلّ ناحية . لذلك لم يأل الشّاعر جهدا في اصطناع أيّة وسيلة لاثارة الأمير الحفصي ، وحثّه على انقاذ البلاد ، ودفع طواغيت الصليب عنها . ونستشفّ من الأبيات تحوّل الأندلس عن الدولة الموحّدية إلى الدولة الحفصية ، واعترافها بدعوتهم .

ويوجّه الشاعر الأمير الحفصي الى تصوّر الضيق الذى يعاني منه المسلمون في الأندلس، فيقول :-

وبها عبيدٌ لك لا بقاء لهم سوى	سُبُل الضراعة يسلكون سواءهـــا
خلعت قلوبهم هناك عزاءهـــا	لمّا رأتْ أبصارهم ما ساءهـــا
دُفعوا لأبكار الخطوب وعُونها	فهمُ الغداةَ يصابرون عناءهـــا

وتصوّر هذه الأبيات الأوضاع العامّة للمسلمين في الأندلس بعد سقوط مدينة بلنسية . فهم يدفعون إلى الحرب دفعا ، ويكابدون عناءها ، وقد دبّ اليأس في قلوبهم عندما رأوا ما حلّ بهم، ولا يملكون غير التضرّع والتذلّل شيئا .

وندرك خطورة الوضع في الأندلس من الأبيات التالية التي تحذّر من مأساة رهيبة :-

---

١ — أعمال الأعلام : ق ٣ ص ٢٧٣ .

٢ — التكملة : ج ٢ ص ٦٤٠ ، الحلّة السيراء : ج ٢ ص ١٢٧ ، النفح : ج ٢ ص ٥٩٠ ، أزهار الرياض : ج ٣ ص ٢٠٥ ، عنوان الدراية : ص ٣١١ ، مخطوط الحلل السندسية : ورقة ٢٢ .

تلك الجزيرة لا بقاء لهـــا إذا　　لم يأمن الفتح القريب بقاءهـــا

أشفى على أرف الحياة ذماؤها *　　فاستبق للدين الحنيف ذماءهـــا

وكأني بالشاعر يحمّل الأمير الحفصي بوصفه القوة العسكرية والسياسية القادرة حينئذ مسؤولية إنقاذ الأندلس، والدفاع عنها، لذلك فقد بصّره بواقعها، وعدّه من التباطؤ في التوجه إليها، فهي لم يبق فيها إلا رمق من حياة .

وبعد ذلك يلتفت الشاعر إلى مدينة بلنسية فتثير الحسرة في نفسه، ويتساءل عن سبل الخلاص، وهو في تحسره يقدم لنا هذه المدينة في مجموعة من ذكرياتـــه وعهوده فيها :-

إيه بلنسية وفي ذكراك مـــا　　يمري الشؤون دماءها لا ماءهـــا

كيف السبيل إلى احتلال معاهد　　شبّ الأعاجم دونها هيجاءهـــا

وإلى رُبىً وأباطح لم تعر مــن　　حُلل الربيع مصيفها وشتاءهـــا

طاب المعرّس والمقيل خلالهـــا　　وتطلّعت غرر المنى أثناءهـــا

ويصل اضطراب الشاعر وانفعاله مداه حين عجز عقله عن إدراك حقيقة دخول الكفار بلنسية مع أنها ((جنة)) على حد قوله :-

عجبًا لأهل النار حلّوا جنـــةً　　منها تمـــدّ عليهم أفياءهـــا

ويصور الشاعر بعض فظائع الصليبيين في مدينة بلنسية :-

أمّا العلوج فقد أحالوا حالها　　فمن المليك علاجها وشفاءهـــا

أهدى إليها بالمكاره جـــان　　للكفر كرّه ماءها وهواءهـــا (١)

وتمضي القصيدة على هذا النحو من الحث والبكاء وتصوير المحنة . وهـي سهلة سائغة خالية من الافتعال والتكلف تقوم على المراوحة بين الإثارة والتفجـع والسرد القصصي، لذلك فقد قدمت محنة بلنسية خاصة، والأندلس عامة في مرارتهـا التاريخيـة .

وقد كان أبو المطرف بن عميرة من أكثر الشعراء إحساسا بفاجعة المسلميـن في بلنسية . فقد أسلمه ذلك لساعات وجد عنيفة . ولعل حب الشاعر لهـذه المدينة بحكم تجاربه فيها مع ما طبعت عليه نفسه من رقة وإحساس، جعله يعيـش في مثل هذه الأجواء الحزينـة .

---

١ - النفح : ج ٤ ص ٤٧٩ - ٤٨٣ .

ومن القصائد التي قالها قصيدة ضمن رسالة نثرية، وقد استهلّها بمقدّمة وجدانية مؤثّرة :-

ألا أيّها القلبُ المصرّ بالوجد　　　أما لكَ من بادي الصّبابة من بُدِّ ؟

وهل من سلوٍّ يُرتجَى لمتيّمٍ　　　له لوعةُ الصّادي وروعة ذي الصَّدِّ ؟

يحنّ إلى نجدٍ وهيهات حرّمت　　　صروفُ اللّيالي أنْ يعودَ إلى نجدِ

فيا جبلَ الرّيان لا ريَّ بعدما　　　عدت غيرُ الأيام عنْ ذلك الوردِ

ويا أهل ودّي والحوادثُ تقتضي　　　خُلوّي عن أهلٍ يُضاف إلى الودِّ

فقد ران على ابن عميرة حزن عميق ملك مشاعره، وأخذ عليه أقطار نفسه، فتبدّى في الأبيات السابقة إنسانا مأزوما دائم البكاء والصبابة ... ويبحث عن الجلد والصبر، و((يحنّ إلى نجد)) حيث الهدوء والطمأنينة النفسيّة. وقد بلغ الانفعال النفسيّ مداه في تلك الأبيات حين رفع ابن عميرة عقيرته ولهج بالدّعاء على وطنه ((جبل الريّان)) الذى عدت عليه غير الأيام وسلبته بهاءه.

ويظهر الشّاعر اندماجه التامّ في الجماعة الإسلاميّة، ويتحدّث بلسانها حين جعل سقوط بلنسية فاتحة المصائب على بلاد الأندلس :-

أمِنْ بعد رزء في بلنسيةٍ ثَوى　　　بأحنائنا كالنّارِ مضمرة الوقدِ

يُرَجّي أناسٌ جنّة من مصائب　　　تطاعن فيهم بالمثقّفةِ المُلْدِ

ويتردّد الشّاعر بين الرجاء واليأس، والأمل والقنوط، حين يستشرف آفاق مستقبل مدينة بلنسية من خلال وضع المسلمين السيء :-

ألا ليتَ شعري هل لها من مطالع　　　مضاءٍ إلى ما كان فيها من السعدِ

وتنتهي القصيدة ببيت مكتنز بالإيحاء والإثارة، حيث يستنكر الشّاعر ما لحق المسلمين في مدينة بلنسية دونما ذنب اقترفوه :-

وَهلْ أذنبَ الأبناء ذنبَ أبيهم　　　فصاروا إلى الإخراج منْ جنّة الخُلدِ ؟[1]

وهناك قصيدة أخرى قالها المطرّف في المناسبة نفسها بدأها بقوله :-

ما بالُ دمعك لا يَني مدرارُه　　　أمْ ما لقلبكَ لا يقرُّ قَرارُه

ألِلوعةٍ بين الضلوع لظاعنٍ　　　سارت ركائبه وشَطَّتْ دارهُ

أم للشبابِ تقاذفتْ أوطانُه　　　بعدَ الدنوّ وأخفقَتْ أوطارُه

---

١ - النفح : ج ٢ ص ٣١٥.

أم للزّمان أتى بخطب فــادحٍ   من مثل حادثِهِ خلت أعصــارُهُ

بحرمن الأحزان (١)عبّ عبابُــه   وارتجّ ما بين الحشا زخّــارُهُ

ونستشفّ من الأبيات الأحوال النفسيّة للمسلمين في الأندلس، وهم يعانــون وطأة الصليبيين وذلّ الهزائم. وهذه أحوال لا نستطيع أن نجدها في المصــادر التّاريخية بمثل هذا الإيحاء. فالأبيات تصوّر انسانا يعيش في ((بحر من الأحزان)) مضطربا، كثير البكاء، شديد الوجد والصّبابة، ويبحث عن الخلاص من هذه الحالـــة، إلاّ أنّه لا يعرف لها علّة أو سببا.

ويصوّر الشّاعر الوضع الغريب في مدينة بلنسية بعد احتلالها بعبارات مؤثّرة :ـــ

أمّا بلنسيةٌ فمثوى(٢) كافـــرٍ   حفّت به في عقرها (٣)كفّــارُه

زرع من المكروه حلّ(٤) حصادُهُ   عند (٥) الفدوّ وغداة لجّ حصـارُهُ

وعزيمة للشّرك جَعْجَعَ بالهدى   أنصارُها اذ خانه أنصـــارُهُ

فقد أصبحت هذه المدينة مثوى للكفر الذي حفّ بها من كلّ الجهات، فـــي الوقت الذي تخاذل فيه المسلمون عن نصر دينهم، والدفاع عنه، وجهاد أعدائــــه.

ويتّضح مقدار الألم الذي اعتصر ابن عميرة عندما يتساءل عن السبيل إلى الصّبر على ما حلّ بالمسلمين، ويودع ذلك قلقه وتحفزّه لادراك الثأر :ـــ

قل كيف تثبت بعد تمزيق العـــدا   آثاره، أم(٦) كيف يدرك ثـاره ؟

ويتردّد ابن عميرة في هوّة اليأس حين يقارن بين حال المدينة قبل الاحتـــلال وحالها بعده، ويدرك أن لا أمل في انقشاع الغمّة عن بلنسية :ـــ

---

١ ـــ ورد في أعمال الأعلام ((الأشجان)).

٢ ـــ ورد في تحفة القادم ((بمثوى)).

٣ ـــ ورد في تحفة القادم ((عفرها)).

٤ ـــ ورد في تحفة القادم ((جـلّ)).

٥ ـــ ورد في تحفة القادم والرسائل ((بعد)).

٦ ـــ ورد في تحفة القادم والرسائل ((أو)).

٧ ـــ ورد في تحفة القادم ((تحتهـا)).

ما كانَ ذاكَ المصر إلاّ جنّـــة ‌ ‌ ‌ ‌ للحسن تجري تحته (١) آثــــارهُ
طابت (٢) بطيب بهاره أصالُـه * ‌ ‌ ‌ ‌ وتعطّرتْ بنسيمه أسحــــارهُ (٣)
قد كان يشرق بالهداية ليله * ‌ ‌ ‌ ‌ والآن أظلمَ بالضّلال نهــــارهُ
ودجا به ليل الخطوب فصبحه (٤) ‌ ‌ ‌ ‌ أعيا على أبصارنا إسفــــارهُ (٥)

ولابن عميرة أبيات أخرى ((فيها استسقاء للدّيار على عادة الأشعار)) (٦) قالها في محنة مدينة بلنسية : —

زدْنا على النائين عنْ أوطانهم ‌ ‌ ‌ ‌ وإن اشتركْنا في الصبابةِ والجــوىَ
إنّا وجدْناهُم قد استسقوا لها ‌ ‌ ‌ ‌ من بعد أنّ شطّت بهمْ عنها النّوىَ
ويصدّنا في ذاك عنْ أوطاننا ‌ ‌ ‌ ‌ مع حبّها الشركُ الذي فيها ثــوىَ
حسناءُ طاعتها استقامتْ بعدَنا ‌ ‌ ‌ ‌ لعدوّنا ، أفيستقيمُ لها الهـوى ؟ (٧)

وفي تعليق ((صاحب النفّح)) على هذه الأبيات ما يوفي بالغاية ، حيث قال : — ((وما رأيت ولا سمعت مثل هذه الأبيات بمعناها ، المالية في مبناها ، فإنّ فيهــا الإشارة إلى استيلاء النّصارى — دمّرهم اللّه — على تلك الدّيار ، وثبوت قدمهـــم فيها على طبق ما حصل لهم فيه اختيار ، مع إدماج حبّه لها الّذي لا يشك فيه ولا يرتاب ، واشتمالها على المحاسن التّي هي بغية الرّائد ونجعه المنتاب)) (٨)

---

١ — ورد في تحفة القادم ((تحتها)) .
٢ — ورد في تحفة القادم ((طافت)) .
٣ — ورد في الروض المعطار وأعمال الأعلام : ((أشجاره)) .
٤ — ورد في صفة جزيرة الأندلس ، وأعمال الأعلام وتحفة القادم ((بصبحة)) .
٥ — انظر القصيدة في : — صفة جزيرة الأندلس : ص ٥١ ، الرّوض المعطار : مادّة بلنسية ، ص ١٦—١٠٠ ، أعمال الأعلام : ق ٣ ص ٢٧٣—٢٧٤ ، رسائل أبي المطرّف ، مخطوط ورقــــة ١٤٠ ، تحفة القادم ، نشر في مجلّة المشرق ، بيروت ، مجلد ٤١ ، سنة ١٩٤٩ : ص ٥٧٦ — ٥٧٧ .
٦ — النفّح : ج ١ ص ٣١٠ .
٧ — النفّح : ج ١ ص ٣١٠ .
٨ — النفّح : ج ١ ص ٣١٠ .

وبعد فهذا بعض ما قاله ابن عميرة في سقوط مدينة بلنسية . وهذا الشعر ذو قيمة خاصة في دراسة الأجواء النفسية التي كانت سائدة في عموم الأندلس بعد غلبة الكفار على بعض مدنها الكبرى ، فهو يصور اضطراب المسلمين وجزعهم ، وتشتت أنفسهم ، ويأسهم ، والحزن العميق الذى ران على قلوبهم . فابن عميرة في القصائد السابقة لم يكن مؤرخا ولا مصورا، وإنما كان متفاعلا مع الحدث ينقل أصداءه ، ويستكنه جوانبه وأبعاده . . . لذلك جاءت أبياتها حية مؤثرة ، تصور النفوس القلقة والفازعة أحسن تصوير .

وفي أواخر سنة ٦٤٢ هـ انعقدت بين ابن الأحمر وملك قشتالة هدنة كان من شروطها تسليم مدينة جيان الاسلامية لهذا الملك الصليبي (١) . وقد أنشد بعض أهل جيان عند الخروج منها بعد أن تغلب العدو عليها البيتين التاليين : —

أودعكم وأودعكم جناني (٢) وأنثر عبرتي نثر الجمان
وإني لا أريد لكم فراقا ولكن هكذا حكم الزمان (٣)

وترديد هذين البيتين يمكن أن يكشف الانفعال الوجداني العميق الذى تملك الشاعر الذى قبل أن يفارق وطنه ظاهرا ، ولكنه يرفضه رفضا قلبيا .

ويستشف من السياق الشعري سياسة الصليبيين في إخلاء البلاد الإسلامية من أهلها ، وإرغامهم على الهجرة منها ، والابتعاد عنها .

وفي السابع والعشرين من شهر رمضان عام ٦٤٦ هـ كان استيلاء ملك قشتالة على مدينة إشبيلية سلما ، وذلك بعد أن ضرب حولها حصارا بريا وبحريا استمر عاما ونصفا (٤).

وقد نظم أبو موسى هرون بن هرون قصيدة يرثي أهل اشبيلية ، ويصف ما نالهم من الكروب الشداد ، ويحرض المسلمين على الجهاد . والقصيدة تبدأ بمقدمة وجدانية جاء فيها : —

يا حمص أقصدك المقدور حين رمى لم يرع فيك الردى إلاّ ولا ذمما
جرت عليك يد للدهر ظالمة لا يعدل الدهر في شيء إذا حكما

---

١ — انظر : البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٦٧ ، الاحاطة : ج ٢ ص ٩٩ .
٢ — ورد في صفة جزيرة الاندلس ((أودعكم أودعكم جياني)) .
٣ — انظر : الروض المعطار : مادة جيان ، ص ١٨٤ ، صفة جزيرة الأندلس : ص ٧٢ .
٤ — انظر : — الإحاطة : ج ١ ص ٣٨٣ ، ص ١٥٥ ، أعمال الأعلام : ق ٢ ص ٣٣٢ ، الذيل والتكملة : ج ٥ ص ٢٠٥ ، التكملة : ج ٢ ص ٩٠٣ ، النفح : ج ٤ ص ٤٧٢ — ٤٧٣ ، البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٨١ — ٣٨٥ ، الروض المعطار : مادة إشبيلية ، ص ٦٠ .

ماكنتُ أحسبُ أنّ الحادثات إذا عمّت بنى السّوء لا تلقي لك السّلما
ولا توهّمتُ ذاك الحسن يطمسُه ريبُ الزّمان ويكسو نوره الظّلمَا

ويظهر منذ البداية إحساس الشّاعر بمصيبة مدينة اشبيلية التّي جرت عليها يد الدهر، وسلبتها حسنها وبهاءها، وأفقدتها جمالها وصفاءها. وقد بدا الشّاعر حزينا متفجّعا، ناقما على الأيّام سوء صنيعها في هذه المدينة.

ويقدّم الشاعر في الأبيات التالية تحليلا لأسباب نكبة المسلمين في الأندلس عامّة، واشبيلية خاصّة : —

يا جنّة زحزحتْنا عن زخارفها ذنوبنا فلزمنا البثّ والنّدَمَا
لمّا تفرّقت الأهواء واضطرمتْ نار البغاة فقامت للرّدى علمَا
ونوزع الأمر أهلوهُ وقام به من لم يجد قِدَما فيه ولا قَدَمَا
ثارت حفائظ للتثليث فابتدروا وأيقظوا من سنات الغفلة البهمَا
وأنشروا ميّت الأحقاد بينهم ولو أطاقوا لعمرى أنشروا الرّمَمَا
ويمّموا حمص في جمع يضيق به ذرعُ الفضاء فسوّى الوهدَ والأكَمَا

والشّاعر في الأبيات السّابقة يعرف موطن الدّاء الذى أصاب المسلمين في الأندلس. فقد أغرى الأعداء بهم تفرّق أهوائهم، وتناحرهم وتقاتلهم، وتصارعهم على السلطان، وضعف قياداتهم. ولم يغفل الشّاعر العلاقة بين ذنوب المسلمين والمصائب التي حلّت بهم، بل أنّه يتخذ من ذلك حافزا خلقيا لتذكيرهم بكثرة ذنوبهم التّي كانت سببا في إخفاقهم وخسرانهم المبين.

ويمكن ان نستشفّ من الأبيات ضخامة الجيوش الصليبيّة التي اشتركت في احتلال مدينة إشبيلية.

ويتحدث المؤرخون عن محاصرة الصليبيين مدينة اشبيلية، وتشديدهم عليها، وإحاطتهم بها من كلّ الجهات(1). وقد أشار الشاعر إلى عنف هذا الحصار قائلا : —

وقد أحاطت بناء الأعداء فاغرة أفواهَها تبتغي أرواحنا طعمَا

---

١ — البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٨١ .

وإذا كانت فظائع الصليبيين في مدينة إشبيلية تدعو إلى المبالغة في الوصف والقول، كذلك فإنّ نظر الشاعر الدائب في قصيدة ابن الرومي في رثاء البصرة أضفى على قصيدته نزعة مأساوية حزينة، وقدرة على الإثارة، وبراعة في تصوير مناظر القتل والأسر والجرح والتدمير والتخريب التي عانت منها مدينة إشبيلية(١) .

ويصف الشاعر سوء الأوضاع في الأندلس، وتردّي الأحوال فيها، ويحمّل المسلمين مسؤولية الدفاع عنها، وإنقاذها من الكفر الذي أرهق أهلها، وتركهم جثة هامدة، وجعلهم ((في وجود يشبه العدما)) . والشاعر في ذلك لم يترك للمسلمين عذرا في التأخر عن إنقاذ الأندلس وإبقائها مسلّمة للكفر :—

ماذا يبطّئكم عنّا وحولكم | أنْ تُبصروا، دارُ قومٍ أصبحت رِمَمَا

*

لا عذرَ في تركها للكفر مُسْلَمَةً | إنّ الزمانَ وأنتم فيه ما عقما

*

لم يبقَ فينا سوى الأنفاسِ خافتةً | فكلّنا في وجودٍ يشبهُ العَدَمَا

ويصور الشاعر موقف العالم الإسلامي في المغرب من الأندلس آنذاك، فهم يستغيثون ... ولكن لا مجيب لهم :—

كم نستغيث ولا أنصار يصرخنا | ونستطّب لداء طالما حسما(٢)

تلك هي قصيدة أبي موسى بن هرون، وقد ذهبت كلاما يزجى فلا يجد سميعا(٣) . والقصيدة في جملتها انفعالات متأجّجة، صادرة عن نفس متحرقة متحسرة، تعتب على الضياع وتدعو إلى دفع الأخطار، وتعبّر عن مشاهر أمّة أضعفتها الخلافات، وأوهنها التمزّق، ولذا جاءت القصيدة قويّة التأثير، بعيدة الغور في نفس السامع . بحيث تنقله إلى أجواء الحدث، وبهذا يكون أبو موسى بن هرون نقل مدينة اشبيلية في زمنها التاريخي .

وبعد، فهذا حديث الشعراء عن الصرّاع الذي احتدم بين المسلمين والصليبيين في الأندلس على عهد الموحّدين . فقد واكب أولئك الشعراء الأحداث الكبرى لهذا الصرّاع، فسجّلوها وتغنّوا بها كلّما سنحت لهم الفرصة للغناء، وحثّوا المسلمينَ على الجهاد كلّما استشعروا الخطر المحدق، وبكوا حينما رأوا انتثار عقد الجزيرة الأندلسية وتساقط مدنها .

١— انظر ص ١١٧ — ١١٨ من هذه الدراسة .
٢— البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٨٢ — ٣٨٥ .
٣— البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٨٥ .

لذلك فانّه يمكن أن نستقرئ قسما كبيرا من أحداث الصّراع من خلال الشعر بشكل يوازي استقراءها من المصادر التاريخية ، ((مع الأخذ بعين الاعتبار، الفرق في طبيعة التسجيل ، ما بين رصد المؤرّخ للأحداث، وانفعال الشّاعر بها)) (١).

إلاّ أنّ قسما كبيرا من القصائد الجهاديّة التي واكبت أحداث الصراع، كان من الشعر الحماسيّ ذي المذاق الواحد ، الذى يختلط فيه حدث بحدث ، بحيث لا يستطيع المرء أن يميّز حادثة عن أخرى. فهذا الشعر ـ غالبا ـ ينقصه التحديد الدقيق للواقعة، وابراز ا تفصيلات خاصة بها.

ولعلّ هذا يعود إلى أنّ الشعراء الذين نظموا القصائد الجهاديّة لم يشتركوا في المعارك. لذلك فهم حين يكتبون عن وقعة ما يعتمدون على خيالهم وعلى ما سمعوه عن تلك الوقعة.

وقد يعود انصراف الشعراء عن وصف الأحداث، والتفصيل فيها ، إلى أنّهم اهتمّوا بأعلان نبأ المعركة، ونتيجتها على الأمّة، في وقت كان الشعر فيه من أهم وسائل الأعلام.

وقد يكون انكباب الشعراء على التراث الشعّرى الموروث باعتباره مثلا أعلى يمكن أن يحتذى، من الأسباب التي أفقدت قسما كبيرا من شعر الجهاد سمة الواقعيّة في الوصف.

ثمّ أنّ قسما كبيرا من الشعر يرتبط فيه تصوير الواقعة بالحديث عن دور القائد فيها . وهنا تتحوّل القصيدة إلى معرض إشادة بذلك القائد ، ويترتّب على ذلك إغفال الحدث، وعدم تسليط الأضواء عليه.

---

١ ـ صدى الغزو الصليبي : ص ١٣٦ .

الفصل الخامس

تقييم شعر الجهاد

أ) دور الشعر في الصّراع

ب) الأداء الفنّي :-

١ - بناء القصيدة .

٢ - الصورة الشعريّة .

٣ - الاحتذاء والتقليد .

٤ - أثر مقاييس العصر الأدبيّة .

أ) دور الشعر في الصراع :ــ

تعدّى الشعراء في عهد الموحّدين مهمّة النقل والسرد لأحداث القتال إلى اتّخاذ مواقف تساند الأمّة في صراعها العسكري .

ومن هذه المواقف :ــ الحثّ والإثارة ، وبثّ دعوة الجهاد بين الأمّة ، وذلك للوقوف في وجه العدوان ، وإنقاذ الحواضر الإسلامية من خطر الغزو الصليبي .

وقد تراوحت دعوات الاستثارة والتحريض بين الشدّة والشعور بالثقة حين يكون المسلمون في مركز قوّة ، والتفجّع والتألّم حين يكون المسلمون في حالة ضعف . ومع ذلك ، فإن المسلمين لم يفقدوا الأمل في النصر في الحالة الأخيرة .

فهذا ابن المنخّل الشلبي يضمّن قصيدته التي قالها في حركة عبد المؤمن إلى الأندلس سنة ٥٥٥ هـ ، دعوة قوية مباشرة إلى الجهاد ، وخلال ذلك يبصّره بقوة المسلمين التي تحقّق أهدافهم التي يسعون إليها ، مؤكدا له أنّ هذه القوّة كفيلة باستباحة ممالك الأعداء ، والتغلّب عليها . يقول :ــ

فتحتمْ بلادَ الشرقِ فاعتمدوا الغَرْبا ... فإنَّ نسيمَ النصرِ بالفتحِ قدْ هبّا

أثرتُمْ إليهِ الخيلَ وهي أجادلٌ ... فسالتْ بكم بحرا وطارتْ بكم ركبا

*

أقيموا إلى ابنِ الرّيقِ بعدُ صدورَها ... وليسَ عليكم أنْ تُرى ضمَّرا قبّا

رعتْها الغيافي فاستدقّت جسومُها ... بما قد رعَت فيها الكلا يابسا رطبا

عليها رجالٌ كالقداحِ ، وإنّما ... يكونون في الهيجاءِ هنديّةً قضبا

فإنْ تبدأوا بالغربِ فالفتحِ واضحٌ ... وإنّ نجومَ الدّينِ طالعةً غربا

ضمانٌ عليكم أنْ تبيحوا حريمَهُ ... وأن تكسِروا فيها التماثيلَ والصّلبا (١)

وقد كان ايمان أبي الرّبيع الموحّد بحتميّة الظفر على المشركين ، وثقته بقوّة المسلمين دافعا قويّا جعله يلحّ على الخليفة المنصور في تنفيذ العزم على جهاد الأعداء ، حيث قال :ــ

جيشُ الضلالِ بجيشِ الحقِّ مهزومُ ... فنفّذِ العزمَ إنّ الفتحَ محتومُ

وجُسْ بعسكرِك المنصورَ مُحْتَكِما ... أرضَ العدا فالّذي عوّدتَ معلومُ

وَصَمِّمْ لفتحٍ يُرى في الدهرِ نادرةً ... فكم أتاكَ به عزمٌ وتصميمُ

*

---

١ ــ النص : ج ٢ ص ١٥٢ .

منْ ذا يردُّ جنودَ اللّه يَقدمُها	حيثُ انتحيتَ بها للنصرِ حيــزُومُ
جيشٌ تصدّى لدينِ اللّه ينصـرُهُ	مَنْ يُحْرمِ الغزوَ فيه فهو محــرومُ(١)

وقد تنوّعت أساليب الاستثارة التي لجأ اليها الشعراء لحفز الهمم، وتعبئة المشاعر . وهي أساليب مرتبطة ارتباطاً وثيقا بطبيعة الصراع العقائدي . فمن جهة فإنّ وضع الصراع في إطاره الاسلاميّ الشامل كان كفيلا بتعبئة مشاعر الأمّة، واستقطاب طاقاتها على درب الجهاد .

كذلك ، فقد ركّز الشعراء في قصائدهم على أنّ الإسلام يواجه عدوّا متسلّحــا بالقوّة والعتاد يريد أن يقضي عليه؛ لذلك أسهبوا في الحديث عن خطر هـــذا العدوّ على الإسلام وأهله وحضارته، وحذّروا المسلمون منه، ودعوهم للوقوف في وجهه للقضاء عليه .

وقد بدأت دعوة الشعراء الى مواجهة العدوان منذ وقت مبكّر. فممّا نقــل عن القرشـي العامري (٢) قصيدة طويلة في رثاء الأندلس،لم يبق منها إلاّ ثمانيـــة أبيات ، هــي :ــ

ألا مسعدٌ منجزٌ ذو فِطَــــن	يبكي بدمعٍ مَعينٍ هَتِـــــنْ
جزيرةَ أندلسٍ حســـــرةً	لا غالب من حقود الزّمـــــنْ
ويندبُ أطلالها آسِفــــــا	ويرثي من الشّعر ما قدْ وهَــنْ
ويبكي الأيامى ويبكي اليتامى	ويُحكي الحمامَ ذواتِ الشّجَـــنْ
ويشكو إلى اللّه شكوى شجٍ	ويدعوه في السرِّ ثمّ العلَـــــنْ
وكانت رِباطاً لأهلِ التّقــى	فعادَتْ مَناطاً لأهلِ الوثَـــنْ
وكانتَ معاذا لأهلِ التقّــى	فصارتْ ملاذا لمن لم يَـــدِنْ
وكانَتْ شَجًى في حلوقِ العِـدا	فأضحى لهم مالها مُحْتَجَـنْ.(٣)

والقصيدة وإن اتخذت طابع الرثاء للأندلس، فإنّها تحمل في ثناياها دعـوة قويّة لإنقاذها من خطر الصليبيين ؛ فإنّ فيها ثروة عاطفية حقّة قادرة على إثـــارة المشاعر، وحفز الهمم. يظهر ذلك في الوصف المؤثّر لأوضاع المسلمين في الأندلس

---

١ — ديوان أبي الرّبيع الموحّد : ص ٣٢ .

٢ — سكن إشبيلية ، وكان متفنّنا في معارفه، محدّثا ،عدلا ، فقيها ، شاعرا ، كتــب بخطّه كثيرا من الدواوين . توفي سنة ٥٧٢هـ. انظر: الإحاطة : ج ١ ص٣٦٤— ٣٦٧ .

٣ — الإحاطة : ج ١ ص ٣٦٦ .

وقد أحدق العدوّ بهم . . والمقارنة بين حالها أيام قوة المسلمين وحالها بعد ضعفهم . . وإبراز خطر الأعداء على التراث الإسلامي ، وجماعة المسلمين الذين قتل كثير منهم ، فكثر الآيامى واليتامى ، وأصبحت البلاد ملاذا للكفّار بعد ما كانت عامرة بأهل الإيمان .

وعند ما حاصر ابن مردنيش وحلفاؤه النصارى بلدة شَقْر وأطبقوا عليها ، بعث أبو بكر المخزومي رسالة حسنة في الاستصراخ والاستنصار ، أودعها عدّة أبيات صوّر فيها الخطر الذي كان يمثّله ابن مردنيش على أهل تلك البلدة . فقد أرهقهم وأباح دماءهم ، وضيّق الخناق عليهم ، وقذف الرّعب في قلوبهم ، حيث قال : —

تَدارَكْ أميرَ المؤمنين دِماءنا ... فإنّكَ للإسلام والدين ناصرُ
وَوَجِّهْ إلى استنقاذنا بكتيبةٍ ... يهابُ الرّدَى منها العدوُّ المحاصِرْ
تُنَفِّسُ من ضيقِ الخِناقِ بأرضنا ... فتُدرَكُ آمالٌ وتُرعى أواصِرُ(١)

وقد ألحّ الشعراء على انتزاع المعاني التي تصوّر خطر الوجود الصليبي على جماعة المسلمين . فعند ما بويع الخليفة يوسف بالخلافة رفع إليه أبو بكر بن المنخّل الشّلبي قصيدة هنأه فيها ، وقد أودعها وصفا مؤثرا لأوضاع المسلمين في مدينة شِلب ، ودعوة قويّة للتوجّه إلى هذه المدينة لصدّ العدوان عنها ، وإنقاذ أهلها : —

إنّ الأعادي لا تزالُ كعهدِها ... تُوري بشلبَ مُغارَها وكفاحَها
قد غيّضتْ أنهارَها ، وتحرّقتْ ... أشجارُها ، وتكفّأتْ أقداحُها
كَلِفتْ بها أعداؤُها حتى لقدْ ... أخذوا عليها نَجْدَها وبِطاحَها
ما ضرّنا أنْ غلّقوا ما حولَها ... إن كان سيفُك بعدَها مفتاحَها

*

فعلى سيوفِك أن تبيدَ كُماتَها ... وعلى جيوشِك أن تروّحَ ساحَها (٢)

وإذا كان الشعراء أبرزوا الخطر المحدق بجماعة المسلمين عامّة ودعوا إلى تداركه ، فإنّ بعضهم صوّر الآلام الشخصيّة التي يعاني منها من جراء استشهاد

---

١ — الحلّة السّيراء : ج ٢ ص ٢٦٩ .
٢ — المنّ : ج ٢ ص ٢٤٤ — ٢٤٥ .

عزيز (١) ، أو سقوط مدينة (٢) ، أو تخريب ديار (٣) ، أو أسر الأعداء . فهذا أبو محمد ابن عذرة (٤) ، يبعث من موضع أسره في طليطلة عدة أبيات الى الخليفة النّاصر يبصّره فيها الضيق الذى يعاني منه ، والآلام التّي يكابدها ، والخطر الذى يهدّد حياته : —

لوْ كُنتَ حيث تُجيبني — لأذابَ قلبك ما أقول
يكفيك منّي أنّني — ما أستقلّ من الكبول
واتجاه لحظي ألف لحظ — كيْ أقرأ ولا أزول
واذا أردتُ رسالة — لكمُ فما أُلفي رسول (٥)

وممّا قال في أسره : —

يَعَضّ برجليَّ الحديدُ وليس لي — حراكٌ لما أبغي ولا أتنقّل (٦)

واذا كانت هذه الأبيات قد جاءت على هيئة وصف للآلام النفسيّة والجسديّة التي يعاني منها ابن عذرة في أسره ، حيث صور نفسه مراقبا من الأعداء الذّين شددوا الحراسة عليه ، مقيّدا بكبول الحديد التي أثقلت قدميه ، وأعاقت حركته . . . فإنّ هذه الطريقة في التعبير كانت يومئذ قويّة في استثارة العواطف ، وحفز المشاعر ، ومؤثّرة في التذكير بآلام الأسر ، وذلّ الاعتقال .

وقد أنكر أحد المرسيين على الخليفة العادل تقاعسه عن الغزو ، وتأخّره عن الجهاد ، والمسلمون لا يأمنون على حياتهم : —

وليسَ الصليبُ يرى مانعا — لغير تواتر إعدامنا
وسيّدنا ناظر في الجواز — يرومُ النّجاة بإسلامنا (٧)

---

١ — انظر : الذيل والتكملة : ج ٤ ص ٩٠—٩٥ .
٢ — انظر : الروض المعطار : مادّة بلنسية ، ص ٩٩—١٠٠ .
٣ — انظر : المغرب : ج ٢ ص ٤٤٨ ، مخطوط الوافي بالوفيات : ج ١٦ ورقة ١٩ .
٤ — هو أبو محمد بن عذرة ، أسره النّصارى ، وطالبوه بمال كثير ، فكتب في ذلك لناصر بني عبد المؤمن ، فأمر ألا يدفع منه في إعطاء هذا المال ، لأنّ فيه تقوية للعدوّ . انظر : — المغرب : ج ٢ ص ١٤٨ .
٥ — المغرب : ج ٢ ص ١٤٩ .
٦ — المغرب : ج ٢ ص ١٤٩ .
٧ — الروض المعطار : مادّة عفص ، ص ٤١٥ — ٤١٦ .

أسره

وكما حذّر الشعراء من الخطر الصليبي على جماعة المسلمين، كذلك فقد أبرزوا خطورة ذلك على الإسلام وتراثه وأرضه.

فقد دعا ابن حربون الخليفة يوسف إلى الجهاد في الأندلس لإعادة سابق عهدها إليها، وإحياء رسوم التابعين وسننهم في تلك الأرض التي لا ينفك الأعداء عن العبث فيها، وتخريب معالمها، ومكايدة أهلها :—

وإنّي لأرجو للجزيرة كَــرّةً ... تُعيدُ عليها عهدَها المتقادِمَـا

وأنتَ أمينُ اللهِ تجبرُ صدعَها ... وإن قالَ قومٌ إنّه قَدْ تَقادَمَـا

وتُحيي رسومَ التّابعين بأرضِها ... فها هيَ تَستَدْعيكَ غُبراً طَواسِمَـا

طلول بذاكَ الثّغرِ ما انفكّ هادِمُها ... على البُعدِ تَستَسْقِي القَنا والّلهاذِمَا (١)

وقد تحدّث ابن الأبّار بحرقة عن دخول الصليبيين مدن الأندلس، وتخريب معالمها الحضارية، وتحويل مساجدها بيعا، ودعا الأمير الحفصي إلى الوقوف في وجه العدوّ، وإنقاذ البلاد منه :—

أَدْرِكْ بخيلِك خيلِ اللهِ أندلسَـا ... إنّ السبيلَ إلى مَنجاتِها دَرسَـا

وحاشِ ممّا تعانيه حُشاشتَهـا ... فطالما ذاقتِ البلوى صباحَ مسـاء

يا للمساجدِ عادتْ للعِدا بيعا ... وللنداءِ غدا أثناءَها جرسَـا

سرعانَ ما عاثَ جيشُ الكفرِ واحَربا ... عيثَ الدَّبا في مغانيها التي كبسا

ويرتفع صوت الشاعر عاليا عندما يتحدّث عن الخطر المحدق بجماعة المسلمين في الأندلس، ويدعو إلى تدارك حالهم :—

يا للجزيرةِ أضحَى أهلُها جَزرا ... للحادثاتِ وأمسى جَدُّها تَعسَـا

في كلِّ شارقةٍ إلمامُ بائقـةٍ ... يعود مأتمُها عندَ العِدا عُرسَـا

وكلَّ غاربةٍ إجحافُ نائبـةٍ ... تثني الأمانَ حِذارا والسّرورَ أسَى

وفي بلنسيةٍ منها وقرطبـةٍ ... ما يَنسِفُ النَّفْسَ أو ما ينزفُ النَّفَسَا

---

١ — المنّ : ج ٢ ص ٣٨٥ — ٣٨٦.

صلة عبلها أيها المولى عسا أبقى المران لها حبلاً ولا مرسا

وتصوّر هذه الأبيات نكبة الأندلسيين، ومأساتهم الدّامية، والعدوان الطاغي عليهم، والقسوة الصارمة التي يوءخذون بها . وقد أودع الشّاعر هذه الأفكار في عبارات موحية ذات تأثير مباشر في النفس.

ويستثير ابن الأبّار حميّة الأمير الحفصي ونخوته حين يخلع عليه مجموعة من الفضائل، ويقصر النداء عليه :-

هذي رسائلها تدعوك من كثب وأنت أفضل مرجوّ لمَنْ يئسا

وافتك جارية بالنجح راجية منك الأمير الرّضى والسيّد النَدُسا

*

توم يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص مقبّلة من تربه القُدُسا

ملكٌ تقلّدت الأملاكُ طاعتَه دينا ودُنيا فغشّاها الرّضى لبسا

ويدعو ابن الأبّار الأمير الحفصي إلى تطهير البلاد من رجس الصليبيين، ونصرة المسلمين الذين يعانون وطأة الأعداء، وذلّ الهزائم :-

طهّرْ بلادك منهم إنهمْ نجسٌ ولا طهارةَ إنْ لَمْ تغسِلِ النَجَسا

وأوطئ الفيلقَ الجرّارَ أرضهمُ حتى يطأطئ رأساً كلّ من رأسا

وانصُرْ عبيداً بأقصى شرقها شَرِقتْ عيونُهم أدمعاً تهمي زكا وخسا (١)

وقصيدة ابن الأبار وإن كانت بشكل حثّ على انقاذ الأندلس، إلاّ أنها تحمل معاني واضحة لرثائها، مما زادها قدرة على التأثير. والقصيدة ((لا تعوزها القوّة ولا الحماس ولا التألّق ولا البلاغة المتقدة)) (٢). لذلك فعندما وصلت الأمير الحفصي ((حرّكت من جنانه أعظم جناح، ولشغفه بها، وحسن موقعها منه أمر شعراء حضرته بمجاوبتها، فجاوبها غير واحد)) (٣). وبادر ((السلطان بإعانتهم، وشحن الأساطيل بالمدد إليهم، من المال الصامت والأقوات والكسيّ)) (٤)

---

١ — النفح : ج ٤ ص ٤٥٧—٤٦٠، تاريخ ابن خلدون : ج ٦ ص ٦٠١—٦٠٤ .
٢ — الأدب الأندلسي في عصر الموحدين : ص ١٣٧ .
٣ — النفح : ج ٤ ص ٤٦٠ .
٤ — النفح : ج ٤ ص ٤٦٠، وانظر : مخطوط الحلل السندسية : ورقة ٢٢، البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٤٤ .

وقد صوّر ابن سهل تضايق الإسلام وجرحه واستغاثته بالمسلمين، عندما اشتدّ العدوان على مدينة إشبيلية :-

أضحى الهدى يشكو الظما ولأنتمُ   ظلٌّ وريٌّ كالربيع الممطرِ

الدينُ ناداكم وفوق سروجكمْ   غوثُ الصريخ ونُصرةُ المستنصرِ

لو صُوِّر الإسلامُ شخصاً جاءكمْ   عمداً بنفس الوامق المتحيّرِ

لو أنّه نادى لنصرٍ خصّكمْ   ودعاكمُ : يا أُسرتي يا معشري

ويصوّر الشاعر المسلمين بالخطر الذي كان يمثله الوجود الصليبي على التراث الإسلامي في الأندلس. فقد غيّر الأعداء معالمها الحضاريّة، وأبطلوا سنن النبيّ عليه السلام، وأسكتوا منابر الإسلام :-

كمْ نكّروا من معلمٍ، كم دمّروا   من مشعرٍ، كم غيّروا من مشعرِ

كم أبطلوا سننَ النبيّ وعطّلوا   من حليةِ التوحيدِ ذروةَ منبرِ

ويتوجّه ابن سهل بدعاء مباشر الى المسلمين للخروج إلى جهاد الصليبيين في الأندلس، مبيّناً لهم الأجر الذي أعدّه الله للمجاهدين في سبيله :-

هزّوا معاطفكمْ لسعيٍ تكتسي   فيه ثيابَ مثوبةٍ أو مفخرِ

جدّوا وتمّوا بالجهادِ أجورَكمْ   ما خابَ قصد مشمّر ومشمِّرِ(1)

وقد كان أبو موسى بن هارون قوياً في دعوته إلى الجهاد، مؤثّراً في أسلوبه، صادقاً في عواطفه، عندما وصف مأساة المسلمين في مدينة إشبيلية، ودعا إلى انقاذها من وحشية الصليبيين. فقد اختار الشاعر ممّا حلّ بمدينة إشبيلية مناظر قادرة على تعبئة المشاعر، وحفز الهمم، واستثارة العواطف فصوّر مناظر القتل الجماعي، والضيق النفسي، والأسر ... بعبارات مؤثّرة تأسر الوجدان، وتوغر الصدور(2). ويتخذ أبو موسى من ذلك حافزاً قوياً للاستنجاد بأهل العدوة المغربية، وحثّهم على الجهاد :-

يا أهلَ وادي الحما بالعُدوة انتعشوا   هذا الدّماءُ فقد أشفى به سقمـا

ماذا يبطّئكمْ عنّا وحولكم   إن تبصروا، دارُ قومٍ أصبحت رممـا

وحقُّنا واجبٌ فالدّين يجمعنا   مع الجوارِ الذي ما زال ملتزما

---

1 - ديوان ابن سهل : ص ١٤٠.

2 - انظر : ص ١١٧ - ١١٨ من هذه الدراسة.

*

فتى الجزيرة مما سن أولكم ... فلتثبتوا للهدى في أرضنا قدما (١)

وتتعاون الأبيات معنى ومبنى على إثارة المشاعر، وحفز الهمم. فقد يذكر الشاعر أهل العدوة بواقع الأندلس التي أشفت على الهلاك، وذكرهم بروابط العقيدة والجوار التي تربطهم بالأندلسيين، واستوحى مواقفهم الأولى في الدفاع عن الدين الحنيف في تلك البلاد، ودعاهم إلى مواصلة ذلك.

وقد استغل بعض الشعراء المدح الشخصية لحث الخلفاء والقادة على الجهاد في الأندلس. من ذلك قصيدة لأبي جعفر الوقشي في مدح الخليفة يوسف. وقد خص منها جزءا كبيرا لحثه على الجهاد في الأندلس :—

ألا ليت شعري هل يمد لي المدا ... فأبصر شمل المشركين طريدا

وهل يعد يقضي في النصارى بنصرة ... تغادر رثم للمرهفات حصيدا

ويغزو أبو يعقوب في شنت ياقب ... يعيد عيد الكافرين عميدا

ويلقي على إفرنجهم عبء كلكل ... فيتركهم فوق الصعيد همودا

يغادرهم جرحى وقتلى مبرحا ... ركوعا على وجه الفلا وسجودا

ويفتك من أيدي الطغاة نواعما ... تبدلن من نظم الحجول قيودا (٢)

ويظهر من الأبيات شعور الوقشي بالمرارة من كيد الصليبيين وفظائعهم، مما ملأ قلبه حقدا عليهم. وقد أملى عليه هذا الشعور بدعوة الخليفة يوسف للغزو إليهم وهو في دعوته هذا يظهر اندماجه في الجماعة الإسلامية،حيث يتمنى أن يمتد به العمر لرؤية المسلمين يفتكون بأعدائهم، يثخنون فيهم.. ويفتكون الأسيرات المسلمات من أيديهم.

وقد كان لهذه الدعوات القتالية التي أطلقها الشعراء لجهاد الأعداء، وقع كبير على الأمة : قادة ورعية. فقد استثارت حماستهم، وحفزت هممهم، والهبت مشاعرهم، وبعثتهم يسترخصون الموت، ويقذفون بأنفسهم مجاهدين في سبيل الله ... وذلك ليؤدوا واجبهم المفروض عليهم في صد العدوان عن الحواضر الإسلامية في الأندلس. إلا أن الكتاب بلغ أجله.

---

١ — البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٨٤.

٢ — النفح : ج ٤ ص ٤٧٨.

وقد كانت الحرب النفسيّة موقفا آخر من تلك المواقف التي تمثّلها الشعراء، وأدركوا أهميتها في رفع معنويات الأمّة، ودعم الجبهة الداخليّة . لذلك تمدّوا نقل الأحداث في إطارها المجرد إلى تقديمها في صور مختلفة تبعث على الثقة، وتحقّق أغراض الجماعة الإسلاميّة . ومن هنا أبرز الشعراء قوّة المسلمين، وهدّدوا الأعداء بها، وضخّموا الانتصارات، ومجّدوها، وقدّموها في اطار من التفاؤل والاستبشار، في الوقت الذى هوّلوا فيه هزائم الأعداء، وبالغوا في وصفها، وقدّموها في اطار مثير.

كذلك بذل الشعراء وسعهم في الإزراء بالقيادة الصليبيّة، فوصفوها بصفات تؤدّي إلى خلق حالة من عدم الثقة بها . ويقابل ذلك إشادة عارمة بالقيادة الإسلاميّة ...

أمّا الجيش الصليبي، فقد ألصق الشعراء به صفات مزرية كالجبن، والخوف، والفرار، والغرور .

فقد اصطنع ابن المنخل الشلبي أروع ألفاظ الحرب، وأقدر صورها على إثارة المخيلة، وإشعار المسلمين بالبأس والقوّة، وبالكرامة والعزّة، والشمم والاباء، حين وصف جيش المسلمين، وهدّد القائد الصليبي ابن ريمند، وتوعّده بغزوة في عقر داره :—

فقل لابن ريمند تأهّبْ لغزوة	يَسدّ عليكم جَيْشُها الأفقَ الشّهبا
إذا جُرِّدتْ فيها السيوفُ حَسِبْتَها	جداولَ روضٍ، والرِّماح به قُضْبا
كأنّ نداءَ العدوِّ باخت بأفقِهِ	وقد لفحت هوجُ الرّياحِ به سحبا !
وإن عثرت أعلامُه لمُحاربٍ	جرى دمُه من تحتِها وابلاً سكبا
وإن لقيتْ شِعْباً حوافرُ خيلِهِ	أصارته سَهلاً لا ترى فوقَه هَضْبا
إذا جاوزت دَرْباً إليكم فإنّما	يجوزُ وشيكُ الموت نحوكمُ دَرْبا (١)

وقد أخذت ابن سيّد الاشبيلي ثقة عارمة بالنفس حينما وصف جيش المسلمين، وأبرز قوّته، وهدّد الأعداء به، ودعاهم إلى طلب المبادرة إلى طلب السلم، حقنا لدمائهم من سيوف المسلمين :—

أبلغْ ذوي الشرك والإلحاد قاطبةً	أنْ ما لهم من جنودِ الله من قِبَلِ !
أتاكمُ الجيشُ محفوفا جوانبُه	بالمشرَفيّةِ والخطّيّةِ الذُّبُلِ

١ — المنّ : ج ٢ ص ١٥٤ .

هبّوا إلى السّلم والإسلام ويحكمُ ... لا تحسَبوا دولةَ التّوحيد كالدّولِ
فإن أتيتم حقنتمْ من دمائكُــــمُ ... وإن أبيتمْ فخافوا فجأةَ الأجَــلِ (١)

وقد دفع تفوق المسلمين في معركة السبيكة الشوّاش الشلبي إلى تحذير الأعداء، وتهديدهم، وحثّهم على التسليم، وطلب الأمان :-

تلكَ المخايلُ أغدقتْ وكأنّـــهُ ... فحذارِ من زَجل الرّواعدِ صائـــبِ
تلكَ السيولُ تفوزُ من تَسلو بــهِ ... فاطلب أماناً من عزيزٍ غاضــــبِ

وقد ولّد الظفر السابق مشاعر جامحة في نفس الشوّاش الشلبي، دفعته إلى المبالغة حين تحدّث عن الرّعب الذي دبّ في قلوب الأعداء بعد هذه المعركة :-

وتيقّنَ الأعداءُ أنّ جماعَهـــم ... من بعدِ هذا اليوم نهبُ النّاهــبِ
ما بعد ذا إلاّ مقادةُ صاغـــرٍ ... يلقي يداً أو توبة مِنْ تائـــبِ (٢)

وقد أوحت مظاهر القوّة العسكريّة التي عبرت مع السيّد أبي حفص إلى الأندلس سنة ٥٦٠ هـ إلى ابن حربون بتهديد الأعداء ووعيدهم، وهو تهديد نتنسّم منه قوّة المسلمين، وثقة الشاعر المطلقة بها :-

فالآن قل لذوي الإلحاد شأنكمُ ... فما لكمْ دونَ هذا الأمرِ ملتحَـــدُ
ويبصر العجمُ أنّ العربَ قد زلفَتْ ... على العِرابِ وأنّ الملتقى صَـــدَدُ (٣)

وقد دعا الأمير أبو الربيع الموحّد الصليبيين إلى الإسراع في طلب الأمان من المسلمين، قبل أن تفتك سيوفهم بهم :-

فقُلْ لأهلِ الصليـــبِ حقّـــاً ... إنّهـــم خسِـــروا وخابـــوا
فاطلبوا الأمنَ من إمــــامٍ ... في كفّه النّصحُ والعِقــــابُ (٤)

وقد خصّ الشعراء انتصارات المسلمين، ومجّدوها، وتحدّثوا عنها بلهجة ملؤها الثقة العارمة بالنفس. فقد استهلّ ابن حزمون قصيدته التي قالها في معركة الأرك بأبيات تعبّر عن الفرحة الكبرى بهذا الظفر، والانتشاء به :-

---

١ - المنّ : ج ٢ ص ١٥٨-١٥٩.
٢ - المنّ : ج ٢ ص ٢٠٩.
٣ - المنّ : ج ٢ ص ٢٥٥.
٤ - ديوان الأمير أبي الربيع : ص ٣٥.

حيّتك مطّرة النفـــــس نفحات النصـــر بأندلـــس
غدر الكفّار وما تمّهـــم إنّ الإسلام لفـي عـُـــرس (١)

وظلّت مشاعر الفرح والابتهاج هذه، تغمر القصيدة من أوّلها إلى آخرهـــا.

كذلك، استهل أبو العباس الجراوي القصيدة التي قالها في المعركة السابقـــة بأبيات تضخّم هذا النصر، وتعظّمه، وتصوّر ابتهاج المسلمين به، لذلك فإن البلغـــاء يعجزون عن وصفه، كما يقول (٢).

ولإضفاء هالة من الضخامة على ظفر قصر بلقون، فقد استهل أبو العبّـــاس الجرّاوي قصيدته التّي قالها في هذه المناسبة بمطلع حافل بإيحاءات الفخامة :ـ

أطلعت دين الواحد القهّـــار بالمشرقيّة والقنا الخطّـــار

وللظفر نفسه، فقد جعل الجرّاوي موسى بن نصير وطارق بن زياد يزدريـــان جهودهما لو رأيا ظفر المسلمين في المعركة السابقة :ـ

لو راء موسى ما فعلت وطـــارق زريا بما لهما من الآثـــار (٣)

وقد كان تهويل هزائم الصليبيين واسباغ هالة من الضخامة عليها دأب الشعراء، فقتلاهم يعدّون بالآلاف (٤)، ويساوون بين الأرض لكثرتهم (٥)، بل إنّهم عدد الحصى (٦)، لذلك فإنّ خيول المسلمين لا تضع أقدامها إلاّ على جثثهـــم :ـ

أو أنّها هام الكماة فلم تضـــع إلاّ على خدٍّ صريع مبتكـــى (٧)

والدّمار الذي حلّ بالأعداء في غزوة طليطلة تعجز الروايات عن وصفه :ـ

قد أصليتْ نارها العـــداة وأنجزت بهـــم العـــدات
وعمّهم بالدّمار يـــوم تقصّر عن وصفه الـــرّواة
مشهد لا تزال تُتلـــى آياته وهي بيّنـــات

وانهزام الصليبيين في هذه الغزوة، كان دافعا قويّا للجراوي للإزراء بجندهم، فهم على الرغم من شجاعتهم وقوّتهم لم يقدروا على الثبات أمام قوّة المسلمين :ـ

---

١ ـ المعجب : ص ٣٧١ .
٢ ـ انظر : ص ١٥٣ من هذه الدراسة.
٣ ـ البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٧ .
٤ ـ انظر : ص ١٠٦ من هذه الدراسة.
٥ ـ انظر : ص ١٠٥ من هذه الدراسة.
٦ ـ انظر : ص ١٠٦ من هذه الدراسة.
٧ ـ ديوان الأمير أبي الربيع : ص ٢٨ .

فذلّوا لأمر الله قسـرا	وهم أولو نجدة أبـاة
وفرّقت جمعهم بحـار	أمواجها الخيل والكماة
رأوا لحزب الإله سبقا	والموت حقّت به البهات
فحاولوا منهم انفلاتا	وليس للنائين انفلات (١)

والازراء بالصليبيين وقيادتهم، والاستهانة بأمرهم، والانتقاص من قدرهم بعد أن ذاقوا مرارة الهزائم صوّرها الشعر في أكثر من موضع.

فالصليبيّون يتّسمون بالجهل وسوء التقدير إذ يزينون لأنفسهم قتال المسلمين :ـ

جهل النصارى أنّه الملك الذي	يرث البلاد وعذرهم مقبول
أعنز الجهالة همّ فكيف ألومهم	وعلمت أنّ الطبع ليس يحول (٢)

وهم إذا عزموا على قتال المسلمين يدبّ الرعب في قلوبهم، ولا يجرؤون على ذلك :ـ

يلقى العداة الرعب قبل لقائها	فيزل قبل قتالها أقدامها (٣)

وقد سخر أبو الوليد القسطلي من الصليبيين لأنّهم أسلموا أمرهم لقائد غويّ قادهم إلى المهالك :ـ

نزلوا على طرف البلاد وما دروا	أنّ النزول عن الحياة نزول
وتخيّلوا إسلامهم لغويّهم	ومن الشقاوة ذلك التخييل
هيهات من دون الذى قد أمّلوا	ضرب كما شقّ الرداء طويل (٤)

ويصل الازراء بالصليبيين، والاستهانة بهم، والانتقاص من قدرهم لتقوية معنويات المسلمين، الغاية في قول ابن صاحب الصلاة :ـ

تنوّمهم بيض الخدود نواعم	وتوقظهم سمر القنا والسوابق
كأنّ بهم والسيف يأكل غيرهم	وما جمعوا للنائبات مفارق
فما ولدوا للمسلمين غنائم	وما جمعوا للنائبات طوالق (٥)

---

١ ـ البيان المغرب : ج ٣ ص ٢٠٠ .
٢ ـ البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٨ .
٣ ـ المنّ : ج ٢ ص ٤٦٠ .
٤ ـ زاد المسافر : ص ٥٨ .
٥ ـ المنّ : ج ٢ ص ١٦٧ .

وهم لشدة خوفهم فإنهم يتوهمون وقع سلاح المسلمين، فيهمون بالفرار عن أوطانهم :-

تتوهم الكفار وقع سلاحهم * فتهم عن أوطانهم * بتغرب (١)

وهم تصفر ألوانهم عند رؤية المسلمين :-

وتصفر ألوان العداة كأنما * رموا منك لون الدهر باليرقان (٢)

لذلك فقد دعا أبو الحكم بن رضى البلنسي إلى عدم الاكتراث بهم، فإن مصيرهم القتل بسيوف المسلمين :-

لا تشغلن بهم بالاً فإنهم * لجائع الموت مضروب ومأكول
وسوف يأتينك عن قرب زعيمهم * قسراً على كل حال وهو مذهول (٣)

وهكذا فقد اضطلع الشعر بدور إعلامي هادف في الصراع مع العدو، إلا أنه ينبغي ألا يظن أن الشعراء في مواقفهم السابقة قد حجبوا عن أعين الأمة ما يخفيه المستقبل من أخطار، وضللوا جماعة المسلمين، وأوهموهم أن التغلب على العدو كان أمراً ميسوراً ... وإنما كان الشعراء في الوقت نفسه منذرين، ومحذرين، ومبشرين، ومحرضين، وداعين إلى الأخذ بأسباب القوة لمواجهة هذا العدو. لذلك فإن الموقف التالي الذي اتخذه الشعراء إزاء الصراع هو إيمانهم بأن القوة هي السبيل الوحيد إلى دفع العدوان. وقد كان هذا الموقف نابعاً من مشاهدات الشعراء. ومن هنا تعالت دعواتهم إلى الأخذ بأسباب القوة لمواجهة العدو، دون أن يتركوا أدنى شك في أنهم دعاة قوة.

وقد كانت محاولات الشعراء لاستقطاب طاقات الأمة في مواجهة العدو، ودعواتهم المتتالية إلى الوقوف في وجهه مظهراً من مظاهر القوة التي نادوا بها، ودعوا إليها.

ويستوحي أبو حفص الأغماتي الأثر القائل ((إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن)) حين يعبر عن إيمانه بالقوة سبيلاً إلى قطع دابر العدو :-

---

* - ورد في النص : ((أوطارهم)).
١ - النص : ج ٢ ص ١٧٠.
٢ - المغرب : ج ٢ ص ٢٩.
٣ - النص : ج ٢ ص ٤٢٧.

يزعُ الإلهُ بسطوة السُّلطــــان ... من لا يزعهُ واعظ القـــرآن
واشدد وا اليراعة بالحُســام فإنّـــه * ... برهانُ من يَعمَى عن البُرهــان (١)

وإذ يرى أبو العبّاس الجرّاوي الموحّدين يخضعون أعداءهم بقوّة السلاح ، فإنّـــه أطلق لقلمه العنان بتمجيد القوّة والإشادة بها :—

بسيفكَ نالَ الدّينُ في الشرقِ والغربِ ... ودارت على الأعداءِ دائرةُ الحــربِ
وأذعَنَ نأيٍ واستقامَ معانـــدٌ ... ولانَ* قياداً كلُّ متمنعٍ صَعْـــبِ (٢)

وإيماناً بالقوّة سبيلاً إلى النصر ، فقد دعا ابن حربون الأندلسيين إلى الانضمام للجيوش الموحّدية المجاهدة :—

خذوا بحظّكمُ يا أهلَ أندلسٍ منها ... فما لها أو بها من بعدها رشـدُ
واستمسكوا بعُرَى الأمر الذي بهرت ... آياتهُ كلّ من يهدو ويقتصـــدُ
اليومَ صمّمت الغاوي بأرضكُـــمُ ... والكلبُ ينبحُ ما لم يزأرِ الأسَــدُ (٣)

ويظهر أنّ ابن سيّد الاشبيلي قد تأثّر بالمتنبي لفظاً ومعنى عندما ربط بيـــن تولّي الممالك والقوّة ، حيث قال :—

والملكُ ليسَ بمرسلةٍ قواعــــدهُ ... ما لم يقمْ بينَ أيدي الخيلِ والإبــلِ
تزهى بمُلكِ قديرٍ كلّ مملكـــة * ... ويزدهي ربُّها أنْ عُدّ في الخَـــوَلِ (٤)

وقد قال أبو الحكم بن رضى البلنسي في المعنى نفسه :—

والمُلكُ ليس بشيءٍ يستقِلّ بـــه ... إلا ذووه الصّناديدُ البَهاليـــلُ (٥)

وقد كان ابن الخيل قويّاً في دعوته إلى الأخذ بأسباب القوّة لاقتناعه المطلـــق بأنّها السبيل الوحيد إلى المجـــد :—

---

١ — زاد المسافر : ص ١٤٤ .
* — ورد في البيان المغرب ((لام)) .
٢ — البيان المغرب : ج ٣ ص ١٠٤ .
٣ — المنّ : ج ٢ ص ٢٥٣ .
٤ — المنّ : ج ٢ ص ١٥٨ .
٥ — المنّ : ج ٢ ص ٤٢٦ .

فلا تُقتنى الآمالُ إلّا من القنـا ولا تُكتب العَليا بغير الكتائب

ولا يبلغ الغايات إلّا همّـمٌ على الهَوْل ركّابٌ ظهورَ المصائب (١)

ويؤكّد أبو عمران موسى بن سعيد* إيمانه بالقوّة سبيلا إلى حسم عناد الأعداء، وردّ كيدهم حين يقول : —

تمشّى الركابَ إلى هذا الجناب فقد ضلّوا فما تنفع الآياتُ والنُذُرُ

واعزم كما عزمَ المأمونُ إذْ نشرتْ أرضُ العراق غزالَ البؤسُ والضرر (٢)

ولم ير أبو الربيع الموحّد أنّ ثمّة مجالا للتساهل مع المعتدين، لذلك فقد دعا الخليفةَ المنصور إلى الاحتكام الى السيف في معالجة أمرهم : —

شكت الثغورُ الخطبَ لمّا لم يكن إلّا اليكَ من الخطوبِ المشتكى

وتغامضتْ مهجُ النفوسِ بها إلى حدّ الحسام فلم تشر إلّا لكـا

والسيفُ أعدلُ حاكم، فقضى لهذي أنْ تُصانَ، وهذه أنْ تُسفكـا (٣)

ولعلّ من مظاهر إيمان الشعراء بالقوّة سبيلا إلى النصر تمجيدهم كلّ انتصار يحرزه الموحدون على الخارجين. فقد ربط ابن مغيل مسالمة صاحب صقلية المسلمين، وخضوعه لهم، بانتصارهم على المشاغبين في مدينة قفصه حيث قال : —

ولمّا انقضى الفتحُ الذي كان يُرتجى وأصبح حزبُ الله أغلبَ غالبِ

أشرْنا بأعناقِ الجيادِ إليكُـمُ* وعُجْنا عليكم من صدورِ الركائبِ

ومدّ على رغم الصغارِ لسلمِنا* يديه عظيمُ الرومِ في حالِ راغبِ (٤)

ويرى شاعر مجهول، أن غزو الموحّدين قبيلة رياح وإخضاعهم إيّاها لم يكن إلّا من أجل التفرّغ للجهاد في الأندلس : —

ستلقى بلادُ الرومِ منه حتوفَهـا ويخشى أولي الإلحاد من ذكره جهدُ

*

---

١ — المنّ : ج ٢ ص ٤١٢ .

* — هو أحد مؤلّفي كتاب المغرب، ووالد عبد الملك بن سعيد، توفي سنة ٦٤٠ هـ . انظر : المغرب : ج ١ ص ١ — ٥ .

٢ — النفح : ج ٢ ص ٣٦٥ .

٣ — ديوان أبي الربيع الموحد : ص ٢٨ .

٤ — البيان المغرب : ج ٣ ص ١١٤ — ١١٥ .

وَما كانَ هذا الغزوُ إلاّ مِنَ الحِلمِ فلمّا تجلّى سبحُهُ كُلُّ القصْـــدُ (١)

ولمّا كان الشعراء دعاة قوّة، فقد عملوا جاهدين على حشد القوى الجماعيّة خلف القيادة الإسلاميّة، وتعميق علاقة الولاء العاطفي والعقدي بينها وبين الرعيّة. لذلك تعالت دعوات الشعراء إلى الانقياد للقادة الموحّدين وطاعتهم، ومن ذلك قول ابن سيّد الإشبيلي مخاطبا بعض القبائل العربيّة الخارجة :-

هلاّ اقتدَوا بسُراةِ قيسٍ إنّهـــا جازَتْ بمنسَمِها كريمَ المَنصِـــبِ

تَرْضى إذا رَضيَ الخليفةُ دائمـــا وكذاك إنْ يغْضَبْ لِحقٍّ تغضَـــبِ (٢)

بل، أنّ الايمان لا يكمل إلاّ بطاعة الإمام :-

مَنْ ليس معتقداً إيمان طاعتِكُـــمْ فليس يُغْنيه إيمانٌ وتوحيـــــدُ (٣)

وكسبا لثقة الأمّة المطلقة بالإمام، فقد استوحى بعضُ الشعراء تعاليم الموحّدين في الإمامة، وصوّروا خلفاءهم أئمة معصومين، أمرهم صواب :-

كأنّ الناسَ من خطأ وأنتـــمْ هداةُ اللهُ أمرُكُمُ صــوابُ (٤)

وللهدف نفسه فقد مجّد الشعراء القيادة الإسلاميّة، وأسبغوا عليها الفضائل العربيّة والخلقيّة.

---

١ - المنّ : ج ٢ ص ١٣٣ .

٢ - المنّ : ج ٢ ص ١٦١ .

٣ - البيان المغرب : ج ٢ ص ١٦٥ .

٤ - المنّ : ج ٢ ص ٢٦٤ .

ب) الأداء الفنّي : —

يهدف هذا الحديث إلى تقويم الأداة الفنيّة التي عبّر بها الشعراء عن مضامين قصائدهم. وسنعتمد في هذا التقويم على الدراسة الدّاخلية لشعر الجهاد .

١ — بناء القصيدة : —

عزف الشعراء في قصائدهم الجهاديّة عن المقدّمات الغزليّة والطّلليّة، واستعاضوا عنها بمطالع ترتبط بالجوّ العامّ للقصيدة . فقد استهلّ ابن مجبر قصيدته التّي قالها في معركة الأرك بالإشادة بجهود قائد المعركة في جهاد الأعداء : —

قَضَى حقوق اللّه في أعدائه ثمّ انثنى والنّصرُ تحتَ لوائِه (١)

واستهلّ أبو حفص عمر الأغماتي قصيدته في المعركة السابقة بمطلع قرن فيه الجدّ الإنساني بالتوفيق الإلهي : —

أطاعتْكَ الذوابلُ والشِّفارُ ولبّى أمرَك الفلكُ المُدارُ (٢)

وبدأ أبوعمر الأشيري قصيدته التي قالها في معركة السّبطاط بمطلع يوحي بعنف المعركة، وضراوة القتال : —

دارتْ رحى الهلكات بالسّبّطاط وسطا بها ريبُ الزّمانِ السّاطي (٣)

وافتتح شاعر مجهول قصيدته التي وجهها إلى الأمير الحفصي عندما سقطت بلنسية ببيت يحثّ على الجهاد، ويبيّن الخطر المحدق بالأندلس : —

نادتْك أندلسٌ فلبِّ نداءَها واجْعَلْ طواغيتَ الصليبِ فِداءَها (٤)

واستهل أبو موسى هرون قصيدته التي رثى فيها إشبيلية ببيت حزين منكسر، يعتب فيه على الأيام سوء صنيعها : —

يا حمصُ أقصدَكِ المقدورُ حينَ رَمَى لمْ يرعَ فيكِ الرّدَى إلاّ ولا ذِمَمَا (٥)

---

١ — رفع الحجب المستورة : ج ٢ ص ١٥٥ .
٢ — الغصون اليانعة : ص ٩٦ .
٣ — زاد المسافر : ص ١٠١ .
٤ — النفح : ج ٤ ص ٤٧٩ .
٥ — البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٨٢ .

ولم يشذّ الشعر الجهادي الذي جمعه الدّارس عن هذه السبيل في الاستهلال. ويبدو أنّ لطبيعة الموقف الذي قيلت فيه هذه القصائد دورا أساسيّا في التخلّص من المقدّمات الغزلية. فهذه المقدّمات، وخاصّة المرتبطة بالطلل، يغلب عليها طابع الحزن والهدوء، وهذا الجو الحزين لا يتلاءم مع مظاهر القوّة التي يزخر بها الشعر الحربي.

ثمّ إنّ القصائد الحربيّة غالبا ما كانت تلقى في احتفالات شعبيّة ضخمة (١)، لذلك فإنّ استهلال القصائد بالمقدّمات الطلليّة يفسد الجوّ الحماسي؛ فالجماهير احتشدت لتسمع أناشيد الحرب، لا لتسمع غناء حزينا.

وربّما كان لما عرف عن الخلفاء الموحّدين الأول من ورع وتقوى وحبّ للجهاد أثر في عزوف الشعراء عن مقدّمات الغزل هذه.

كذلك، فقد نادى النقّاد، ومنذ وقت غير قصير، بالتخلّص من المقدمات الطلليّة لأنّها لا تتناسب والتطوّر الحضاري (٢).

وإذا كانت أبعاد قصيدة الحرب هي: جيش، وهجوم، ولقاء، وهزيمة (٣)، فإنّ هذه الأبعاد لم تتحدّد مجتمعة في القصيدة الجهاديّة في عصر الموحّدين. فنحن قد نجد في القصيدة الجهاديّة منظر الجيش مدجّجا بالسلاح يجتاز الدروب نحو العدو، وقليلا ما نجد فيها منظر الهجوم، ولكن كثيرا ما نرى الجيش المعادي منهزما، وقد أثخن المسلمون فيه. أمّا ساعة اللقاء فنحن لا نظفر بها في شعر الجهاد. ونادرا ما نجد تلك المناظر مجتمعة في قصيدة واحدة.

ويرتبط قسم كبير من شعر الجهاد بالمدح. فقد كان القائد هو المحور الأساسي للقصيدة الجهاديّة بحيث تتجمع الأحداث كلّها حوله، ويترك الشاعر للقارئ تخيّل المعركة من خلال حديثه عن دور القائد فيها؛ وبذا تكون القصيدة سلسلة متّصلة الحلقات من مواقف البطولة.

وهذه الطريقة في تصوير الأحداث أفقدتها كثيرا من تفصيلاتها. فالشعراء لم يكن همّهم الولوج في طبيعة كلّ معركة، بقدر ما كان همّهم تصوير البطولة والأبطال. وإن لم يقدّم الشعراء بطريقتهم تلك تفصيلات ضافية عن المعارك، فإنّهم خلّدوا البطولة الإسلاميّة في عهد الموحّدين في أروع صورها.

ضافية

١ — انظر: — النفح: ج ٤ ص ١٧٢، المنّ: ج ٢ ص ١٠٥.
٢ — الشعر والشعراء: ج ١ ص ٢٢.
٣ — شعر الصراع مع الروم: ص ٣٠٧.

وتنتهي القصيدة الجهادية بخاتمة، وهي بضعة أبيات تذيّل بها، وغالبا ماتكون ذات علاقة وثيقة بالجوّ العامّ للأبيات كلّها.

فالقصائد التي يشيع فيها جوّ التفاؤل والاستبشار، غالبا ما تنتهي بالثناء على البطل، والتقدير له، والدعوة إلى الالتفاف حوله، والثقة به، وحثّه على القيام بمزيد من الأعمال الجهادية ضدّ العدوّ. ويظهر ذلك في قصيدة ابن حزمون :—

أَجزيرةَ أندلس اعْتصمِي	بإمامِ الأُمّةِ واحترسِي
رعاكَ حراستَه ملكٌ	جبريلُ له أحدُ الحَرَس
حَكَمتْ أسيافُك سيّدَنا	في كلّ مُصِرِّ الكفرِ مُسِي
ومَضَتْ في الرّوم مضاربُها	وكذلك تفعَلُ في الفُرس
لا يُخلِفُ ربُّك مَوْعِدَه	دَوّخْ أقطارَهُمُ ودُسِ (١)

وقصائد الرّثاء غالبا ما تنتهي بالدعاء للشهيد والترحّم عليه، كما في قصيدة أبي المطرّف بن عميرة في رثاء الكلاعي الشهيد :—

تلقّاكَ ربّي برضْوانِهِ	وجادَك منهُ الحيا الساكبُ
وإنّ الذي نلتَ من قُربِهِ	لأفضلُ ما يَطلبُ الطالبُ
عليكَ السلامُ الى غايةٍ	من الموتِ كلٌّ لها ذاهبُ (٢)

أمّا القصائد التي تصف تحرّكا عسكريا، فغالباً ما تنتهي بتهديد الأعداء ووعيدهم، كما في قصيدة ابن سيّد الاشبيلي في تحرّك سنة ٥٥٥ هـ :—

لا أين يا آلَ الصليب وحزبَه	حتى يعمَّ القتلُ كلَّ مصلِّب
ويورِّث التوحيدُ عزةَ بلادِكم	من بعدِ بحث عنكم وتنقُّب (٣)

وأمّا القصائد التي تمجّد البطولة والقوّة، فغالبا ما تنتهي بالدّعاء للمطل، والإشادة بدوره في حماية الأمّة، كما في قصيدة أبي العبّاس الجراوي في معركة فحص بلقون :—

---

١ — المعجب : ص ٣٧٢ — ٣٧٣.
٢ — صفة جزيرة الأندلس : ص ٣٤، رسائل أبي المطرّف : ورقه ١٩٦ وما بعدها.
٣ — المنّ : ج ٢ ص ١٧٠.

: أخليفةَ المهدي دُمْتَ مؤيَّداً   باللهِ منتقماً مِنَ الكفّارِ
ترمي شياطينَ الأعادي في الوغى   برجومُ خيلٍ من سماءِ غبارِ
روّعْتَ كلَّ مروَّعٍ، وحفظتَ كلَّ مضيَّعٍ، وحميتَ كلَّ ذمارِ(١)

والسمة العامّة لنهايات قصائد الحثّ والاستنجاد، الدّعاء للقائد بالبقاء حتى يظلّ ردءاً للأمة يدافع عنها، كما في قصيدة أبي بكر المخزومي :—

بقيتَ أميرَ المؤمنين مخلّداً   وكلّ الورى عن كُنه وصفك قاصرُ(٢)

أمّا القصائد الحماسيّة التي تختلط فيها الأحداث، وتتحوّل إلى قصيدة مدحيّة، فغالبا ما تكون نهاياتها عبقة بتعاليم ابن تومرت في الإمامة، كما في قصيدة الجراوي في فتح بطليوس :—

ما زال أمرُكم الذي هو عصمةٌ   والعزُّ لا يعدوهُ والتمكينُ(٣)

ويرتبط بناء القصيدة بالإطار الموسيقي، وقد حافظ الشعراء على أوزان الشعر العربي ولم يخرجوا عنها . ويظهر أن طبيعة الموضوع الذي يعبّر عن القوّة جعلت الشعراء يميلون إلى البحور الطويلة في قصائدهم الجهاديّة . فقد وجد الدّارس أنّ البحر الطويل كان أكثر البحور استعمالا في شعر الجهاد، يليه البحر الكامل، ثم البحر البسيط .

ولعلّ شيوع هذه البحور في شعر الجهاد نابع من البنية الإيقاعيّة لها . فهي قادرة على استيعاب انفعالات القوّة، ومشاعر التحدّي التي تولّدها الحروب، كما هي قادرة على تصوير جوّ المعركة وما فيه من جلبة وحركة، كذلك فهي تتسع للموضوعات الجادّة والمواقف الخطيرة(٤). ويجدر التنبيه هنا، أنه لا يوجد روابط ملزمة ما بين موضوع القصيدة وبحرها، وإنّما هي استقراءات داخليّة لشعر الجهاد .

١— البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٧ .
٢— الحلّة السّيراء : ج ٢ ص ٢٦٩ .
٣— البيان المغرب : ج ٣ ص ٨١ .
٤— أصول النقد الأدبي : ص ٣٢٢ — ٣٢٥ ؛ Martial Poetry, pp 461-464

٢ — الصورة الشعريّة :—

من العناصر الرئيسية التي تدخل في بناء القصيدة الصورة الشعريّة، فهي جزء ضروريّ من الطاقة التي تمد الشعر بالحياة، وهي تحمل في حناياها حقائق شعرية تنأى بها عن الزخرف الأدبي، والزينة البلاغيّة، وترتبط ارتباطا وثيقا بالفكر والعاطفة (١).
ولا يعني ارتباط الصورة الشعريّة بالفكر والعاطفة أنّ الصور الشعرية في شعر الجهاد مستوحاة من مناظر الحرب فقط، وإنّما كانت مصادرها متنوعّة، وهنا تتبدّى قدرة الشاعر على إدراك العلاقات بين الأشياء التي قد تبدو متناقضة في الواقع.

فقد تكون الصورة الشعريّة في شعر الجهاد مأخوذة من البيئة الطبيعيّة ومناظرها المختلفة، كما في قول ابن المنخل الشلبي، حيث شبه جيش العدو وهو يتقدّم بكامل أسلحته بالبحر الهائج في التدّفق والسير بسرعة، مع الاندفاع الشديد والإتيان على كلّ ما في طريقه :—

أتوكُم يجرّونَ الحديدَ سوابغـاً   كأنّهمُ البحرُ الغمالط قد عَبَّـا (٢)

وقد شبّه ابن حربون الجيوش الإسلاميّة وهي تتقدّم نحو العدوّ بالجراد في الكثرة والانتشار مع السرعة والنشاط، حيث قال :—

ها أنّها كالدَّبا تنساعُ نحوكمُ   فيها الحفاظُ وفيها الصبّر والجلـدُ (٣)

ويقدّم أبو الوليد القسطلي صورة مشرقة لأحد القادة الموحّدين وقد تقدّم الجيش، حيث شبّهه بالهلال في كبد السماء، وقد أحاطت به النجوم كأنها جند له، يقول :—

أمامَ الخميس الأرجواني كأنّـهُ   هلالٌ تمام والنجوم له جُنْـدُ (٤)

ولعلّه من الممض حقّا أنّ أصداء الطبيعة الأندلسيّة الجميلة كانت خافتة في شعر الجهاد، ولعل هذا يعود إلى أن تلك الطبيعة بصورها الرقيقة لم تكن تناسب مناظر العنف التي يصوّرها شعر حربي، أو أنّ الشعراء انكبوا على تقليد القديم ولم يلتفتوا إلى استيحاء الصور من البيئة المحيطة بهم.

وقد تكون الصورة مستوحاة من حياة الناس وعاداتهم الاجتماعية. فقد قدّم ابن سيد الإشبيلي صورة ساخرة للرعب الذى دبّ في قلوب الأعداء عند رؤيتهم الجيش المسلم، حيث قرن آلامهم النفسية، وتضعضع قواهم، بالآلام التي تعاني منها المرأة عند الوضع، حيث قال :—

---

١ — الشعر والتجربة : ص ٦٧—٦٨، الصورة الفنيّة : ص ١٠
٢ — المنّ : ج ٢ ص ١٥١.
٣ — المنّ : ج ٢ ص ٢٥٦.
٤ — زاد المسافر : ٥٧ .

راعَ الممالكُ فاتّقت بملوكهـــا حتّى كأنّ بها حُبالى تطلـــقُ (١)

وقد صوّر الشوّاش الشلبي انتشاءه بفتك المسلمين بالأعداء، عندما شبّه صـــوت السيف، وقد وقع على رؤوسهم، بنغمات الموسيقى التي تطرب السامعين : —

في حيث صوتُ المَشرفيّ مرجـــعٌ يشدو فتطربُ في الطُّلَى نغماتُـــه (٢)

ومن مصادر الصورة في شعر الجهاد : القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف. فقد استوحى ابن حربون آي الذكر الحكيم عندما قال في جيش المسلمين : —

وجاءَ في سرعان الجيش يقدمُـــه جبريلُ والملأُ الأَعلى له مَـــدَدُ (٣)

وتظهر المعاني القرآنية واضحة في قول أبي العباس الجراوى : —

تَرمي شياطينَ الأعادي في الوغَى برجومِ خيلٍ من سَماءِ غبـــارِ (٤)

ويشبّه أبو الحكم بن رضى البلنسي جيوش المسلمين، وقد هجمت على الأعداء، ففتكت بهم، بالطير الأبابيل التي فتكت بأنصار أبرهة (٥) : —

كأنّ أنصارَهم أنصارُ أبرهـــةٍ ومِنْ رجالاتِكم طيرٌ أبابيـــلُ (٦)

وقد اتكأ ابن حريق المخزومي (٧) على قوله عليه الصلاة والسلام : ((حُفَّـــت الجنّة بالمكاره، وحُفّت النار بالشهوات)) (٨) عندما صور ضجره من مدينة بلنسية : —

---

١ — المنّ : ج ٢ ص ٤٥٤.

٢ — المنّ : ج ٢ ص ٢٦١.

٣ — المنّ : ج ٢ ص ٢٥٤.

٤ — البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٦.

٥ — انظر : سورة الفيـــل.

٦ — المنّ : ج ٢ ص ٤٢٣.

٧ — هو علي بن محمد بن أحمد بن حريق المخزومي، شاعر مفلق، وكاتب بليـــغ، شعره مدون كثير، توفـــي سنة ٦٢٢هـ. انظر : صلة الصلة : ص ١٢٩، الذيل والتكملة : ج ٥ ص ٢٧٥ — ٢٧٦، المغرب : ج ٢ ص ٣١٨.

٨ — مسند ابن حنبل : ج ٢ ص ٣٨٠.

فَقُلْ هي جنّة حُفّتْ رُباهـــا   بمَكروهَين : من جـــوعٍ وحَـــرْبِ (١)

وكان التاريخ القديم مصدرا آخر من مصادر الصورة في شعر الجهاد . فقد استعان أبو العبّاس الجراوي بأيّام العرب في الجاهليّة عندما صور حزن النســاء الصليبيات وجزعهن بعد معركة الأرك : —

حَكَتْ أختَ صخرٍ في الرزايا نساؤهم   كما قدْ حَكَى أبطالُهم في الرّدَى صَخْرا (٢)

ويلتفت أبو الحكم بن رضى البلنسي إلى التاريخ القديم، حين يشبّه رجال البحر المسلمين، وقد ركبوا سفنهم، وظلتهم أشرعتها، بالقيصر المتوّج : —

أو راكبٌ فوقَ متنِ الماء مرتفـقٌ   كأنّه قيصرٌ والقِلْعُ إكْليـــلُ (٣)

وقد تكونُ الصورةُ مستوحاة من التاريخ الإسلامي، كما في قول أبي العبــاس الجراوي : —

وَتشبّ حيثُ توجّهتْ عزماتُـــه   حربا كما وُصِفَتْ لنا صِفّيـــنُ (٤)

هذه بعض الأمثلة التي توضح مصادر الصورة الشعرية في شعر الجهاد . ويلاحظ أنها مستوحاة من مصادر عديدة . فهي من الطبيعة، والحياة الاجتماعية، والقرآن الكريم، والحديث الشريف، والتاريخ القديم . . .

وأهمّ موضوعات الصورة في شعر الجهاد هي : — المعركة ، والهيئة العامّــة للجيش، والخيل ، والأسلحة والمعدّات والتحصينات .

والصورة المتكرّرة للمعركة في شعر الجهاد هي صورة رحى تطحن النّاس ، فتذروهم للرياح ، كما يقول أحد الشعراء : —

ذَرَتْهم فيهِ ريحُ النّصرِ طحْنــاً   غداةَ أدارتِ الهَيْجا رَحاهَـــا (٥)

وقد شبّه ابن المنخّل الشّلبي أثر وقع المعركة على الأعداء، وما يصيرون إليـه إليه من حيرة وارتباك، حتّى أنّهم لا يستطيعون التفكير السليم، بمن يخلل النــاس

---

١ — المغرب : ج ٢ ص ٣٢٠ ، زاد المسافر : ص٣٦ ، الذيل والتكملة : ج ٥ ص ٢٧٧ ، معجم البلدان : مادّة بلنسية .

٢ — شاعر الخلافة الموحّدية : الملحق : ص ٧٠ .

٣ — المنّ : ج ٢ ص ٤٢٣ .

٤ — البيان المغرب : ج ٣ ص ١٨١ .

٥ — المنّ : ج ٢ ص ٢٨٣ .

ويفسد عقولهم، يقول : ـ

أضلّتهمُ البيضُ الصوارم والقنا ‏ فكانتْ لهمْ رقصاً وكانوا لها نصْبا (١)

ولمّا كانت المعركة تهلك القوم فقد شبهت بالكأس المطوفة بالسمّ الثميل : ـ

تُدارُ عليهمُ حمرُ المنايا ‏ بكأسٍ فيه عقْرٌ لا عُقارُ (٢)

والمعركة بكثرة الدماء التي تراق فيها جعلت ابن سيّد الاشبيلي يتصورها رياضا أنبتت زهورا حمراء، يقول : ـ

وجَلا رياضاً للنّواظرِ أطْلعَتْ ‏ فيها الدماءُ أزاهِرا لا تُعبَقُ (٣)

وقد شبّه ابن عيّاش الدّماء الغزيرة بالبحر المتفجّر بجامع القوّة في الاندفاع، يقول : ـ

ويُضحي به بحرُ الدّماءِ مفجّرا ‏ بأسمرَ عسّالٍ وأبيضَ ناصلِ (٤)

وعلى سبيل التهكّم والسخرية شبّه أبو بكر بن المنخّل الشلّبي الطعن والضرب بقرى الضيف وإكرامه : ـ

قروْكُم عِتاقا شزّبا وعواتِقا ‏ بما قَدْ قراهُمْ جيشُكَ الطعنَ والضربا (٥)

ويقارن بعض الشعراء حالة الفرسان، وهم منهمكون في القتال، باللاعبين في ساحة رياضية مبالغة في عدم الاكتراث بأيّ خطر. من ذلك قول ابن سيّد الاشبيلي : ـ

مَرِحٌ بمُعْتَركِ الهياج كأنّه ‏ في ضَنْكِهِ متقلّبٌ في ملعبِ (٦)

وعندما يراد الإشادة بشجاعة البطل المسلم في المعركة، فإنّها تصوّر أمّا حانية عليه، يقول الشوّاش الشلبي : ـ

وكأنّما الهيجاءُ أمٌّ بَرّةٌ ‏ تحنو عليه برفقةٍ ولينِ (٧)

---

١ ـ المنّ : ج ٢ ص ١٥١

٢ ـ الغصون اليانعة : ص ٩٦.

٣ ـ المنّ : ج ٢ ص ٤٥٤.

٤ ـ المنّ : ج ٢ ص ٤١٦.

٥ ـ المنّ : ج ٢ ص ١٥٢.

٦ ـ المنّ : ج ٢ ص ١٦٩.

٧ ـ المنّ : ج ٢ ص ٢٤١.

أمّا الجيش المسلم، فإنّ أغلب الصور التي وردت في شعر الجهاد عنه تـدور حول ضخامته وكثرته. فهو يزحف كالجراد (١)، ويسير كالسحاب (٢)، وهو كالموج الهادر يغرق كل شيء في طريقه (٣)، وكالبحور الواسعة (٤)، أمّا كتائبه حالة الاصطفاف فإنّها تشبه السطور المكتوبة (٥)، والطير ترافقه وتظلّله حتى تحجب الشمس عنه (٦)، وأمّا رجاله فأسود غاب (٧)، وهم كالقداح في الخفّة والنشاط وسرعة الحركة (٨).

أمّا الخيول، فقد شبّهت بالرّماح في الطول والدقّة والضمور (٩)، وبالسهم في السرعة والقوّة والخفّة (١٠)، وبالبرق وأسراب القطا والعقبان في السرعة (١١)، وبالصخرة الساقطة من أعلى الجبل، وبالذئب في السرعة والفتك (١٢)، والفتيات الحسان بالحسن والجمال (١٣)، أمّا صهيلها فهو حنين للقتال (١٤)، وهي تضجر في مرابطها (١٥).

أمّا الرّماح، فهي كالشّهب في التوهّج والقضاء على كلّ ما تقع عليه (١٦)، وقورنت بقدود الحسان اللواتي أضناهن العشق في الطول والاستقامة مع النحالة والضمور، وشبّهت وهي تقطر دما بعيونهنّ الحمراء من كثرة السهر (١٧). وبالعيون الرمداء (١٨)، وكـنّي

---

١ — المنّ: ج ٢ ص ٢٥٦.
٢ — المنّ: ج ٢ ص ٢٠٩.
٣ — البيان المغرب: ج ٣ ص ٢٠٠.
٤ — المنّ: ج ٢ ص ٢٦٣، ص ٤٥٤.
٥ — المنّ: ج ٢ ص ١٦١.
٦ — المنّ: ج ٢ ص ٢٦٣.
٧ — المنّ: ج ٢ ص ١٣٤.
٨ — المنّ: ج ٢ ص ١٥٢.
٩ — المنّ: ج ٢ ص ١٥١.
١٠ — المنّ: ج ٢ ص ١٥١.
١١ — المنّ: ج ٢ ص ٢٠٩، ص ٢٨٣، ص ٤٥٩.
١٢ — المنّ: ج ٢ ص ٢٤٨.
١٣ — المنّ: ج ٢ ص ٢٤٨.
١٤ — المنّ: ج ٢ ص ٢٤٢.
١٥ — ديوان ابن سهل: ص ١٤٠.
١٦ — المنّ: ج ٢ ص ٢٥٦.
١٧ — المنّ: ج ٢ ص ٢٤٨.
١٨ — زاد المسافر: ص ٥٧.

عنها بالأزاهر بجامع الحمرة (١) ، وشبّهت خرصانها بالمقل (٢) ، وحركة اضطرابها واهتزازها عندما تطلق بغصن ترفرف فوقه الطير (٣) ، وأمّا صوت تواليها عندما تطلق فشبّه بالنغم (٤).

وقد شبّهت الدّماء التي لطّخت السيف بالقميص الأحمر ، وبالورود المتفتّحة (٥)، وقورنت وهي تفتك بالأعداء بالأيدي التي تصبّ الشّراب للندامى،فتشملهم ، فيقعون هامدين لا حراك لهم (٦).

وشبّهت الحصون والقلاع بالعذارى المنّعة (٧) ، والسفن وهي تمخر عباب البحر بالزّبد في كثرته وكثافته (٨) ، وبالقباب في هيئتها وشكلها (٩) ،أمّا مجاذيفها فكأنّها الحيّات (١٠).

هذه هي أبرز الصور الشعرية التي وردت في شعر الجهاد ، ويلاحظ أنّ الصور القديمة قد استحوذت على الشعراء الذين قالوا القصائد الجهاديّة . إلاّ أنّ بعضهم لم ينقل هذه الصور كما هي وإنّما ركّبوا منها صورا تبدو جديدة أو كالجديدة . . . ولكنّ هذا قليل ، مثل قول ابن المنخّل الشلبي في قتلى الأعداء : —

وَخرّوا جميعا هامدين كأنّهم ندامى تساقوا بينهم أكوُوسَ الصهبَا (١١)

فحسب الشاّعر القديم أن يقول : أننا سقينا الأعداء كؤوس الخمر (١٢) . إلاّ أنّ ابن المنخّل أخذ هذه الصورة وأضاف إليها لمسات جديدة كما ترى .

---

١ — المنّ : ج ٢ ص ٦١٩ .
٢ — المنّ : ج ٢ ص ٢٥٦ .
٣ — المغرب : ج ١ ص ٤٢٦ .
٤ — المنّ : ج ٢ ص ٢٥٦ .
٥ — المنّ : ج ٢ ص ١٦٧ .
٦ — المنّ : ج ٢ ص ٢٤٤ .
٧ — زاد المسافر : ص ٥٧ .
٨ — المنّ : ج ٢ ص ٢٥٥ .
٩ — المن : ج ٢ ص ٢٥٥ .
١٠ — النفح : ج ٣ ص ٥٦ .
١١ — المنّ : ج ٢ ص ١٥١ .
١٢ — انظر المفضليات : ٣٧٨ .

وقد يجد بعض الشعراء وجه شبه جديد غير الذي أوجده القدماء. فوجه الشبه عند القدماء في تشبيههم الجيش بالسحاب هو الكثرة. إلاّ أنّ الشوّاش الشلّبي أوجد علاقة جديدة : فالسحاب يحمل الماء، والجيش يحمل الهلاك للأعداء : —

كانت على الأعداء سُحبا للرّدى سالتْ دماً بأباطحٍ ومَذانبِ (١)

وقد نجد صورا جديدة ولكنّها بسيطة ساذجة، كقول أبو حريز بن محفوظ بن مرعي الشريف(٢) في اخراج الأعداء من مدينة تدمير : —

نقيت به تدمير من أخلاطها فكأنما شربت دواءً مُسْهِلا (٣)

وقد شبّه الرصافي البلنسي النجوم وقد علت جبل الفتح بالدّنانير في اللمعان والاستدارة : —

تُمسي النجومَ على إكليلِ مَفرقِهِ في الجوّ حائمةً مثلَ الدنانيرِ (٤)

وأغلب الصور الفنّية في شعر الجهاد قائمة على التشبيه بأنواعه، حيث يتجسّم المعنى على هيئة علاقة بين حدّين هما : المشبّه والمشبّه به. وهذه العلاقة غالبا ما كانت علاقة معنويّة يتداخل فيها المثال الذي يطمح إليه الشّاعر بالواقع. ولنأخذ مثالا على ذلك قول ابن المنخّل الشلّبي : —

فقُلْ لابن ريمند تأهّب لغزوةٍ يسدُّ عليكم جيشُها الأفقَ السّهبا

إذا جرّدت فيها السيوفَ حسبتَها جداولَ روضٍ، والرّماح به قُضْبا (٥)

فالعلاقة بين السيوف والجداول، والرّماح والقضب علاقة حسيّة في ظاهرها، فالسيّوف تشبه الجداول في ترقرقها ولمعانها، والرّماح تشبه القضب في سموقها وماذّتها . . . ولكن ينبلج عن هذه العلاقة معنى ((الجمال والكثرة)). وهذا المعنى ليس هو معنى الصورة الواحدة، ولا مجموع الصورتين، وإنّما هو نتيجة لهما. لذلك فإننا نجد في الصوّرة الشّعرية تداخلا بين الحسّ والمعنى وقد ظهر الشكل الحسيّ للصورة في شعر الجهاد على هيئات متعدّدة. وأكثر الأشكال الحسيّة بروزا للصورة في شعر الجهاد هي ((الصّورة البصريّة)) . وأبرز سمة للصّورة البصرية هي

---

١ — المنّ : ج ٢ ص ٢٠٩ .

٢ — انظر زاد المسافر : ص ١٢٣ .

٣ — زاد المسافر : ص ١٢٣ .

٤ — ديوان الرصافي البلنسي : ص ١٣١ .

٥ — المنّ : ج ٢ ص ١٥٤ .

((الحركة)) . فكلّ شيء في شعر الجهاد يصوّر متحرّكا . فالبطل كالأسد في انقضاضه ، والرّمح كالشّهاب ، والجيش كالسحاب ، والفارس كاللاعب ، والخيل كالسهام . . . وحتّى جثث القتلى تصوّر وقد طارت بها النّسور القشاعم . وهذه الحركة أتاحت لبعض القصائد الجهاديّة ضربا من الروح القصصيّة .

أمّا الصّور اللّونيّة التي وردت في شعر الجهاد ، فإنّها تظهر كلف الشعراء بثلاث ظواهر لونية ، هي : — اللون الأحمر ، واللمعان ، واللون الأسود . ولعلّ هذا يعود إلى طبيعة الموضوع الذي يكثر فيه الدم ، ولمعان السيوف ، وبريق الأسنّة ، وقتام المعارك .

وقد نجد في شعر الجهاد صورا تتبدّى فيها المساحات اللّونية بشكل بارز ، كقول ابن مجبر في خيل المنصور : —

فمنْ يَقَقٍ كالطّرس تحسب أنّه ... وإنْ جرّدوه في ملاءةٍ التّفا
وأبلق أعطى اللّيلُ نصفَ اهابه ... وغارَ عليه الصبحُ فاحتبسَ النّصفا
وورد تغشّى جلدَهُ شفقُ الدّجى ... فإذ حازه دلّى له الذيلَ والعرفا
وأشقرَ مجّ الراحَ صرفا أديمُه ... وأصفرَ لم يمسح بها جلده صرفا
وأشهبَ فضيّ الأديم مدثّر ... عليه خطوطٌ غيرُ مفهمةٍ حرفا (١)

فنحن في هذه الأبيات أمام موكب لوني ، فالخيول بيضاء ، بلقاء ، شقراء ، صفراء ، شهباء بلون الفضّة ، ورديّة بلون الشفق .

وقد مزج ابن عيّاش بين الصور الحركيّة واللّونية ، حين شبّه يوم المعركة في إظلامه بليل تهاوت كواكبه ، وذلك لكثرة الغبار وتكاثفه ، وتحرّك السيوف والرّماح اللّامعة فيه : —

ويطلع ليل النقع فيه كواكبا ... من البيض أو مُرهفات المناصل (٢)

والصّور السمعيّة قليلة في شعر الجهاد . ويظهر من الصور التي استقراها الدارس أنّ الشعراء لم يكونوا يقفون عند الأصوات الخافتة ، وإنّما عند الأصوات القويّة .

فزجر الفرسان لخيولهم كأنّه الرّعد ، كما يقول أبو الوليد القسطلي : —

وسحائبٌ فيها السيوفُ بوارقٌ ... والزّجر رعدٌ والخيولُ سيولُ (٣)

---

١ — النفح : ج ٣ ص ٢٣٨ — ٢٣٦ .
٢ — المن : ج ٢ ص ٤١٦ .
٣ — زاد المسافر : ص ٥٨ .

وجلبة المعركة كهدير الرّحا كما يقول أبو العبّاس الجراوى : —

ودارتْ الهيجا عليهم فأصبحوا هشيماً طحينا في مهبّ الصبا يُذْرَا (١)

والصور الذوقية في شعر الجهاد نادرة المنال . وما وجد منها كان في الحديث عن قتلى الاعداء ، حيث شبّه أثر السيوف فيهم بالخمر التي تسكر الشاربين حتّى الثمالة ، أو بالسّمّ القاتل : —

تسقي العداة سِمامَها فكأنّها أيد تصفّقُ للندامى راحَهَا (٢)

والصور الشعريّة في شعر الجهاد غاية في السهولة والبساطة ، فهي في نطاق تجارب النّاس وحياتهم ، أو في حدود ثقافة الشاعر ومعرفته ، فنحن لا نجد فيها إبداعا أو إغرابا أو تعسّفا أو غموضا . ومع ذلك فقد استطاع بعض الشعراء عرض بعض الصور الدقيقة لما يريدون تصويره ، فجاء تصويرهم معبرا على الرّغم من اتكائهم على الشعر الموروث في تقديمها . مثل : تصوير المحارب بالسيف في الميدان بصورة اللّاعب ، وتصوير صهيل الخيل حنينا للقتال ، وتشبيه حركة الرماح باهتزاز الأغصان وقد علتها الطير ، والرايات بالعقبان . . . وهذا يدلّ على قوّة الملاحظة لديهم ، وحسن استغلالهم الصور المختزنة في عقولهم .

---

١ — البيان المغرب : ج ٣ ص ١٩٧ .
٢ — المن : ج ٢ ص ٢٤٤ .

٣ — الاحتذاء والتقليـــــد : —

يستشفّ من التراجم الوفيرة التي أوردها المقّري لمن رحل عن الأندلس إلى المشرق استقرارا ، أو طلبا للعلم والحجّ والسّماع ، ولمن وفد من أهل المشرق على الأندلس من أهل العلم والأدب ، يستشفّ من ذلك مدى الأثر الذى تركه المشرق في الأندلس، ويتبيّن كذلك مدى الصلة التي كانت تربط بينهما (١).

والحقّ أنّ الصلة بين القطرين كانت وثيقة إلى حدّ يستحيل معه الفصل بين فكر مشرقي وفكر مغربي ؛ ذلك أنّ التأثّر والتأثير بين هذين القطرين كان مستمّرا على مدى العصور الإسلاميّة .

وقد كان ولع الأندلسيين بكلّ ما هو مشرقي عظيما ؛ فها هم يسمّون بعض مدنهم بأسماء مشرقيّة ، وها هم يقرنون كثيرا من شعرائهم بأسماء كثير من شعراء المشرق بشكل يستوقف النظر (٢).

وقد كان اهتمام الأندلسيين بالمشارقة وانتاجهم واسعا إلى حدّ ((لو نعق بتلك الآفاق غراب ، أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذباب لجثوا عن ذلك صنما وتلوا ذلك كتابا محكما . . .)) (٣) على حدّ قول ابن بسّام الشنتريني .

والمطّلع على كتب برامج العلماء (٤) التي ألّفها الأندلسيّون تتضح أمامه ((حقيقة الكتب المعتمدة للتدريس المباشر ، فإذا هي مشرقيّة في معظمها)) (٥). وكان على رأس هذه الكتب الدواوين الشعريّة ، وأولّها : ديوانا أبي تمّام والمتنبّي .

---

١ — تاريخ النقد الأدبي في الأندلس : ص ٥٢ .
٢ — المرجع السابق : ص ٤٣ .
٣ — الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ق ١ ج ١ ص ٢ .
٤ — البرنامج : — هو كتاب يسجّل فيه العالم ما قرأه من مؤلفات في مختلف العلوم ، ذاكرا عنوان الكتاب ، واسم مؤلفه ، والشيخ الذى قرأه عليه ، أو تحمله عنه ، وسنده إلى مؤلفه الأوّل . انظر : تاريخ النقد الأدبي في الاندلس : ص ٥٧ .
٥ — تاريخ النقد الأدبي في الأندلس : ص ٦٥ .

أمّا شعر أبي تمّام فقد كان له من الشهرة والاهتمام في الأندلس مقام عظيم. ونقله إلى الأندلس اثنان هم: عثمان بن المثنى النحوى [١]، ومؤمن بن سعيد [٢]. وكان عبد الرّحمن الناصر قد أمر بانتساخ شعر أبي تمام وأحضر جماعة من أدباء الأندلس لتحقيق ذلك [٣].

وأمّا أبو الطيب المتنبّي، فقد طار ذكره وشعره إلى الأندلس، فوضعت فيه الكتب، ولديوانه الشروح، وحاكوه في معانيه وأغراضه [٤]. ولعلّ فيما نقله عبد الواحد المرّاكشي قبسا يوضح مكانة المتنبي عند الأندلسيين، حيث قال :- رأيت عند أبي جعفر الحميرى المؤدّب [٥] ((نسخة من شعر أبي الطيّب قُرئَت عليّ ... فألفيتَها شديدة الصحّة. فقلتُ له : لقد كتبتَها من أصل صحيح وتحرّيتَ في نقلها. فقال لي :- ما يمكن أن يكون في الدنيا أصح أصحّ من الأصل الذى كتبتُ منه. فقلتُ له :- أين وجدته؟ قال :- هو موجود الآن بين أيدينا وعندنا. وكنّا في المسجد في زاوية، فقلتُ له :- أين هو؟ فقال لي :- عن يمينك. فعلمتُ أنّه يريد الشيخ، فقلت :- ما على يميني إلاّ الأستاذ. فقال لي :- هو أصلي، وبإملائه كتبت ...)) [٦].

---

١ - طبقات النحويين : ص ٢٨٨.

٢ - المغرب : ج ١ ص ١٣٢-١٣٣.

٣ - طبقات النحويين : ص ٣٠٦ - ٣٠٧.

٤ - تاريخ النقد الادبي في الأندلس: ص ٢٦٨، عصر سيادة قرطبة : ص ٢٠٦- ٢٠٧.

٥ - توفي سنة ٦٠٨ هـ. المعجب: ص ٣٨٠.

٦ - المعجب: ص ٣٨٠.

وليس الغرض من الحديث السابق الافتراض أنّ شعر الجهاد يجب أن يقلّد شعر المشارقة، وإنّما الغرض منه تحليل ما ظهر في هذا الشعر من محاولات لمحاكاة شعراء المشرق. فقد لفت الدارس أنّ السّمة البارزة في شعر الجهاد هي اتكاؤه على التراث الشعري الموروث، وخاصة شعر أبي تمام والمتنبي، والنسج على منواله، وتقليد صوره، واحتذاء معانيه. وسنورد فيما يلي بعض الشواهد التي توضح ذلك.

يقول أبو العبّاس الجرّاوي من قصيدة قالها في معركة الأرك :—

هوَ الفتحُ أعيا وصفُه النظمَ والنثرا وعمّتْ جميعَ المسلمين به البُشْرَى

وأنجدَ في الدنيا وغارَ حديثُه فَراقتْ به حُسناً وطابَتْ به نَشْرَا (١)

وقارئ هذين البيتين لا يملك إلاّ أنّ يتذكّر أبيات أبي تمّام التالية التي وردت في بائيّته المشهورة :—

فَتحُ الفتوحِ تعالى أن يُحيطَ به نظمٌ من الشعرِ أو نثرٌ من الخُطَبِ

فَتحٌ تفتّح أبوابُ السماءِ لَهُ وتبرزُ الأرضُ في أثوابِها القُشُبِ (٢)

وإذا أوحت الأحداث إلى أبي تمّام بربط انتصار المسلمين في ((عمّورية)) بانتصارهم في معركة ((بدر)) حين قال :—

فبينَ أيّامِكَ اللاتي نُصِرْتَ بِها وبينَ أيّامِ بدرٍ أوثَقُ النَسَبِ

فإنّ أبا العبّاس الجرّاوي قد ربط هزيمة الصليبيين في معركة ((الأرك)) بهزيمة الكفّار يوم بدر حيث قال :—

حَكَى فعلَ ابليسٍ بأصحابِهِ الأُولَى تبرّأ منهمْ حينَ أوردَهم بَدْرَا

وحين يقول أبو العبّاس الجراوي في قائد الروم في قصيدة أخرى :—

طاحَتْ بهِ هفواتُه والماءُ لا بدَّ لَهُ منْ أنْ يفيضَ إذا غَلا (٣)

إنّما يغير على قول أبي تمّام التالي :—

برزَتْ بِهمْ هفواتُ علجِهِمُ وَقدْ يردي الجمالَ تَعَسُّفُ الجَمّالِ (٤)

---

١ — شاعر الخلافة الموحّدية : الملحق، ص ٧ .
٢ — ديوان أبي تمام : ج ١ ص ٤٥—٤٦ .
٣ — شاعر الخلافة الموحّدية : الملحق : ص ٩ .
٤ — ديوان أبي تمام : ج ٣ ص ١٤٠ .

وأخال ان صلة قوية بين قول ابي العبّاس الجراوي :-

مَلِكُ الملوك لقد أنِفْتَ إلى العُلى ونظرتَ من فوقٍ إلى الأقـــدارِ(١)

وبين قول المتنبي التالي في سيف الدولة :-

فيا بحـرَ البحور ولا اورّي ويا ملكَ الملوك ولا أُحاشـي

كأنك ناظر في كلّ قلـبٍ فما يَخْفى عليك محـلّ غاشـي(٢)

ومطلع قصيدة الشوّاش الشلبي التي قالها في معركة السبيكة :-

عزماتُ منصورِ العزائم غالبٍ ضَمِنَتْ فتوحَ مشارقٍ ومغـاربِ(٣)

يذكر بمطلع قصيدة المتنبي التي قالها في ((معركة الحدث)) :-

على قدْرِ أهلِ العزم تأتي العزائمُ وتأتي على قدْرِ الكرام المكـارمُ(٤)

ويبدو أنّ ابن المنخّل الشلبي في بيته التالي :-

وإذا بروقُ المزْنِ لُحْنَ كواذبـاً صَدَقَتْ بروقُ نوالهِ مَنْ شـامَها(٥)

كان ينظر إلى قول أبي تمّـام :-

بأوفاهُم برقاً إذا أخلف السّـنا وأصدقُهم رَعداً إذا كذبَ الرّعـدُ(٦)

وإذا ارتفع أبوحفص عمر السلّمي بممدوحه يعقوب المنصور إلى آفاق سامقـة حـين قـال :-

أدا اعتلاك الذوائبُ والشّفارُ ولبّى أمْرَكَ الفلكُ المـدارُ(٧)

فإنّما ينهل من قول المتنبي التالي في سيف الدولة :-

١- البيان المغرب : ج ٣ ص ٤٧ .
٢- ديوان المتنبّي : ج ١ ص ٢٤٩ .
٣- المنّ : ج ٢ ص ٢٠٨ .
٤- ديوان المتنبّي : ج ٢ ص ٤٠١ .
٥- المنّ : ج ٢ ص ٤٥٨ .
٦- ديوان أبي تمّام : ج ٢ ص ٩٠ .
٧- الغصون اليانعة : ص ٩٦ .

كأنّ القسيَّ العاصياتِ تُطيعُهُ ... هوىً أو بها في غيرِ أنمُلِه زُهْدُ

يكادُ يصيبُ الشيءَ منْ قبلِ رَمْيِهِ ... ويُمكِنُهُ في سهمِهِ المُرسَلِ الرَّدُّ (١)

وحين يقول أبو المطرِّف بن عميرة : —

وَهلْ أذْنَبَ الأبناءُ ذنبَ أبيهمُ ... فصاروا إلى الإخراجِ مِنْ جنّةِ الخُلْدِ (٢)

فإنّما يهتدم قول أبي تمّام التالي : —

صارَ ذنبي كذنبِ آدمَ يا عمـ ... ـرُو فأخرجتُ من جَنّةِ الخلـود (٣)

وقول الشواذ الشلبي التالي في الخليفة يوسف : —

ألِفَ الحروبَ فلم يُخلِّ بعهدِها ... والخِلُّ لا تُنْسَى لهُ حُرماتُـهُ

وإذا تَذكّرها أجدَّ نزاعَــه ... وحنينَه وتواصَلَتْ ذِكراتُــهُ (٤)

قريب جدا من قول المتنبي التالي : —

فلا تبلغاه ما أقولُ فإنّــه ... شجاعٌ متى يُذكرْ له الطعنُ يشْتَقِ (٥)

والأمثلة السابقة ما هي إلا جزء يسير جدا يكشف عن مدى التأثر الجزئي بشعر أبي تمام والمتنبي . إلا أنّ الأمر يتعدّى ذلك إلى الاقتداء المتعمّد المدروس بقصائد كاملة لهذين الشاعرين . . .

فقصيدة ابن سيّد الإشبيلي التي قالها في تحرّك عبد المؤمن سنة ٥٥٥هـ، ومطلعها : —

غمِّرْ عن الشمسِ واستقصِرْ مدى زُحَلِ ... وانظُرْ إلى الجبلِ الراسي على جَبَلِ (٦)

تُذكّر في آن واحد بقصيدتين للمتنبي ، الأولى ومطلعها : —

أعْلَى الممالكِ ما يُبنَى على الأسلِ ... والطعنُ عندَ محبّيهنّ كالقُبَلِ (٧)

والثانية ومطلعها : —

أجابَ دمعي وما الدّاعي سوى طَلَلِ ... دَعَا فلبّاهُ قبلَ الرّكبِ والإبلِ (٨)

---

١ — ديوان المتنبي : ج ١ ص ٢٠٧
٢ — النفح : ج ٢ ص ٣١٥ .
٣ — ديوان أبي تمّام : ج ٤ ص ١٨٤ .
٤ — المنّ : ج ٢ ص ٢٦١ .
٥ — ديوان المتنبي : ج ٢ ص ٣٦٠ .
٦ — المنّ : ج ٢ ص ١٥٦ .
٧ — ديوان المتنبي : ج ٢ ص ٢٨١ .
٨ — ديوان المتنبي : ج ٢ ص ٣٤٨ .

وتأثر ابن سيّد الاشبيلي بهاتين القصيدتين ليس مقصورا على الوزن والقافية، وإنّما تعدّاه إلى بعض الأمور التفصيليّة . . .

فقول ابن سيّد : —

غمّض عن الشمس واستقصر مدى زحلٍ — وانظر إلى الجبل الراسي على جبلِ

أنّى استقرّ له، أنّى استقلّ به — أنّى رأى شخصه العالي ولم يزلِ

يقابله من قول المتنبي : —

ضاق الزّمانُ ووجه الأرض عن ملكٍ — ملء الزمانِ وملء الأعصرِ الأُولِ

وقول ابن سيّد : —

أضحى بكرّته الاسلامُ في جذلٍ — والمشركونَ وأهلُ الكُفرِ في جَدَلِ

يقابله من قول المتنبي : —

فنحنُ في جَذلٍ والرّوم في وجلٍ — والبرُّ في شغلٍ والبحر في خَجَلِ

وهناك الدعوة إلى الأخذ بأسباب القوّة، والإيمان بها سبيلا إلى احتياز الممالك في قصيدة ابن سيّد، حيث يقول : —

والملكُ ليس بمرساةٍ قواعِدُهُ — ما لم يَقُمْ بينَ أيدي الخيلِ والإبلِ

وتزهى بملكٍ قدير كلُّ مملكةٍ — ويزدهي ربّها أنْ عدَّ في الخولِ *

وهذا البيتان لهما صلة قويّة بقول أبي الطيّب : —

أعلى الممالك ما يُبنى على الأسل — والطّعنُ عندَ محبيهن كالقبلِ

وما تقرُّ سيوفٌ في ممالكها — حتى تقلقلَ دهرا قبلُ في القُلَلِ

مثلُ الأمير بغى أمراً فقرّبه — طولُ الرّماحِ وأيدي الخيلِ والإبلِ

ولقد سلخ عبد العزيز بن الطراوه (١) قول المتنبي حين قال : —

واهاً له من غزالٍ ضاعَ في بقرِ — اللثمُ عند هُمُ كالطّعنِ بالأَسَلِ (٢)

وقصيدة أبي بكر بن المنخّل الشلبي التي مطلعها : —

فتحتُمْ بلادَ الشرقِ فاعْتمِدُوا الغرْبَا — فإنّ نسيمَ النّصرِ بالفتحِ قدْ هَبّا (٣)

---

١ — انظر عنه المغرب : ج ١ ص ٤٤٢

٢ — المغرب : ج ١ ص ٤٤٢ .

٣ — المنّ : ج ٢ ص ١٥١ .

ذات صلة وثيقة بقصيدة المتنبي التي مطلعها : —

فَدَيناكَ مِنْ ربعٍ وإنْ زِدْتَنا كَرْبَا ... فإنّكَ كنتَ الشرقَ للشمسِ والغَرْبَا (١)

فقصيدة ابن المنخّل تقتفي خطى قصيدة المتنبي ، فقد اصطنع الشاعر الوزن نفسه ، واللغة نفسها ، واستعار من هذه القصيدة طائفة من الألفاظ والمعاني والأساليب ويظهر ذلك في الأمثلة التالية : —

أضَرتُم إليهِ الخيلَ وهي أجادلٌ ... فسالتْ بكمْ بحراً وطارتْ بكمْ رَكْبَا

أتوكُم يجرّونَ الحديدَ سوابغاً ... كأنهمُ البحرُ الغمالطُ قد عَبَّا

فلو لم تجزها السفنَ نحو عدوِّها ... لجازتْ إليه البحرَ تقطَعُه وثْبَا

فقد سلخ ابن المنخل في الأبيات السابقة قوافي المتنبي في الأبيات التالية : —

نزلنا عن الأكوارِ نَمشِي كرامةً ... لِمَنْ بانَ عنه أن نلمَّ به رَكْبَا

ويُخشَى عبابُ البحرِ وهو مكانه ... فكيفَ بمن يَغشَى البلادَ إذا عَبَّا

ذكرتُ به وصلاً كأنْ لم أفُزْ بهِ ... وعيشاً كأنّي كنتُ أقطَعُهُ وثْبَا

والأمر عند ابن المنخّل يعدو سلخ القوافي إلى انتزاع المعاني . فإذ يقول ابن المنخّل : —

ومن تخِذَ الآسادَ عدّةَ حَرْبِهِ ... أعدَّ مُجاجاتِ الكلومِ له شِرْبَا

فإنّما ينتزع قول أبي الطيّب : —

ومن تكن الأسدُ الضواري جدودَه ... يكن ليلُه صُبْحاً ومطعمُه غَصْبَا

وإذ يقول الأول : —

ولو عَلِمَ الناسُ الخفيّاتِ أمرَه ... لما درسوا صُحفاً ولا صنّفوا كُتبا

فإنّما يغير على قول أبي الطيّب : —

عليمٌ بأسرارِ الدياناتِ واللّغى ... لهُ خطراتٌ تفضحُ الناسَ والكُتُبَا

وقول ابن المنخّل الشلّبي : —

---

١ — ديوان المتنبي : ج ٢ ص ٣٣٥ .

فما أعطت العربُ القيادَ طواعةً ولا أسمحتْ ودّاً، ولا أذعنتْ حُبّا
ولكنْ رأت شهبَ الهدى مستنيرةً فخافتْ رجوماً من أسنّتهِ شُهُبَا

ذو صلة قوّية جدّا في المعنى والصياغة بقول أبي الطيّب : —

ولم تفترقْ عنهُ الأسنّةُ رحمةً ولم تتركِ الشامَ الأعادي له حُبّا
ولكن نفاها عنهُ غير كريمةٍ فريقُ رياحٍ واجهت غصنا رطْبَا

كما يشير قول ابن المنخّل السابق الى قول أبي تمّام : —

أمرّوا العمّري — بحكم السيوفِ وكانتْ أحقّ بفصلِ القضاءْ
وما بالولايةِ إقرارُهمْ ولكن أقرّوا لهُ بالولاءْ (١)

كذلك فانّ قول أبي المنخّل : —

قروكم عتاقا شزّبا وعواتقاً بما قدْ قراهُمْ جيشُك الطعنَ والضّربا

ذو صلة بقول أبي تمّام : —

وما ظفروا بهِ حتّى قراهُمُ قشاعمَ أنسرٍ وضباعَ بيدِ
بطعنٍ في نحورهم مبيدٍ وضربٍ في رؤوسهم عنيدِ (٢)

أمّا البيت التالي من القصيدة : —

بلادٌ قضى فيها الشبابُ مآربي وأبقى لنفسي ما بقيت به إربَا

فيميل الى قول ابن الرّومي : —

وحبّبَ أوطانَ الرجالِ إليهمُ مآرب قضّاها الشباب هنالكا (٣)

ومن القصائد التي تصوّر النزعة الاتباعيّة عند الشعراء الأندلسيين الذين نظموا في الجهاديّات، قصيدة الأصمّ المرواني التي مطلعها : —

ما للعدا جنّةٌ أوقى من الهربِ أينَ المفرُّ وخيلُ اللّهِ في الطلبِ (٤)

والمطلع — كما هو واضح — فيه بالإضافة إلى الوزن والقافية ضخامة مطلع قصيدة أبي تمّام في معركة عموريّة : —

---

١ — ديوان أبي تمّام : ج ٤ ص ١٩٠.
٢ — ديوان أبي تمّام : ج ٤ ص ٥٨.
٣ — ديوان ابن الرومي : ج ٢ ص ١٣٠.
٤ — المنّ : ج ٢ ص ١٦٠ — ١٦٤.

السيفُ أصدقُ أنباءً من الكُتبِ ... في حدّه الحدُّ بين الجدِّ واللعبِ(١)

والجوّ العام لقصيدة الأصمّ المرواني بما فيه من مظاهر الفخامة والضخامة يوحي بالجوّ العام لقصيدة أبي تمام المشار إليها أعلاه .

وتأثر الشاعر اللاحق بالشاعر السابق غير مقصور على الجوّ العام، وإنّما تعدّاه إلى انتزاع المعاني والقوافي بشكل متعمّد . وها هي بعض الأبيات على سبيل المثال : —

ويلبسُ الدينُ غضّا ثوبَ عزّتهِ ... كأنّ أيّام بدرٍ عنه لم تَغِبِ !

سَما إلى الشرقِ الأقصى بهمّته ... دينٌ مُريح وعزمٌ دائم التَعَبِ

ملكٌ إذا ما دَعتْه الحربُ من بُعُدٍ ... طارَ السفين أمامَ الجحفلِ اللّجِبِ

خَفّتْ صقليةٌ جهلاً فوقّرهَـا ... خرقُ الحسامِ وطيشٌ في القَنا السّلبِ

ويقابل هذه الأبيات من قول أبي تمام الأبيات التالية على التوالي : —

فبينَ أيّامكَ اللّاتي نصرتَ بها ... وبينَ أيّام بدرٍ أوثق النّسبِ

بصرتَ بالراحةِ الكُبرى فلم ترها ... تنال إلّا على جسرٍ من التَعَبِ

ولو لمْ يقدْ جحفلا يومَ الوغى لغدا ... من نفسِه وحدها في جحفلٍ لجِبِ

أمانيا سلبتْهُم نجحَ هاجسِها ... ظبى السيوفِ وأطرافُ القَنا السُّلُبِ

وإذا لذّ لأبي تمّام أن يستعير ألفاظ الغزل في وصف حصانة عمّورية ، وما حلّ بها من تدمير على أيدي المسلمين ، فإنّ الأصمّ المرواني نحا هذا النحو في وصف تحصينات العدوّ : —

حتى أناخ بأمّ الشرك مرضعة ... أولادَها طلبا جما على ساغب

حسناءُ يفترُّ للخطّاب مبسَمُها ... عن جوهرِ السيفِ لا عنْ مبسمٍ شنبِ

ومشايعة القدر للممدوح كثيراً ما أشار إليها أبو الطيّب المتنبي . وقد تأثر الشعراء الأندلسيون بفكرة المتنبي هذه ورددوها في شعرهم الجهادي كثيرا . من ذلك قول أبي العبّاس الجراوي في أبي حفص : —

---

١ — ديوان أبي تمّام : ج ١ ص ٤٥ — ٧٣ .

عن أمركم يتصرّفُ الثقـــلانِ   وبنصركم يتعاقب المَلَـــوانِ
وبما يسوءُ عدوّكم ويسرّكـــم   تتحرّكُ الأفلاكُ في الــــدورانِ (١)

والجرّاوي في ذلك القول إنّما يقتدي بقول المتنبي التالي في الوزن والقافيـــة والمعنــى : —

عدوّكَ مذموم بكل لســـانِ   ولو كان من أعدائك القمَـــرانِ

*

فما لك تختارُ القسيّ وإنّمـــا   عن السعدِ يرمى دونك الثقَـــلانِ
وما لك تُعنَى بالأسنّةِ والقَنـــا   وجدُّك طعّانٌ بغيرِ سِنَـــانِ

*

لو الفلكُ الدّوّارُ أبغضتَ سَعْيَهُ   لعوّقه شيءٌ عن الــــدَورانِ (٢)

وقصيدة أبي موسى هرون بن هرون في رثاء إشبيلية ، ومطلعها : —

يا حمصُ أقصَدَكِ المقدورُ حينَ رمَى   لم يرعَ فيكِ الرّدى إلاّ ولا ذِممَـــا (٣)

ذات صلة وثيقة بقصيدة أبي تمّام التي تبدأ بقولـــه : —

أصغَى إلى البينِ مغترّا فلا جَرما   أنّ النوى أسأَرت في قلبه لَمَمَـــا (٤)

والمتشابه بين القصيدتين بعد الوزن والقافية إلى انتزاع الشاعر اللاحـــق لمعاني الشاعر السابق . وها هي بعض الأمثلة التي توضح ذلك : —

يا سائلي عن مُصابِ المسلمين بهـا   أصغِ لتسمعَ أمراً يورثُ الصَمَمَـــا

*

يدعو الوليدُ أباه وهوَ في شُغُـــلٍ   عن الجوابِ بدمعٍ سالَ وانسَجَمَـــا

*

سطا بها الكفرُ إذ قلّ النصيرُ بها   فَمَنْ معزّ بها الإسلامَ ما سَلمَـــا

وهذه يقابلها من قول أبي تمّام : —

أصمّنــي سِرُّهم أيّام فرقتهـــم   هَلْ كنتَ تعرف سِرّا يورثُ الصَمَمَـــا

*

فكادَ شوقيَ يتلو الدّمعَ منسجِما   لو كانَ في الأرضِ شوقٌ فاضَ فانسجَما .

*

---

١ — البيان المغرب : ج ٣ ص ١٠٤
٢ — ديوان المتنبي : ج ٢ ص ٥١٢ — ٥١٥ .
٣ — البيان المغرب : ج ٣ ص ٣٨٢ — ٣٨٤ .
٤ — ديوان أبي تمّام : ج ٣ ص ١٦٥ — ١٧٤ .

ويوم خيزج والألباب طائرة ... لو لم تكن ناصر الإسلام ما سلما

وإذا ألمّ أبو موسى ببعض معاني أبي تمّام في أبياته تلك، فإنّه انتزع قوافيه وبعض عباراته في كثير من الأحيان، وهذه بعض الأمثلة : —

يا حمص أقصدك المقدور حين رمى ... لم يرع فيك الرّدى إلّا ولا ذمما

يا عين فابكي على حمص وقل لها ... منك البكاء إذا ما ترسليه دما *

وقد دعونا فأسمعنا على كثب ... بما قد استنفد القرطاس والقلما *

ويقابل هذه الأبيات الأبيات التالية من قول أبي تمّام : —

كم نفحة لك لم يحفظ تذممها ... لصامت المال لا إلّا ولا ذمما

أضحكت منهم ضباع القاع ضاحية ... بعد العبوس وأبكيت العيون دما *

تركتهم سيرا لو أنّها كتبت ... لم تبق في الأرض قرطاسا ولا قلما *

وقصيدة أبي موسى كذلك ذات صلة وطيدة بقصيدة ابن الرومي في رثاء البصرة، حيث ردّد كثيرا من معانيها، ممّا يدعو إلى القول بأن الشاعر قد اطّلع على القصيدة قبل نظم قصيدته أو على الأقل كان ملمّا بها (١).

وقد أغار ابن الأبّار في قصيدته التي مطلعها : —

ألمّا بأشلاء العلى والمكارم ... تقدّ بأطراف القنى والصوارم (٢)

على بعض معاني أبي تمّام في قصيدته التي مطلعها : —

لئن منّا وصرف الدّهر ليس بنائم ... خزمنا له قسرا بغير خزائم (٣)

والقصيدتان كما هو واضح تتشابهان في الوزن والقافية، علاوة على التشابه في بعض المعاني الذي يظهر فيما يلي : —

فقول ابن الأبّار : —

ألمّا بأشلاء العُلى والمكارم ... تقدّ بأطراف القنا والصّوارم

ذو صلة قويّة بقول أبي تمّام : —

---

١ — انظر ديوان ابن الروميّ : ج ٣ ص ٤١٦ .
٢ — الذيل والتكملة : ج ٤ ص ٩٠—٩٥ .
٣ — ديوان أبي تمام : ج ٤ ص ١٢٦—١٣٦ .

ألمّا فهذا مصرعُ البأس والندى　　وحسبُ البكا ان قلت مصرعُ هاشمِ

إذا فُقِد المفقودُ من آلِ مالكٍ * تقطّع قلبي رحمةً للمُكـــارمِ

وقول ابن الأبار التالي : —

وُعوجا عليها مأربا وحفـاوةً　　مصارع غصّت بالطّلى والجماجـمِ

ينتزعه من قول أبي تمّام : —

فلا تطلبوا أسيافهم في جفونها　　فقد أُسكِنَت بين الطّلى والجماجمِ

وقد استعار ابن الأبّار كثيرا من عبارات أبي تمام وقوافيه ، وألبسها معاني جديدة ، ويظهر ذلك في الأمثلة التالية : —

عظائمُ راموها فخاضُوا لنيلها　　ولا روّع يثنيهم ، صدورَ العظائـمِ

بعيشكِ طارحني الحديثَ عن التي * أُراجع فيها بالدموعِ السواجـمِ

بعيدٌ مداه لا يُشقّ غُبـاره * إذا فاهَ فاغر السحرَ ضربةَ لازمِ

وهذه يقابلها من قول أبي تمام الأبيات التالية : —

وما نكبةٌ فاتَتْ به بعظيمـةٍ　　ولكنّها من أمّهات العظائـمِ

خليلىّ من بعدِ الأسى والجوى قفا * ولا تقفا فيضَ الدموعِ السواجـمِ

أهاشمُ صارَ الدمعُ ضربةَ لازمٍ　　وما كان لولا أنت ضربـةَ لازمِ

ولم يكن احتذاء الشعراء لشعر أبي تمّام والمتنبي مقصورا على محاولاتهم الواعية لتقليد قصائد بعينها ، وإنّما تعدّى ذلك الى التأثر ببعض السمات العامّة لشعرهما الحربيّ .

فهناك الضخامة والجلبة والضوضاء التي عرف بها المتنبي في قصائده الحربيّة . ومن ذا الذي يقرأ الأبيات التالية ولا يتراءى إلى مخيّلته صورا من شعر المتنبي الحربي : —

هيهاتَ من دونِ الذي قد أمّلوا　　ضربٌ كما شقّ الرداءُ طويـلُ

وسحائبٌ فيها السيوفُ بـوارقٌ　　والزجرُ رعدٌ والخيولُ سيـولُ

جيشٌ يجرُّ من الحديدِ مـلاءةً　　زرقاءَ زئيرُها قنا ونصـولُ

وكأنّما بينَ السماءِ وبينَهـا　　للنقعِ سجفٌ بالظُبا مسـدولُ

جَيشٌ بأقصَى المشرقين سَراتُــه   وله بأقصَى المغربيــن تليـــلُ (١)

وهناك التركيز على الخيل التي بنى على حركتها أبو تمّام والمتنبّي قصائدهما الحربيّة .

وهناك التركيز على شخصيّة القائد المسلم. وقد كان الشعراء في هذا المجال أكثر اقترابا إلى أبي تمّام. فقصيدة أبي تمّام الحربية ترتبط بالقائد أكثر من ارتباطها بالجيش عامّة كما هو الحال عند أبي الطيّب (٢).

وإذا أسقط المتنبي المقدّمة الغزليّة من شعره الحربي ، وبدأ قصائده بمقدّمات حماسيّة تتواءم وطبيعة الموقف ، فإنّ الشعراء المغاربة والأندلسيين أغفلوا هذه المقدمة في قصائدهم الجهاديّة ، ونهجوا نهج المتنبي في استهلال القصائد بمقدّمات حماسيّة .

وقد قيل عن أبي الطيّب أنّه تفرّد باستعمال ألفاظ الغزل والنسيب في شعره الحربي ، وأنّه أوّل من فتح هذا الباب. ويقول الثعالبي في ذلك : ((وهو أيضا مما لم يسبق إليه ، وتفرد به ، وأظهر الحذق بحسن النقل ، وأعرب عن جودة التصرّف والتلعب بالكلام)) (٣).

وقد أكثر الشعراء الذين نظموا شعر الجهاد من ألفاظ الغزل والنسيب في أشعارهم ، وهم بذلك يقتفون خطى أبي الطيّب الذي فتح هذا الباب البكر. من ذلك قول ابن صاحب الصلاة في الأعداء : ـ

تنوّمهم بيضُ الخــدودِ نواعمٌ   وتوقظهم سمرُ القنا والسّوابــقُ (٤)

وقول ابن حربون في الرّماح : ـ

تميسُ كما ماستْ قدودٌ نواعــمٌ   تثقّل أعلاما ثدىً نواهـــدُ (٥)

وقول أبي الوليد القسطلي في تحصينات العدوّ : ـ

وعذراءَ من بكر الفتوحِ افتضضتها   وليس لها إلاّ بحكم الوَغا عَقْـــدُ (٦)

وقول ابن مجبـــر : ـ

إذا القضبُ هزّتْها الرّياحُ تذكّروا   قدودَ الحسانِ البيضِ فاعتنقوا القُضُبَا (٧)

---

١ — زاد المسافر : ص ٥٨ .
٢ — شعر الصراع : ص ٣٢٦ .
٣ — يتيمة الدهر : ج ١ ص ٢٠٩ .
٤ — المنّ : ج ٢ ص ١٦٧ .
٥ — المن : ج ٢ ص ٢٤٨ .
٦ — زاد المسافر : ص ٥٧ .
٧ — صفة جزيرة الأندلس : ص ١٠٨ .

يتيمة

ولم يكن تقليد الشعراء المغاربة والأندلسيين في شعرهم الجهادي مقصوراً على احتذاء شعر أبي تمام والمتنبي . فقد ورد في الحديث السابق إشارة أوضحت استفادة أبي بكر بن المنخل الشلبي من معاني ابن الرومي . كما أشير إلى استفادة أبي موسى هرون في قصيدته التي رثى فيها إشبيلية من معاني قصيدة ابن الرومي في رثاء البصرة . كذلك فقد نقل الشواش الشّلبي بعض معاني البحتري وقوافيه وطريقة نظمه في أبياته التالية :ـــ

يَمْضي لأمرِ الله غيرَ مُعرِّجٍ — متوّجها بالنصر ضربةَ لازبِ
*
بسوابقٍ كبوارقٍ ، ومواكبٍ — ككواكبٍ ، وجنائبٍ كجنائبِ
*
يقضي فيُمضي كلَّ حقٍ واجبٍ — إلا إذا أعطى فَفَوق الواجبِ
*
تلقاه آساد الوغى وكماتها — فكأنّما يلقاه سِربُ كواعبِ (١)

وهذه يقابلها من قول البحتري الأبيات التالية :ـــ

وإذا رأيتَ للمهجر ضربةَ لازبٍ — أبداً ، رأيت النصرَ ضربةَ لازبِ
*
بدائعٍ كطرائقٍ ، وخلائقٍ — كخلائقٍ ، وضرائب كضرائبِ
*
ومواهب ((كمبيّةٍ)) ((وهبيّة)) — يوجبْنَ في الإفضال فوق الواجبِ
*
ما كان أحسنَ هذه من وقفةٍ — لو كان ذاكَ السربُ سربَ كواعبِ (٢)

كذلك فانّ قوافي قصيدة أبي الحكم بن رضى البلنسي التي مطلعها :ـــ

سامري وخبيرُ القوم مسؤولٌ — حدّث فقولك مسموعٌ ومقبولُ (٣)

كثيرا ما تذكّر بقوافي قصيدة كعب بن زهير التي مدح فيها سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، ومطلعها :ـــ

بانتْ سعاد فقلبي اليوم متبولُ — متيّمٌ إثرها لم يُفدَ مُكبولُ (٤)

تلك هي بعض الأمثلة التي توضح العلاقة بين الشعر الجهادي في عصر الموحّدين والتراث الشعري الموروث ، وخاصّة شعر أبي تمّام والمتنبي . ولعلّ في تلك الأمثلة دليلا على ما ذهب إليه الدارس ، من اقتداء الشعراء الذين قالوا القصائد

---

١ — المنّ : ج ٢ ص ٢٠٨ — ٢١١ .
٢ — ديوان البحتري : ج ١ ص ١٥٩ — ١٦٠ .
٣ — المنّ : ج ٢ ص ٤٢٢ — ٤٢٨ .
٤ — شرح قصيدة كعب بن زهير : ص ١١ — ٣٧ .

الجهادية بالشعراء السابقين .

وقد وجد الدارس بعد أن استقصى المواضع السابقة، وغيرها من المواضع، أن تأثر الشعراء اللاحقين، الذين عني بنوع خاص من شعرهم، بالشعراء السابقين لم يكن تأثرا عفويا ناجما عن توارد الأفكار أو عن تزاحم المعاني، بسبب ألفة الشعراء لهذا التراث الشعري، وإنما هو احتذاء متعمد، وتقليد مدروس. وهو احتذاء وصل إلى درجة الهيمنة الفكرية على بعض الشعراء، فالأمثلة السابقة لا تترك مجالا للشك في أن بعض الشعراء الذين قالوا القصائد الجاهلية، قد أصروا على صور معينة من الصور القديمة، وكان في أذهانهم قصائد محددة يحتذونها وينظمون على منوالهما . فهل من تعليل لهذه الظاهرة ؟

لقد وُجِدَتْ في هذا العصر دعوة قوية من بعض النقاد إلى الاقتداء بالشعراء، والاستفادة منهم الدربة في أنحاء التصاريف البلاغية، بحجة اختلال الطباع، وتقصير الأفكار (١).

وقد يكون للأسباب النفسية التي تدعو الأجيال اللاحقة إلى الأعجاب بالأجيال السابقة وإنتاجهم دور في ذلك. فهم ينظرون إلى العصور الإسلامية الأولى على أنها المثل الأعلى للحياة الدينية والخلقية، والحجة الأولى لعلوم الدين وبعض فروع الثقافة (٢). بل أن الأندلسيين ينظرون إلى المشارقة — كما رأينا — باعتبارهم أئمة الفصاحة والبيان .

وقد يكون لما ردده النقاد المسلمون من أن الأقدمين قد استهلكوا المعاني، ولم يبق للاحقين من المعاني إلا القليل (٣) أثر في ذلك أيضا . لذا انكب الشعراء على التراث القديم، ينهلون منه، ويرددون معانيه .

وقد تكون ((المشكلة اللغوية)) (٤) عاملا من العوامل التي جعلت الشعراء يحتذون السابقين، ويقتدون بهم. ونقصد بالمشكلة اللغوية ((الازدواج اللغوي)) . فقد ابتعدت في هذا العصر الشقة بين اللغة اليومية ولغة الأدب، فاللغة التي ينظم بها الشاعر في هذه الفترة لم تعد هي اللغة التلقائية التي يفكر ويشعر بها بصور تلقائية، والمثال الواضح على ظاهرة الازدواج اللغوي في الأندلس ((الأزجال)) التي نظمت باللغة العامية الشائعة، لذلك فقد راجت رواجا كبيرا في الأوساط الشعبية الأندلسية (٥).

---

١ — منهاج البلغاء : ص ٢٦—٢٧ .
٢ — ابن سناء الملك : ص ٢٦ .
٣ — تاريخ النقد الادبي عند العرب : ص ١٣٨—١٣٩ .
٤ — ناقش د . عبدالعزيز الأهواني موضوع الازدواج اللغوي في كتابه ((ابن سناء الملك . . .)) ص ١٧ .
٥ — انظر : الزجل في الأندلس : ص ١ — ٥١ .

بل إنّ ((الازدواج اللّغوى)) في الدّولة الموحّدية تعدّى الازدواج بين اللغة العربيّة الفصحى وبين اللهجة العاميّة إلى انتشار اللغة البربريّة على نطاق واسع. فقد لجأ الموحدون — لسبب أو لآخر — إلى اللّغة البربرية وسيلة للاتصال بالجماهير، والتأثير عليها، فالمهدىّ يدرّس بالبربرية ويؤلف بها كتبه في المذهب، ويأمر بالنداء للصلاة بها (١). وعبد المؤمن يكتب لولاته بأن يؤمر الذين يفهمون اللسان البربرىّ، ويتكلّمون به، أن يقرأوا التوحيد بذلك اللسان (٢). و((كانوا لا يقدمون للخطابة والإمامة إلاّ من يحفظ التوحيد باللسان البربرى)) (٣). بل أنّهم يلقون خطبهم على الجند في ساحة القتال باللسان العربيّ تارة، وباللسان البربرىّ تارة أخرى(٤).

فإذا كان الأمر كذلك، فلا بدّ للمتأدّب أن يعيش في دواوين الشعر القديم ليتعلّم منها أساليب التعبير، حتّى يتحوّل بصورة تلقائية حين يكتب أدبا إلى اللّغة العربيّة الفصحى. وهنا قد ينظر بعض الشعراء إلى ما احتوته هذه الدواوين باعتباره مثلا أعلى يجب أن يحتذى في كلّ عمل أدبيّ جديد (٥). والحالة هذه، فإنّ كثيرا من الشعراء لم يكونوا يعبّرون عن أحاسيسهم ومشاعرهم بلغتهم التلقائية. ومن ثمّ لم يعودوا قادرين على التعبير عن الانفعال تعبيرا صادقا حارا أمينا، وذلك لأنّ حرارة الانفعال تخفت في خضم البحث عن وسيلة للتعبير.

أمّا تأثّر الشعراء بشعر أبي تمّام والمتنبيّ بشكل خاص، فيمكن أن يكون مرجعه بالإضافة إلى ما سبق، شهرة هذين الشاعرين اللذين نال شعرهما قدرا كبيرا من العناية من الأندلسيين.

ثم أنّ الصلة واضحة ما بين شعر أبي تمام والمتنبي الذى نظم في مقارعة الدولة البيزنطيّة، وبين شعر الجهاد الذى نظم في جهاد الصليبيين في الأندلس، فكلاهما شعر حماسي.

ثم إنّ ((عنصر الفخامة والضخامة الذى تميّز به شعر أبي تمام وأبي الطيب المتنبي، وبخاصة شعرهما في الحماسة والحرب، كان عنصرا يستهوى كل شاعر لاحق، يبحث عن الإطار اللفظي المناسب لمادّة الحماسة والحرب)) (٦).

---

١ — الاستقصا: ج ٢ ص ٢١٢.
٢ — رسائل موحّدية: ص ٣٩.
٣ — الأمير الشاعر: ص ٥٤.
٤ — المنّ: ج ٢ ص ٥٠١.
٥ — صدى الغزو الصليبي: ص ١٨٨.
٦ — صدى الغزو الصليبي: ص ١٩٠.

ومع ذلك، فإنّ الدارس لا يشك إطلاقا في عواطف الشعراء الذين قالوا القصائد الجهادية. صحيح أنّ اتكاءهم على القديم قد حدّ من انطلاقهم الوجداني، وأبهت من توهّج العاطفة، وهذا ما أطلق عليه حازم القرطاجني (١) اختلال الطباع وتقصير الأفكار (٢)، وهي ظاهرة لاحظها عند شعراء العصر كلّه. إلاّ أنّه كان وراء قصائدهم الجهادية ثروة عاطفية حقّة؛ فما من شك أنّهم ككل أبناء المجتمع الإسلاميّ في عصرهم يريدون الظفر للجيوش الاسلاميّة، وما من شك أيضا أنّهم كانوا يحاولون بشعرهم الإسهام بنصيب أكبر في إثارة العواطف.

وعلى الرغم من محاولات التقليد هذه، فإنّ الشعراء ــ بصورة عامّة ــ لم يصلوا إلى مستوى شعر أبي تمّام والمتنبي الحربي إلاّ نادرا. وهذا لا يعني أنّ كلّ مستمدّ من التراث لا بدّ أن يقع فيما وقع فيه أولئك الشعراء، فالماضي قد يكون مصدر الهام.

---

١ ــ انظر ترجمته في : بغية الوعاة : ص ٢١٤، أزهار الرّياض : ج ٣ ص ١٧٢.

٢ ــ منهاج البلغاء : ص ٢٦ ــ ٢٧.

أثر مقاييس العصر الأدبيّة : ـــ

رمى بعض الدارسين الشعر الأندلسي في عهد الموحّدين بالإغراق في المحسّنات البديعيّة والصناعة اللفظية (١) ، وأخذ و عليه ذلك (٢) ، حتّى بات هذا الشعر كما يقول أحدهم ((عبارة عن كلام فارغ، كلّ ما فيه شقشقة الألفاظ)) (٣) ، ومن ثمّ وسموا هذا العصر ((بانحطاط الأدب)) (٤).

والحقّ أنّ البديع استهوى الشعراء في هذه الفترة ، ودعا النقّاد إلى الأخذ به (٥) ، وعدوه ((قيم الأشعار وقوامها ، وبه يعرف تفاضلها وتباينها . . .)) (٦).

وسينظر الدارس فيما يلي في بعض القصائد الجهاديّة الموزعة على فترات مختلفة، ولشعراء مختلفين ، ليرى مدى تأثّرها بمقاييس العصر الأدبية التي شغفت بالبديع، ومدى صدق الدارسين المحدثين في أحكامهم السابقة على الشعر في عهد الموحّدين .

فقصيدة ابن صاحب الصلاة الباجي التي مطلعها : ـــ

تَلألأَ من نور الخلافة بارقُ أضاءت به الآفاقُ والليلُ غاسقُ

يسيطر عليها البديع بشكل معتدل ، فإنّه لم يرد في أبياتها الثلاثة والأربعين الآستة عشر بيتا ظهرت فيها المحسنات البديعية ، مثل الجناس والطباق في قوله : ـــ

* وإنْ طالت البيداءُ قصّر بعدَها حديثُ الأماني والرجاءُ المرافقُ
* قد انتُخِبوا من نُخبة العرب كلّها شبابٌ وخلقٌ كاملٌ وخلائقُ
* وكرّ إلى نَصْرِ الجزيرة بعدَما أتاهُ مع الركبان ناعٍ وناعقُ
* ولا زال أمرُ الله للدين هاديًا وأنت لدينِ الكفرِ ماحٍ ومَاحِقُ

والمبالغة في قوله : ـــ

* تكادُ الرّبَى تنحطّ عند لقائهِ وتسرعُ نهضاً للقاءِ السّمالقُ
* وخيلٍ تسوقُ الأسدَ فوق متونها وتسبقُ لمحَ البرق والبرقُ خافقُ

---

١ ـــ أبو البقاء الرنّدى : ص ٨٨ .
٢ ـــ الأدب الأندلسي في عصر الموحّدين : ص ١٤٨ .
٣ ـــ هذا رأي الاستاذ هنرى بيرس، وقد نقله الدارس عن كتاب الأمير الشاعر : ص ٢٣٩ .
٤ ـــ زاد المسافر : المقدمة : ص ٦ .
٥ ـــ انظر : تاريخ النقد العربي : ص ٩١ و ص ٣٢٤ ، تاريخ النقد الأدبي في الاندلس : ص ٤٤٨ ، أبا البقاء الرندى : ص ١٠٢ .
٦ ـــ الذخيرة : ق ١ ج ١ ص ٦ .

ص ٦

والموازنة والمقابلة في قوله : —

* أزالَ الرّدى عمّن يلوذ بظلّه ... وبثّ الندى فاسترزقته الخلائق

* ففي ظلّه أمنٌ من الخوف مانعٌ ... وفي كفّه بحرٌ من الجود رازق

* وأسمرَ في كفيه أسمرُ نافذٌ ... وأبيضَ في كفّيه أبيضُ فالق

* تنوّمهم بيضُ الخدودِ نواعمٌ ... وتُوقظُهم سمرُ القنى السّوابق

والتقسيم في قوله : —

ملكتَ قلوبَ الناسِ حُباً ورهبةً ... فدانَ بكَ الصنفان : برٌّ وفاسق

والجمع مع التقسيم في قوله : —

كأنّ بهمْ والسيفُ يأكل فرَّهُمْ ... وما جمعوا للنائبات مُفارق

فما ولدوا للمسلمين غنائم ... وما جمعوا للنائبات طوالق(1)

وقد ورد لابن حربون عدد من القصائد الجهاديّة لم يكن البديع بالظاهرة الواضحة فيها ، ممّا يدلّ على أنّه لم يكن معنيا بتلمّسه في شعره الجهادي ، ومن هذه القصائد قصيدته التي تبدأ بقوله : —

لكمْ بعدَ حمد الله تهدى المحامدُ ... وفي وصف علياكم تصاغ القلائدُ

وهذه القصيدة على طولها لم يظهر فيها إلاّ نزر يسير من المحسّنات البديعيّة ، مثل : الجناس والطباق والمبالغة في قوله : —

* إليكمْ سرَى من شِلبَ ركبٌ كأنّهم ... مطاردُ أوهُمْ للخطوب طرائدُ

* ويكتسبُ الرعد يد منه بسالةً ... وتَعْرِفُ من جدوَى يديه الرواعدُ

* تزيّتْ بزيّ الحبّ فهي سواهمٌ ... وأعينُها حمرُ المآقي سواهدُ

* نزلتَ عجاجَ الموتِ ثمّ تكشّفتْ ... وقد فاز بالنصر الجليدُ المُجالدُ

* وفي خلدي إن كان في العمر مهلة ... عجائب يفنى الدهرُ وهي خوالدُ !

والمقابلة والموازنة في قوله : —

* ويرجعُ عنه جاهلٌ وهو عالمٌ ... ويرجع عنه مُقدِمٌ وهو واجدُ

* أبتْ أن تُرىَ إلاّ وريّانَ صادرٌ ... يفيءُ دماً منها وظمآن وارد

---

١ — المنّ : ج ٢ ص ١٦٤—١٦٨ .

وإيهام التضاد في قوله : —

وسايلْ به تُخبرْك عن عزماتِـــه سوائلُ من ماءِ الحديدِ رواكِـــدُ(١)

وقد جمع الدارس لأبي العباس الجراوي عدة قصائد جهادية، ولم يكن الشاعر في قصائده تلك كلفا بالمحسنات البديعية، وما ورد فيها من هذه المحسنات كان عفو الخاطر، لا يدل على تلمّس واع له. وأكثر قصائده التي يبرز فيها الصبغ البديعي قصيدتـــه التي مطلعها : —

فتحٌ مبين جَلَّ أن يُتَخيَّـــلا جاءَ الزّمانُ به أغرَّ مُحَجَّـــلا (٢)

وهذه القصيدة لم يرد فيها إلا الجناس والمبالغة والتقسيم.

وأما الشاعر أبو الربيع الموحد، فلم يرد في شعره الجهادي من ألوان البديـــع ما يدل على شغفه به. وكذلك فإنه لم يظهر في شعر أبي المطرف بن عميرة الـــذي ولده الصراع من البديع شيء يستحق الذكر، في حين أنه كان مولعا بالصناعة اللفظية في أغراضه الاخرى.

ولم يكن الشّوّاش الشلبي وابن المنخل الشلبي وابن سيد الاشبيلي وأبو بكر بن مجبر — ولكل من هؤلاء عدة قصائد جهادية — معنيين بتزويق شعرهم الجهادي وتنميقه بالمحسنات البديعية.

وقد كان ابن الأبار من أكثر الشعراء الذين تأثروا بمقاييس العصر الأدبيّـــة، التي كان من أبرز مظاهرها الاتجاه إلى البديع. يظهر هذا واضحا في قصيدتـــه التي قالها في معركة أنيشة، حيث جاءت حافلة بضروب المحسنات البديعية، على الرّغم من أنها قيلت في موقف رثاء... ولعل ذلك يعود إلى أن الشاعر قد استقى معانـــي قصيدته من شعر أبي تمام، علاوة على التأثر بمقاييس العصر. وهذه بعض الأمثلـــة على تجنيسات ابن الأبار : —

* وهانَ عليهمْ أن تكونَ لحودُهم	متونَ الرّوابي أو بطونَ التهائـــمِ
* عفا حسنُها إلا بقايا مباسِـــم	يمرُّ علينا وطؤُها بالمناسِـــمِ
* ويا رُبَّ صوّام الهواجرِ واصـــلٍ	هنالك مصرومُ الحياة بصـــارمِ
* سقى اللهُ أشلاءً بسَفح أنيشـــةٍ	سوافحُ تزجيها ثقالُ الغمائـــمِ
* جلائلُ دقّ الصبرُ فيها فلم نُطِقْ	سوى عضِّ أجفانٍ وعضِّ أباهـــمِ

١ — المن : ج ٢ ص ٢٤٥ — ٢٥٠.
٢ — شاعر الخلافة الموحدية : المحلق : ص ٨ — ٩.

*	ومنْ لي بسلوان يحدّ نفّـــرا	بجاثٍ من الأرزاءِ حولي جاثـــــم
*	سعيدٌ صعيدٌ لم ترُمه قـــرارةٌ	وأعظِمْ بها وسطَ العظام الرّمائـــم
*	فعاملُ رمحٍ دُقّ في صَدْرِ عامل	وقائمُ سيفٍ قُدّ في رأس قائـــم
*	بأبدعَ حُسْناً من صحائفهِ التـي	تُسَيِّرها أقلامُه في الأقالـــم

وندرك من الأبيات السّابقة ولع ابن الأبار بالجناس، وهو ولع دفعه إلى التماسه من الألفاظ التماسا واعيا عن طريق الاشتقاق، كما في في : ((مصروم وصارم)) ، و ((جاث وجاثم)) ، و ((أعظم والعظائم)) ، و ((عامل : ما يلي السنان من الرمح ، وعامل : — مشتقة من العمل)) ، و ((قائم : بمعنى مقبض السيف، وقائم : مشتقة من القيام)) ، و ((أقلامه والأقالم)) .

وقد يتأثر ابن الأبّار برسم الكلمة فيدفعه ذلك إلى تلمّس كلمة تماثلها في رسمها وإيقاعها كليّا أو جزئيا ، كما في : ((متون وبطون)) و ((مباسم ومناسم)) ، ((وغض وعض)) ، و ((سعيد وصعيد)) .

والأمثلة السابقة تدلّ على حسّ لغوي دقيق لدى ابن الأبار، كما تدلّ علـــى اهتمامه بالتوائم الصوتي بين الألفاظ، وقد دفعه ذلك الى نوع من التجنيس الحرفـي يقوم على تكرار حرف معين في البيت الواحد . وهذه بعض الأمثلة على ذلك : —

*	ويا بأبي تلك الجسومُ نواحـــلا	بإجرائها نحو الأُجور الجسائـــم
*	تُحَيّي وجوهاً في الجنان وجيهةً	بما لقيتْ حُمرا وجوهَ الملاحـــم

فقد تكررت ((الجيم)) في البيتين السابقين تكرارا غير عاديّ . كما تكرّرت ((العين)) و ((الصاد)) في البيتين التاليين بشكل يلفت النظر : —

*	تفرّدَ بالعلياءِ علماً وسُـــؤددا	وحسبُك من عالٍ على الشّهب عالم
*	ويا ربّ صوّام الهواجرِ واصـــلٍ	هنالك مصرومَ الحياةِ بصـــارم

وصور الطباق والمقابلة كثيرة في قصيدة ابن الأبار كثرة تجنيساته . . . وهنـا تبدو عملية القفز الذهني من معنى الى معنى آخر يقابله . وهذه بعض الأمثلة على ذلك : —

*	تغلغلَ فيها كلُّ أسمرَ ذابـلٍ	فجدّلَ منها كلَّ أبيضَ ناعـــم
	فلا يبعدُ اللهُ الذين تقرّبـــوا	إليه بإهداءِ النفوسِ الكرائـــم
*	وما هي إلاّ غادياتٌ فجائـــعٍ	تعبّرُ عنها رائحاتُ مآتـــم
*	وأعقدُ بالنجمِ المشرّقِ ناظـرى	فيغربُ عنّي ساهراً غيرَ نائـــم

* فها أنا في خوف دهر محارب ... وكنتُ به في أمن دهر مسالم

أخو العزّة القعساء كهلاً ويافعاً ... واكفاؤه ما بين راغٍ وراغم

* له منطق سهل النواصي قريبها ... فإنْ رمتَهُ ألفيتَ صعبَ الشكائم

* تُمدُّ إليها رافعاً يدَ قابلٍ ... أكبّ عليها خافضاً فمَ لاثم (١)

وتشمل القصيدة كذلك على أصناف أخرى من البديع، كالمبالغة، والموازنة والترصيع، والتقسيم...

وهكذا فإن اهتمام الشعراء بالبديع كان نسبيًّا، فهم يتفاوتون في الأخذ به. إلاّ أنّ أغلبهم لم يكن متلمسا له تلمّسا واعيا مقصودا، لذلك لم يكن البديع بالظاهرة السائدة في شعر الجهاد، كما هو الحال في الأغراض الشعرية الأخرى، ويظهر الفرق واضحا ما بين الشعر الحماسي وبين الأغراض الأخرى من حيث الإكثار من البديع، بمقارنة الأشعار التي وردت في كتابي: ((المنّ)) و ((والبيان المغرب))، وكلّهما من الشعر الحماسي، بالأشعار التي وردت في القسم الأندلسي من كتاب ((الخريدة)) أو بالأشعار التي وردت في كتاب ((الغصون اليانعة))، حيث يظهر أثر مقاييس العصر الأدبيّة واضحة في المجموعتين الأخيرتين.

ومن هنا ندرك أن بعض الدارسين المحدثين قد عمّموا في أحكامهم على الشعر في عهد الموحّدين، حينما وصفوه بالإغراق في المحسّنات البديعيّة. فالبديع له مواضع، وأشهر مواضعه الوصف والغزل، في حين أنّ الشعراء ترخّصوا لأنفسهم بالتخلّص منه في الأغراض الحماسية.

وأخال أنّ تحلّل شعر الجهاد من عقال البديع يحتاج إلى تعليل، فربما يعود ذلك إلى ارتباط هذا الشعر بأحداث الصراع الذي يهمّ الأمّة جميعها. فالشعراء لم يبغوا من قصائدهم الحظوة الفنية أو الأعطيات المادّية بقدر ما كانوا يهدفون إلى خدمة الأمّة في صراعها مع العدو. فشعر الجهاد لم يكن موجّها إلى فئة خاصّة أو إلى جمهور معيّن، وإنّما كان موجّها إلى الأمّة جميعا. وقد أشار الدارس في موضع سابق إلى أن الشعراء كانوا يلقون قصائدهم الجهاديّة على مسامع الأشهاد في محافل شعبية تقام خصيصا لذلك. فعندما فتح المسلمون المهدية سنة ٥٥٥ هـ، وجّه عبد المؤمن إلى أهل الأندلس قصيدة يبشرهم بهذا الفتح... وقد أمر السيد أبو يعقوب — أمير المؤمنين فيما بعد — الناس والطلبة بأشبيلية بحفظ هذه القصيدة وسردها على ألسنتهم، فقرئت وتليت ((وارتقيت بها ذوائب المنابر، وأسمع بها الحاضر والبادي بجميع هذه البشائر، وطارت الرّكبان بأبياتها العذبة المبشرة مطارها إلى

---

١ — الذيل والتكملة: ج ٤ ص ٩٠—٩٥، المرقبة العليا: ص ١٢٠ — ١٢٢.

الجهات والعمائر)) (١).

كما بعث عبد المؤمن شعرا إلى أهل الأندلس يخبرهم فيه بنيّته على التوجّه إليهم، لجهاد الصليبيين، وعندما وصل هذا الشعر ((قرئ على المنابر ... وانتسخ الناس والطلبة والموحّدون والعامّة نسخا من الشعر المدرج فحفظوه ...)) (٢).

وهذه الشواهد توضح أنّ الشعر لم يكن محصورا في طبقة معينة، لذلك فإنّ عبّاس الجرّاري لم يصب الحقيقة عندما حصر جمهور الشعر في ((طبقة الدّارسين المتمكنين ... وتضمّ فقهاء وعلماء، من أصحاب الثقافة)) (٣).

ولا شكّ أنّ الإكثار من البديع، والإسراف فيه قد يعمّي معاني الشعر، أو على الأقل يفقدها القدرة على التأثير المباشر، ذلك أنّ الذهن يحتاج إلى وقت لاستيعاب دلالة الزينة البديعيّة، فما بالك إذا كان الشعر موجّها الى الأمّة جميعا؟ لذلك ترخّص الشعراء لأنفسهم في الشعر الجهادي من التخلّص من البديع. ولعلّ ذلك أيضا يفسر انخفاض المستوى الفنّي لبعض القصائد الجهاديّة.

وإذا سلم شعر الجهاد من التزويق والتنميق البديعي، فإنّه لم ينج من المبالغة، وهي ضرب من ضروب المحسنّات البديعيّة المعنويّة، ولعلّ ذلك يعود إلى طبيعة الموقف، وما يكتنفه من أجواء انفعاليّة تدعو إلى المبالغة في الوصف والقول.

---

١ – المنّ: ج ٢ ص ١٢٦.
٢ – المنّ: ج ٢ ص ١٣٥.
٣ – الأمير الشاعر: ص ٢٣٧.

خاتمــــــة :ــ

واكب الشعر الصراع بين الموحّدين والصليبيين في الأندلس، وتابع مراحلــــــه المختلفة، وقدّم صورة أمينة عنه، فهو جهاد إسلاميّ شامل بين المسلمين عامّة، والصليبيين غزاة الديار الإسلاميّة، ومن هنا تلك الروح الإسلاميّة الدافقة التي غمرت هذا الشعــر، وتجلّت في مظاهر مختلفة .

وشعر الجهاد يؤمن بالأواصر القائمة بين العروبة والإسلام، ويقدّر للعــــرب الدور الذي اضطلعوا به في جهاد الصليبيين في الأندلس على عهد الموحّدين .

وقد تغنّى الشعراء ببطولة المجاهدين المسلمين، أمثال : الخليفة عبد المؤمن، والخليفة يوسف، والخليفة المنصور، وغيرهم من القادة الذين أبلوا في جهاد الصليبييـــن، سواء بالاشتراك الفعلي في المعارك، أو بتعبئة الجيوش وتجهيزها .

والبطولة في شعر الجهاد ليست بطولة فرديّة، وإنّما هي بطولة جماعية . فالشعراء لم يصوّروا البطل وحده، وإنما صوروا جماعة المسلمين المجاهدين معــه .

وشعر الجهاد يستوحي المثل الحربيّة والخلقيّة والنفسيّة في المجتمع الموحّدي، ومن ثم فانّ أبرز المعاني في تصوير البطولة، هي : الشجاعة الخارقة، والعقيـــــدة القوية، وسعة العلم، والتقوى . . . .

وحديث الشعراء عن الصليبيين يحطّ من قدرهم، ولكنّه لا يقلّل من خطرهـــــم فقد صوّرهم الشعراء تصويرا يثير الحفيظة، ويحفز الهمم، ويدعو إلى العمل، ويحث علـــى السعي ومضاعفة الجهد، ورأوا أنّه ليست ثمّة مجال للتساهل معهم، وأنّ القوّة هي السبيل الوحيد إلى التغلّب عليهم .

وقد تحدّث الشعراء عن ضخامة جيوش الصليبيين، وكثافة حشودهم، وصوّروا هزائمهم، وبالغوا في وصفها، وقدّموا صورا دمويّة لها . وسخروا من قادتهم سخرية مريرة .

كذلك فقد بصّر الشعراء المسلمين بخطورة الصليبيين على الإسلام وأهله، وصوّروا فظائعهم في البلاد الإسلاميّة، وحثّوا على جهادهم، وإنقاذ البلاد منهم، والتمســـوا كلّ وسيلة تحفز الأمة على قتالهم، وصدّهم عن البلاد .

وكان موقف الشعراء من الخونة والمتعاونين مع العدوّ حازما، فقد جرّدوهم مـــن الفضائل الخلقية وأزروا بهم، وأوغروا الصدور عليهم، وصوّروهم خارجين على الجماعـــة الإسلاميّة، فأباحوا دماءهم .

وقد سجّل الشعراء أحداث الصراع الكبرى . ويمكن أن نستقرئ تلك الأحداث من الشعر بشكل يوازي استقراءها من المصادر التاريخيّـــة .

وشعر الجهاد صورة فذة للانتصارات التي حققها الموحّدون في الأندلس، ولا نرى فيه حديثا عن الهزائم التي منوا بها إبّان قوّتهم.

وشعر الجهاد لا يصوّر المعارك ولا يعطي تفصيلات شافية عنها. إلا أن فيه حديثا عن الجيش المسلم. فقد صوّر الشعراء كثرته، وشجاعته، ودربته وإيمانه بالله.

ولم تظهر المعركة البحريّة في شعر الجهاد ... إلاّ أننا ندرك منه قوّة أسطول الموحّدين وضخامته.

وقدّم الشعر صورا مؤثّرة لمأساة المسلمين في الأندلس، والأحوال النفسيّة لهم، وهم يعانون وطأة العدو، وذلّ الهزائم، بعد أن تضعضع سلطان الموحّدين. وقد أرسل الشعراء قصائدهم تلك ممزوجة بالبكاء، فجاءت انفعالات وجدانية متأججة، تنقل السامع عن حالته.

وقد كثر شعر الاستنجاد واستنهاض الهمم في عصر الموحّدين، والشعراء ينحون فيه إلى التفجّع على ما حلّ بالمسلمين، والتأسّي من تخريب الديار، وقتل الأحياء، والتذكير بقوّة المسلمين، واستلهام ماضيهم العريق.

ويميل شعر الجهاد إلى البحور الطويلة، والعبارات الفخمة، والألفاظ الجزلة، والتراكيب القوّية التّي تنأى عن الزخرف اللفظي، والتنميق البديعي.

وقد استحوذت الصور والأخيلة وطرائق التعبير القديمة على الشعراء الذين قالوا القصائد الجهادية. فهم يتفنّنون بانتصارات المسلمين، ويندبون هزائمهم على الطريقة التي تغنّى بها الأجداد ... وكأنّهم يرون في ذلك صورا من صور الصمود الحضاري أمام الغزو الصليبي (١).

وفي شعر الجهاد روح جماعيّة قويّة. فنحن نسمع فيه صوت الشعراء المسلمين يخوضون المعركة بشعرهم، ويسعون جاهدين إلى شحذ الهمم، وتعبئة الطاقات.

وأخيرا فإنّ شعر الجهاد يكشف عن حال غير حال الجمود والانحطاط اللذين وسم بهما الشعر في عهد الموحّدين ...

وآخر دعواهم أن الحمد لله ربّ العالمين.

---

١ - صدى الغزو الصليبي : ص ٢٣٤.

الفهـــــــــارس

الاعـــــــلام

==============

(أ)

(ب)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

القبائل والطوائف والجماعات

==================

(أ)

(ج)

(ح)

(د)

(ر)

(ز)

(س)

(ط)

(ع)

(ف)

الفاطميّون :- ٥١ .
فرسان القديس يوحنان :- ٤٠ .
فرسان قلعة رباح :- ٣٦ .
فرسان القنطرة :- ٣٦ .

(ق)

القشتاليّون :- ٩ ، ١١٩ .
قيس :- ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ١٣٨ ، ١٨٨ .

(ل)

لمتونة :- ٣ .

(م)

المرابطون :- ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٢٦ ، ٨٧ .
بنو مرين :- ١٢ .
المصامدة :- ٢٢ .
مضر :- ٥١ .
الموحّدون :- في مواضع كثيرة .

(هـ)

هرغة :- ١٢ .
بنو هلال :- ٤٥ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ .
هنتانة :- ١٢ .

(و)

وريكة :- ١٢ .

الأماكــــن والبلدان

============

(أ)

(ب)

(ل)

(م)

(ن)

المصادر والمراجع (*)

أ ــ المخطوطات : ــ

بوجندار : محمد بن مصطفى .

١ ــ الاغتباط بتراجم أعمال الرباط ، الخزانة العامة ، الرباط ، مخطوط رقم ١٢٨٧ د .

الراشدي : محمد بن أحمد بن ناصر .

٢ ــ الحلل السندسية في شأن وهران والجزيرة الأندلسية ، الخزانة العامة ، الرباط ، مخطوط رقم ٢٢٧٣ك .

ابن زاكور : أبو عبد الله محمد بن قاسم .

٣ ــ المعرب المسرع لما تضمنه الأنيس المطرب وروضة النسرين ، الخزانة العامة ، الرباط ، مخطوط رقم ٤٠ ج .

الصفدي : صلاح الدين خليل بن أيبك .

٤ ــ الوافي بالوفيات ، ج ١٣ ، مكتبة بودليان ، أكسفورد ، مخطوط رقم ٢٣ أ ، مجموعة آرش سلد .

٥ ــ الوافي بالوفيات ، ج ١٦ ، مكتبة بودليان ، أكسفورد ، مخطوط رقم ٢٦ أ ، مجموعة آرش سلد .

٦ ــ الوافي بالوفيات ، ج ٢٠ ، مكتبة بودليان ، أكسفورد ، مخطوط رقم ٢٧ أ ، مجموعة آرش سلد .

٧ ــ الوافي بالوفيات ، ج ٢٦ ، مكتبة بودليان ، أكسفورد ، مخطوط رقم ٢٦ أ ، مجموعة آرش سلد .

المخزومي : أبو المطرف أحمد بن عميرة .

٨ ــ الرسائل ، الخزانة العامة ، الرباط ، مخطوط رقم ٢٣٢ك .

ب ــ الكتب المطبوعة : ــ

ابن الأبار القضاعي : أبو عبد الله محمد .

١ ــ اعتاب الكتاب ، تح . صالح الأشتر ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ١٩٦١ .

---

* حسب حروف الهجاء ، بالنسبة الى اسم المؤلف .

٢ــ تحفة القادم (مقتضب) ، انتخبها : أبو اسحق البلفيقي ، نشرة الفريد البستاني في مجلة المشرق ، بيروت ، مجلّد ٤١ ، سنه ١٩٤٩ •

٣ــ التكملة لكتاب الصلة تح • عزّت العطّار الحسيني ، مكتبة الخانجي ومكتبة المثنى ، القاهرة وبغداد ، ١٩٥٥ •

٤ــ الحلّة السيّراء ، تح • حسين مؤنس ، الشركة العربيّة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٣ •

ابراهيم : محمود • •

٥ــ صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ، المكتب الاسلامي ومكتبة الأقصى ، دمشق وعمّان ، ١٩٧١ •

ابن الاثير الجزرى : عزّ الدين أبو الحسن •

٦ــ الكامل في التّاريخ ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٥ ــ ١٩٦٧ •

الادريسي : أبو عبد الله محمّد بن عبد الله •

٧ــ وصف المغرب السودان ومصر والاندلس المشتقّ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، طبعة ليدن ، ١٨٦٤ •

أرسلان : شكيب

٨ــ الحلل السندسيّة في الأخبار والآثار الأندلسيّة ، نشر محمد المهدى الحبابي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ١٩٣٦ •

أشباخ : يوسف

٩ــ تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدّين ، تعريب محمد عبد الله عنان ، مؤسسة الخانجي ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٥٨ •

ابن أبي أصيبعة : موفّق الدين أحمد بن القاسم •

١٠ــ عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء ، تح • نزار رضا ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٥ •

أماري : ميخائيل •

١١ــ المكتبة العربية الصقليّة ، جمعها وحقّقها ميخائيل أمّاري ، ليبسك ، ١٨٥٧ •

أمين : أحمد •

١٢ــ ضحى الاسلام ، ج ٣ ، مكتبة النهضة المصريّة ، القاهرة ، ط٧ ، ١٩٦٤ •

ابن أنس : مالك •

١٣ــ الموطأ ، تح • محمّد فؤاد عبد الباقي ، دار احياء الكتب العربيّة ، القاهرة ، ؟ •

الأهواني : عبد العزيز .
١٤ـ ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٢ .
١٥ ـ الزجل في الاندلس ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٧٢ .
الأوسي : حكمة .
١٦ـ الأدب الأندلسي في عصر الموحدين ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٧٦ .
الأوسي المراكشي : أبو عبد الله محمد بن عبد الملك .
١٧ـ الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة .
* السفر الأول ، تح . محمد بن شريفة ، دار الثقافة ، بيروت ، ؟
* بقية السفر الرابع ، تح . احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٤ .
* السفر الخامس ، تح . احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٥ .
البحتري : أبو عبادة الوليد بن عبيد .
١٨ـ الديوان ، تح . حسن الصيرفي ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
بوجندار : محمد بن مصطفى .
١٩ـ مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح ، مطبعة الجريدة الرسمية ، الرباط ، ١٣٤٥هـ .
بول : ستانلي لين .
٢٠ ـ العرب في أسبانيا ، ترجمة علي الجارم ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٤٤ .
البيذق : أبو بكر الصنهاجي .
٢١ ـ أخبار المهدي ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين ، نشر بعناية ليفي بروفنسال ، باريس ، ١٩٢٨ .
التبريزي : أبو زكريا يحيى بن علي .
٢٢ـ شرح قصيدة كعب بن زهير في النبي صلى الله عليه وسلم ، تح . ف . كرنكو ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ١٩٧١ .
التجاني : أبو عبد الله محمد بن أحمد .
٢٣ـ رحلة التجاني ، كتابة الدولة للمعارف ، تونس ، ١٩٥٨ .
التجيبي المرسي : أبو بحر صفوان بن ادريس .
٢٤ـ زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر ، تح . عبد القادر محداد ، دار الرائد العربي ، بيروت ، ١٩٧١ .

أبو تمّام : حبيب بن أوس .
٢٥ـ ديوان أبي تمّام بشرح التبريزي ، تح . محمد عبدة عزام ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٤ .
ابن تومرت : محمّد .
٢٦ ـ أعز ما يطلب ، دون نشر وتاريخ .
الثعالبي : أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل .
٢٧ـ يتيمة الدهر في محاسن **شعراء أهل العصر ، تح . محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، ١٩٥٦ .**
ابن جبير : أبو الحسين محمّد بن أحمد الكفافي الاندلسى .
٢٨ ـ رحلة ابن جبير ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٩ .
الجراري : عبّاس .
٢٩ـ الأمير الشاعر أبو الربّيع سليمان الموحّد : عصره حياته وشعره ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ١٩٧٤ .
جنّون : عبد الله .
٣٠ ـ ذكريات مشاهير رجال المغرب : أبو حفص عمر ، عدد ٣ ، معهد مولاى الحسن ، تطوان ؟ .
٣١ـ ذكريات مشاهير رجال المغرب : أبو العبّاس الجراوى ، عدد ٦ ، معهد مولاى الحسن تطوان ، ؟ .
٣٢ـ ذكريات مشاهير رجال المغرب : الأمير سليمان الموحدّى ، عدد ١٠ ، معهد مولاى الحسن ، تطوان ، ؟ .
٣٣ـ النبوغ المغربي في الأدب العربي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٦١ .
حتاملة : محمّد عبده .
محنة مسلمي الاندلس عشية سقوط غرناطة وبعدها ، نشر بدعم من الجامعة الاردنية ، مطابع دار الشعب ، عمّان ، ١٩٧٧ .
الحجّي : عبد الرحمن علي .
٣٥ ـ التاريخ الأندلسي من الفتح الاسلامي حتّى سقوط غرناطة ، دار القلم ، بيروت والرياض ، ١٩٧٦ .
ابن حزم : أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي .
٣٦ ـ جمهرة انساب العرب ، تح . عبد السلام هرون ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٢ .
الحموى : أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموى .
٣٧ـ معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٥٥ .

الحميري : محمّد بن عبد المنعم.

٣٨ـ الروض المعطار في خبر الأقطار تح • احسان عباس ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٧٥ •

٣٩ـ صفة جزيرة الاندلس " منتخبة من الروض المعطار " ، تح • ليفي بروفنسال ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٧ •

ابن حنبل : أحمد بن حنبل •

٤٠ ـ المسند ، المكتب الاسلامي ودار صادر ، بيروت ، ؟ •

الحنبلي : أبو الفلاح عبد الحيّ بن العماد الحنبلي •

٤١ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ؟ •

الحوفي : أحمد •

٤٢ـ البطولة والأبطال ، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٧ •

ابن الخطيب : لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن علي ابن أحمد السلماني •

٤٣ـ الاحاطة في أخبار غرناطة ، تح • محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٧٣ •

٤٤ـ أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام •

* ق ٢ ، نشرة ليفي بروفنسال تحت عنوان : " تاريخ أسبانيا الاسلامية " دار المكشوف ، بيروت ، ١٩٥٦ •

* ق ٣ ، تح • أحمد العبادي ومختار الكتاني ، نشر تحت عنوان : " تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط " ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤ •

٤٥ـ رقم الحلل في نظم الدول ، المطبعة العمومية ، تونس ، ١٣١٦ هـ •

ابن خلدون : عبد الرحمن محمد بن خلدون •

٤٦ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر ••• ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٥٩ •

٤٧ـ مقدمة ابن خلدون ، دار الفكر ، بيروت ، ؟ •

ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد •

٤٨ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تح • احسان عباس ، دار صادر بيروت ، ١٩٦٨ ـ ١٩٧٢ •

الداية : محمد رضوان •

٤٩ـ أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٧٦ •

٥٠ ــ تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، دار الأنوار ، بيروت ، ١٩٦٨ .
الدّسوقي : عمر .
٥١ ــ الفتوّة عند العرب أو أحاديث الفروسيّة والمثل العليا ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ط ٣ ، ١٩٥٩ .
الذهبي : الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد .
٥٢ ــ العبر في خبر من غبر ، ج ٤ ، تح . صلاح الدين المنجد ، وزارة الارشاد والأنباء ، الكويت ، ١٩٦٣ .
الرصافي البلنسي : أبو عبد الله محمد بن غالب .
٥٣ ــ الديوان ، تح . احسان عبّاس ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٠ .
الرّعيني الاشبيلي : أبو الحسن علي بن محمّد .
٥٤ ــ برنامج شيوخ الرّعيني ، تح . ابراهيم شبّوح ، المطبعة الهاشميّة ، دمشق ، ١٩٦٢ .
ابن الرومي : أبو الحسن علي بن العبّاس .
٥٥ ــ الدّيوان ، اختيار وتصنيف كامل الكيلاني ، المكتبة التجاريّة الكبرى ، القاهرة ، ؟ .
ابن الزبير : أبو جعفر أحمد بن ابراهيم .
٥٦ ــ صلة الصلة ، تح . ليفي بروفنسال ، الرّباط ، ١٩٣٧ .
الزّبيدي : أبو بكر محمد بن الحسن .
٥٧ ــ طبقات النحويّين واللغويين ، تح . محمد أبو الفضل ابراهيم ، نشر محمّد أمين الخانجي ، القاهرة ، ١٩٥٤ .
سالم : عبد العزيز .
٥٨ ــ المغرب الكبير ، الدّار القوميّة للطباعة والنّشر ، القاهرة ، ١٩٦٦ .
السبتي : محمد بن القاسم الأنصاري .
٥٩ ــ الاخبار عمّا كان بثغر سبتة من سنى الآثار ، تح . عبد الوهاب ابن منصور ، المطبعة الملكيّة ، الرّباط ، ١٩٦٩ .
ابن السرّاج : الوزير محمد بن محمد السرّاج الأندلسي .
٦٠ ــ الحلل السندسيّة في الأخبار التونسيّة ، تح . محمّد الحبيب الهيلة ، الدّار التونسيّة للنشر ، تونس ، ١٩٧٠ .
ابن سعيد الأندلسي : علي بن موسى بن عبد الملك بن سعيد .
٦١ ــ رايات المبرّزين وغايات المتميّزين ، تح . النعمان عبد المتعال القاضي ، لجنة احياء التراث الاسلامي ، القاهرة ، ١٩٧٣ .
٦٢ ــ الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السّابعة ، تح . ابراهيم الأبياري ، دار المعارف ، القاهرة ط ٢ ، ١٩٦٧ .

٦٣ـ المغرب في حلى المغرب ، تح • شوقي ضيف ، دار المعارف، القاهرة ط ٢ ، ١٩٦٤ •
سلّام : محمد زغلول •
٦٤ـ تاريخ النقد العربي من القرن الخامس الى القرن العاشر الهجرى ، دار المعارف ، القاهرة ، ؟ •
ابن سهل : أبو اسحق ابراهيم بن سهل الاشبيلي •
٦٥ ـ الديوان ، تح • احسان عبّاس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٧ •
السّهيلي : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد اللّه •
٦٦ـ الروض الأنف في تفسير ما اشتمل عليه حديث السيرة النبويّة لابن هشام ، مطبعة الجمالية ، مصر ، ١٩١٤ •
السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن •
٦٧ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تح • محمد أمين الخانجي ، مطبعة السعادة ، مصر ١٣٢٦ هـ •
الشآيب : أحمد •
٦٨ـ أصول النقد الأدبي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ٥ ، ١٩٥٥ •
الشّنتيريني : أبو الحسن علي بن بسّام •
٦٩ـ الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ج ١ ق ١ ، جامعة فؤاد الأوّل ، كليّة الآداب ، القاهرة ، ١٩٣٩ •
ابن صاحب الصلاة الباجي : عبد الملك بن محمد بن أحمد •
٧٠ـ المنّ بالامامة على المستضعفين بأن جعلهم اللّه أئمة وجعلهم الوارثين ، ج ٢، تح • عبد الهادى التازى ، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٦٤ •
الصحراوى : عبد القادر •
٧١ـ جولات في تاريخ المغرب ، دار الكتاب ، الدّار البيضاء ، ١٩٦١ •
الضبّي : أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبّي •
٧٢ـ بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، دار الكاتب العربي ، القاهرة ، ١٩٦٧ •
ضيف : شوقي •
٧٣ـ البطولة في الشعر العربي ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٠ •

عاشور : سعيد .
٧٤- أوربا العصور الوسطى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٦٢ .
عباس : احسان .
٧٥- تاريخ الأدب الأندلسي : عصر سيادة قرطبة ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٠ .
٧٦- تاريخ النقد الأدبي عند العرب من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري ، دار الأمانة ومؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٧١ .
عبد الرحمن : نصرت .
٧٧- شعر الصراع مع الروم في ضوء التاريخ (العصر العباسي حتى نهاية القرن الرابع) ، مكتبة الأقصى ، عمان ، ١٩٧٧ .
٧٨- الصورة الفنية في الشعر الجاهلي في ضوء النقد الأدبي الحديث ، مكتبة الأقصى ، عمان ، ١٩٧٦ .
ابن عذارى : أبو عبد الله محمد بن عذارى المراكشي .
٧٩- البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب ، ق ٣ ، عني بنشرة امبروسي هويسي مراندة مع مساهمة محمد بن تاويت ومحمد الكتاني ، معهد مولاى الحسن ، تطوان ، ١٩٦٠ .
ابن عساكر : علي بن الحسن بن هبة الله .
٨٠- تهذيب ابن عساكر ، هذبه ورتبه الشيخ عبد القادر بن بدران ، دمشق ، ١٣٣٠هـ .
عفيفي : أبو العلاء .
٨١- الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٤٥ .
علام : عبد الله علي .
٨٢- الدولة الموحدية بالمغرب في عهد المؤمن بن علي ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٨ .
عنان : محمد عبد الله .
٨٣- عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٤ .
٨٤- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، مطبعة مصر ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٥٨ .
الغبريني : أبو العباس أحمد بن عبد الله .
٨٥ - عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء من المائة السابعة ببجاية ، تح . عادل نويهض ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٩ .

الغرناطي : أبو القاسم محمّد بن أحمد ٠

٨٦ـ رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٣٤٤ هـ٠

الفاسي : علي بن أبي زرع٠

٨٧ـ الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرّباط ، ١٩٧٢٠

٨٨ـ الذخيرة السنيّة في تاريخ الدولة المرينيّة ، دار المنصور للطباعة والوراقه ، الرّباط ، ١٩٧٢٠

الفاسي : محمّد ٠

٨٩ـ شاعر الخلافة الموحّدية أبو العبّاس الجراوي ، مطبوعات جمعية قدماء تلاميذ مدرسة جسّوس ، الرّباط ، ١٩٥٢٠

أبو الفداء : عماد الدين اسماعيل بن محمّد بن عمر٠

٩٠ـ تقويم البلدان ، تصحيح زينرد رماك كوكين ديسلان ، باريس ، دار الطباعة السلطانية ، ١٨٤٠٠

ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم٠

٩١ـ الشعر والشعراء ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦٤٠

القرطاجنّي : أبو الحسن حازم بن محمد ٠

٩٢ـ منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تح ٠ محمّد الحبيب أبو الخوجة ، دار الكتب الشرقيّة ، تونس ، ١٩٦٦٠

ابن القطّان : أبو علي حسن بن أبي الحسن الكتامي ٠

٩٣ـ نظم الجمان ، ج ٦ تح ٠ محمود علي مكّي ، جامعة محمد الخامس ، الرّباط ، ؟٠

القفطي : جمال الدين أبو الحسن علي ٠

٩٤ ـ تاريخ الحكماء وهو المسمّى (أخبار **العلماء بأخبار الحكماء**) مكتبة المثنى ومكتبة الخانجي ، بغداد والقاهرة ، ؟٠

ابن القنفذ القسنطيني ، أبو العباس أحمد بن حسين ٠

٩٥ـ الفارسية في مبادئ الدولة الحفصيّة تح ٠ محمد الشاذلي ، وعبد المجيد التركي ، الدار التونسيّة ، تونس ، ١٩٦٨٠

ابن القيم الجوزيّة : شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ٠

٩٦ـ الفروسيّة ، تح ٠ عزّت العطّار الحسيني ، دار الكتب العلميّة ، بيروت ، ؟٠

كتّاب الدولة المومنيّة :

٩٧ـ مجموع رسائل موحّديّة من انشاء كتّاب الدولة المومنيّة ، بجمعها ليفي بروفنسال ، المطبعة الاقتصادية ، رباط الفتح ، ١٩٤١٠

الكتبي : محمد بن شاكر .
٩٨ــ فوات الوفيات ، تح . محمد محيي الدين عبد الحميد ، مكتبة النهضة ، مصر ، ١٩٥١ .
ابن كثير : عماد الدين الدين اسماعيل بن عمر .
٩٩ــ البداية والنهاية ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٩٣٢ .
الكلبي : محمد بن أحمد بن محمد بن جزي .
١٠٠ــ التسهيل لعلوم التنزيل ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ١٣٥٥هـ .
المتنبي : أبو الطيب أحمد بن الحسين .
١٠١ــ ديوان المتنبي ، شرح اليازجي ، المطبعة الأدبية ، بيروت ، ١٣٠٥هـ .
مجهول :
١٠٢ــ الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، اعتنى بنشرة وتصحيحه ى . س . علوش ، المطبعة الاقتصادية ، رباط الفتح ١٩٣٦ .
المراكشي : عباس بن ابراهيم .
١٠٣ــ الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ، المطبعة الجديدة ، فاس ، ١٩٣٦ .
المراكشي : محيي الدين عبد الواحد بن علي المراكشي .
١٠٤ــ المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تح . محمد سعيد العريان ، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٢ .
المفضل الضبي : المفضل بن محمد بن يعلى بن عامر .
١٠٥ــ المفضليات ، تح . عبد السلام هرون وأحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ، ط ٤ ، ١٩٦٤ .
المقري التلمساني : شهاب الدين أحمد بن محمد .
١٠٦ــ أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ، تح . مصطفى السقا وآخرين ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٣ .
١٠٧ــ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب تح . احسان عباس ، دار صادر بيروت ، ١٩٦٨ .
المقريزي : تقي الدين احمد ابن علي .
١٠٨ــ السلوك لمعرفة دول الملوك تح . مصطفى زيادة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٢ .
مكليش : أرشيبالد .
١٠٩ــ الشعر والتجربة ، ترجمة سلمى الخضراء الجيوسي ، مراجعة توفيق صايغ ، دار اليقظة العربية ، بيروت ، ١٩٦٣ .

ملّين : محمد الرّشيد .
١١٠ـ عصر المنصور الموحّدي أو الحياة السياسيّة والفكريّة والدينية في المغرب من ٥٨٠ الى ٥٩٥ هـ ، مطبعة الشمال الافريقي ، الرّباط ؟ .
ابن منصور : عبد الوهاب .
١١١ـ قبائل المغرب ، المطبعة الملكية ، الرباط ، ١٩٦٨ .
ابن منظور : جمال الدين محمد .
١١٢ـ لسان العرب ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ، ١٩٦٨ .
المنّوني : محمّد .
١١٣ـ العلوم والفنون والآداب على عهد الموحدين ، معهد مولاى الحسن ، تطوان ، ١٩٥٠ .
الموحّد : الأمير أبو الرّبيع سليمان بن عبد الله الموحّد .
١١٣ـ الديّوان ، تح . محمد بن تاويت الطنجي وآخرين ، منشورات كلية الآداب جامعة محمد الخامس ، الرباط ، ؟ .
النّاصري : أبو العبّاس أحمد بن خالد السلاوي .
١١٤ـ الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، تح . ولدى المؤلف : جعفر ومحمد ، مطبعة دار الكتاب ، الدّار البيضاء ، ١٩٥٤ .
١١٥ـ زهر الأفنان من حديقة أبي الوّزان ، طبعة حجريّة .
النباهي المالقي : أبو الحسن علي بن عبد اللّه .
١١٦ـ المرقبة العليا فيمن يستحقّ القضاء والفتيا ، المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ؟ .
النجاّر : عبد الـــوهاب .
١١٧ـ قصص الأنبياء مؤسسة الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ١٩٣٦ .
الواقدي : أبو محمد عبد الله بن عمر .
١١٨ـ فتوح افريقية ، مكتبة المنار ، تونس ، ١٩٦٦ .

جـ ـ المجـــلات :

البستاني : الفريد ،
١ـ تدمه التادم (مقتضب) ،مجلة المشرق ،بيروت ،
مجلد ٤١ ،سنة ١٩٤٩ .
العبادي : أحمد مختار .
٢ـ الموحدون والوحدة الاسلامية ، مجلة التربية الوطنية ،
الرباط ، عدد مارس وأبريل ١٩٦٦ .
غرسيه : اميليوغرسيه .
٣ـ تمنيذة سياسية لابن طفيل لم تنشر ،تعريب أحمد هيكل ،
مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية ،مدريد مجلد ٢ ،
سنة ١٩٥٣ .
موسى : عز الدين عمر .
٤ـ التنظيمات الحزبية عند الموحدين ، مجلة أبحاث ،
الجامعة الاميركية ، بيروت ، مجلد ٢٣ ، سنة ١٩٧٠ .

د - باللغة الانجليـــزية :-

Burlkhardt, T.

1- Moorish Cultures in Spain , Trans. by Alisa Jaffa,
London , 1972.

2- Encyclopaedia of Islam, Leyden , 1913.

Foster , J.

3- History of the dominion of the Arabs in Spain , Trans.
from Spanish of Dr. J. A .Condé , London ,1913.

Ibrahim, M.

4- Martial poetry under the Hamdānids of Aleppo,
Ph. D. , London , 1965.

Imamuddin , S. M.

5- Apolitical Hist. of Moslim in Spain , Pakistan,
Sec . Ed., 1969.

Orton. C.W.P.

6- Out lines of Medievel Hist ., Cambridge , 1924.

Painter, S.

7- A. Hist. of the Mid. Ages, New York , 1954.

Read , J.

8- The Moors in Spain and Portugal, London , 1974.

Stephenson, C.

9- Medieval Hist., New York , 1942.

Tout, T. F.

10- The Empire and the Papacy, London, 1924.

المحتوى

الصفحة

ب) الأداء الفنّي :ـ

الفهارس :ـ

This thesis is a study of the Poetry of Jihad in Almohades era.

It consists of five chapters, an introduction and a conclusion .

In the introduction , there is a general survey of the Political , social and cultural life under Almohades rule.

* The first chapter deals with the Islamic concep - tion of the nature of conflict between Moslems and the Crusaders and the role of poetry in reflecting this conflict. The fight against crusaders is envisaged as " Jihad" motivated by religious belief and orientated to defend the Moslem faith throug defending Islamic rule. This religious spirit is explicitly reflected in the poetry of Jihad and manifisted itself in different ways.

The Arabic tribes, inhabiting North Africa , played a significant part in defending Islam through "Jihad " . Thus ,Poets did not fail to discribe and praise this contribution on the part of these tribes , within the context of " Jihad" and Islamic bonds.

** The second chapter reveals the concept of the " Hero" as discribed in the Poetry of Jihad. Heroesm in this context is based merely on individual extra-ordinary merits and attributes as much on collective efforts. Thus, although a hero starts as an individual , he ends up a model reflecting the general ideals of the Moslem hero.

*** The third chapter throws light on the picture of the Crusaders as conceived in the Jihad poetry under Almoh-ades.

Crusaders are discribed with much contempt but, nevertheless underestimating their danger and real strength . Poetry gives detailed picture of their utmost brutality in war and in their treatment of Moslems, in order to provoke the Moslem feeling againest them and to envoke the spirit of " Jihad" among Moslems.

The poetry of Jihad also portrayed the Crusaders army : its size , the different weapons used thereby its leaders and organisation,

**** Chapter four discusses the role of the poetry of Jihad in depicting the major events of the conflict between Moslems and crusaders. It also examines the validity of this poetry as a source of historical information.

***** Chapter five concludes the main body of the thesis with an evalution of the poetry of Jihad in this period: both in terms of its functional role and artistic style.

تصويبـــــــــــات

خطـــــأ	صـــواب	صفحة	سـطر
باحتجاب	باحتجـــان	٥	٤
اشـــبيلة	اشبيليـــــة	٨	١٠
د ولــــة	د ول	١١	٣
وانتهـت	وانتهـــت	١١	٧
أن يؤلفوا أبنائها	أن يؤلّفوا قلوب أبنائـها	١٣	٥
اقتصـــاء	اقتنــــاء	٢٣	٩
بن هـــــلال	بني هـــــلال	٥٤	١٦
بن هـــــلال	بني هـــــلال	٥٦	١٠
و قد نسب بعض المؤرخين الى عبد المـــؤمـن	وقد نسب بعض المؤرخين القصيدة الى عبد المؤمن	٥٦	٢٣
يأخذ ون	يؤخـــذ ون	٧٦	٦
الا ســـلامّيـة	الا ســــلاميّـة	١٠٩	١٧
والغـــرب	والمغـــرب	١٢١	٦
قصـــر معمود ة	قصـــر مصمـــودة	١٤٦	١٧
ود ارت الهيجـــا	ود ارت رحا الهيجـــا	٢٠١	٢
أمـــرّوا	أغـــرّوا	٢٠٩	٧
الكتـــافي	الكتـــاني	٢٤٩	٩
ـــن نـــبر	ـــن غـــبر	٢٥١	٧
مصـــر ســـياد ة	عصـــر ســـياد ة	٢٥٣	٥
الملاقيّـــــة	الملاتـيّـــــة	٢٥٣	٢٢
الد ولة الموفيّــة	الد ولة المومنيّـــــة	٢٥٤	٣٢